قطاع الثقافة

مطبوعات أخبار اليوم

الولد الشقى فى المنفى



محمود السعدنى

إهداء

إلى أم أكرم . . التى لولا صمودها وعنادها . .

لتمزقت حياتى - مثل أوراقى - وتبعثرت فى الهواء

محمود السعدنى

شهادة على العصر!

بقلم : محمد عودة

سوف يكون هناك ألف شهاده وشهادة على هذا العصر العاصف الذى نعيشه . ولكن تبقى شهادة محمود السعدنى فى رباعية الولد الشقى، متميزة فريدة غير أى شهادة أخرى .

ويمكن أن تعيش الثورة العرابية فى مذكرات أحمد عرابى ، أو أشعار محمود سامى البارودى، أو فى يوميات ويلفرد سكاون بلنت ، ولكن لن نغوص فى قلبها وتسمع نبضاته ودقاته ، وبعد مائة عام إلا من شهادة عبدالله النديم

وبمكن ان نعيش ثورة ١٩١٩ فى مذكرات سعد زغلول أو مصطفى النحاس ، وفى نثر وشعر عباس محمود العقاد ، أو فى حوليات الرافعى وشفيق باشا ، ولكن لن نتغلغل فى ثنايا روح وقلب مصر يومئذ قبل أن نقرأ أزجال بيرم التونسى مثلا .

وسوف تخلف ثورة يوليو تلا عاليا من الشهادات بأكثر مما خلفه أى حدث آخر ، وسيكون منها العلمى والموضوعى ، أو الرسمى والشكلى ، أو الزور

والزيف يخلفه «طابور الشهود» الذين لم يروا شيئا، أو رأوا ولم يفهموا شيئا . . ولكن تبقى شهادة محمود السعدنى . وثيقة وحدها، صادقة أصيلة تفيض حيوية . . ومصرية . . شهادة ابن الشعب والحارة الذى قامت له الثورة وعاشت بصموده .

والولد «الشقى» لا يشهد الأحداث عن بعد، ولا يتجنبها أو يتقى «شرها» ولكنه يندفع ويشارك ويزج بنفسه ويحشر أنفه فى كل مشكلة، ويقحم نفسه فى كل مظاهرة أو خناقة، ولابد له أن «يتكعبل» أحيانا وأن يدفع ثمن شقاوته .

وينتمى السعدنى الى الجيل الفريد فى تاريخ مصر الذى عاش أربعة عصور مختلفة، والذى غير تاريخ وكيان مصر، وكما لم يفعل جيل قبله .

نجح هذا الجيل كما لم ينجح أحد، وتعثر وفشل كما لم يحدث لأحد، ونهض من عثرته كما لم يتنبأ أحد، ويقاتل اليوم مستميتا ليجعل من ربع الساعة الأخيرة . . خاتمة مجيدة!

ويشهد السعدنى على هذه العصور الدرامية وأحيانا «المأساوية» شهادة «ابن البلد» الذى لا تفوته شاردة أو واردة ولا يستطيع أحد أن يخدعه أو يضلله، والذى لا يحكمه فى البداية والنهاية سوى حب البلد وأهله «الغلابة» .

عاش السعدنى العصر الملكى، عصر الثورة، والثورة المضادة، واستأنف الشقاوة فى عصر النقاهة الحالى الذى يتقلب بين الصحة والنكسة .

وكان من حظى الكبير أن رافقت السعدنى عبر هذا المشوار المضنى، ومنذ تتعرف الى السعدنى، يدخل حياتك ويأسرك، ولا يخرج أبدا، ربما تلعنه

أحيانا، وتنصب بالسخط عليه أو تقسم بأغلظ الايمان أنك لن تراه بعدئذ ولكن تصحو لكى تهرع اليه . . ودائما تجده فى منتصف الطريق قادما . . وفى الأوقات الحالكة العصيبة، لابد أن تجده هناك قبل أى أحد آخر، وفى الأوقات المرحة السعيدة لابد أن يكون السعدنى لأنها لا تكتمل بدونه .

وفى البداية وخلال العصر الملكى، كان يجمعنا حلم واحد دائم، لم يكن لنا سواه . يؤرقنا ويضنينا . ونسأل أنفسنا عنه، كل يوم . . طرقنا كل السبل إليه . . وحددنا أدوارنا . . وبلورنا البرامج والمناهج والمطالب . ولكن اكتشفنا ان علينا أن ننتظر «الثورة» .

كان الهرم الذى ترزح تحته مصر ثقيلا . . بكل ثقل أهرامات مصر . كان هناك ملك وأمراء ونبلاء وباشوات وبكوات وافنديات، وفوق هؤلاء جميعا هرم أكبر من الخواجات، كل ألوان وأنواع ودرجات الخواجات . . وتحت هؤلاء جميعا كان يرزح الشعب، مستنزفا مسحوقا . يبدو بلا حول ولا طول .

*****

وفى غمرة اليأس فاجأنا الفجر . . وانقشع الظلام الدامس، وكشفت مصر عن احدى كراماتها وتحول الحلم الى حقيقة وقامت الثورة، وانجبت «البطل» وقادنا الى الخلاص .

ولأول مرة شعرنا أننا استرددنا أنفسنا وانتهت غربتنا ولم نعد مواطنى الدرجة الثانية أو الثالثة المستبعدين، واستعدنا حقنا الشرعى فى أن نملك ونحكم «بلدنا» .

ولكن الثورات ليس حفلات سمر أو عشاء، وليست مهرجانات أفراح فحسب، وهى لابد ان تفجر الصراعات والمتناقضات، خاصة اذا كانت التركة ثقيلة والطريق غير معبد، والبوصلة غير محددة.

ولم يكن ممكنا للولد الشقى أن يسكت وأن يمسك لسانه أو يحد من قلمه، ولابد له أن يشاكس ويعاكس.. أليست ملكه ومن حقه أن يقوّمها.. ولذا كان لابد له فى النهاية أن يقع فى المحظور.

وبعض الثورات تأكل ابناءها وأحيانا تلتهمهم. ولأن ثورتنا كانت انسانية بيضاء اكتفت بالنسبة للأولاد الأشقياء بفرك آذانهم.. ولم يكن ذلك عقابا بقدر ما كان سوء فهم وحظ، وإن كان يؤلم أشد الألم، لأنه ليس أقسى من ان يصطدم «الثائر» بثورة يؤمن بها وأن يرتطم بفكر ينتمى اليه!

ولم يغير ذلك شيئا فى ثقة السعدنى أو سلامة نفسه، كان يملك سلاح المصرى العنيد، وتعويذته التى تحفظه فى كل العصور من كل الشرور، وهى حاسة الفكاهة العريقة التى يحول بها المصرى مآسيه الى مرح وضحكات مجلجلة، ولابد لكل ثورة أن تبث عبقريتها وأصالتها بأن تنجب كاتبها الساخر يسجل ويفسر مفارقاتها، وكان محمود السعدنى، ابنها البار ولسان حالها النابض، وأيضا أصبحت رباعية الولد الشقى ملحمتها الشعبية الأولى.

*****

ولم يقدر مع هذا- للحلم- أن يطول، وكان لابد أن يصيبه ما أصاب أحلاما كثيرة.. ووقعت الكارثة، ورحل المخلص فجأة، وسقط الظلام على

كل شىء بين صدمة وذهول الجميع . . وبدت مصر كأنما حكم عليها ألا تحقق نفسها أبدا .

انقضت القوى المضادة على الثورة بعد ما فتحت لها الأبواب ، وانكفأت فى حقد محموم تعيد كل عقارب الساعة ، وتجهز على كل شىء .

وبدأت سنوات المحنة وكــان لابد أن يكون الولد الشــقى بين أولى ضحاياها ، وحينما قرر له أن ينجو ، جمع أوراقه وحمل عصاه وقرر أن يرحل ، أن يهجر «معشوقته» ومحور حياته «مصر» ولم يكن وحده . . لقد ذهب معه موكب عريض من صفوة الكتاب والصحفيين والأساتذة ممن لم تعد تسعهم مصر .

رحل «الولد الشقى» ولم يكن ذلك مجرد سفر ولكن «اقتلاع» من أرض ، لا يمكن ان يعيش أو «يترعرع» إلا فيها .

وفى المنفى لم يشأ السعدنى أن يعثر على برج وثير من العاج يلوذ به ، ولم يبحث عن بلاط أو نظام يحتمى فى كنفه ، وغلب الطبع التطبع واختار منفاه فى لندن .

ومن تقاليد الامبراطورية التى مازالت حية ، أنه يمكن قهر الشعوب ، ولكن يجب حماية الثوار والأحرار بشرط أن يلجأوا الى لندن . . واحتمى السعدنى بالقاعدة ، وقرر ان يمارس «الشقاوة» هناك ، أن يشرع قلمه ويقاوم ، وأن يصدر مجلة يثأر فيها لخيانة الثوار وإهدار حقوق «أولاد البلد» .

وبدأ المشروع حلما من أحلام اليقظة يعيش به «زمنا رغدا» ولندن مهما كانت ، غابة كثيفة تحفل بالأخطار ، وكان الرئيس السادات قد أصبح برغم كل

شىء «نجما» فى الغرب بل وصنعوا منه «سوبر ستار» ولن يسمحوا لأحد بأن يخدش «الصورة» التى شحذوا جهدهم وأنفقوا الملايين «لاختراعها». وقد يحمى البريطانيون الأحرار ولكنهم يقدسون مصالحهم، وليس لهم أعداء أو أصدقاء ولكن لهم دائما مصالح!

وترنحت- وهو يروى لى المشروع- بين الحذر والانبهار تذكرت أحد العرابيين المجهولين، «دوس محمد» رحل الى لندن بعد هزيمة الثورة ولا يعرف شيئا أو أحدا وأقام فى قلعة الاستعمار خلال ذروة الامبراطورية ليدافع عن عرابى، وليصدر نشرة بالانجليزية يوزعها بنفسه. ثم كتب كتابا لايزال احدى شهادات العصر.

وتذكرت إمام المنفيين جمال الدين الأفغانى ومجلته «العروة الوثقى» فى باريس، التى أصدرها بعد أن نفاه «الخديو» وتسللت الى كل الأراضى العثمانية، وتذكرت «أديب أسحاق» الذى بعث به رجال الحزب الوطنى العرابى ليصدر جريدة الحزب فى باريس ثم يهربها الى مصر لكى تباع سرا.. وأحيانا بجنيه ذهب للنسخة الواحدة.

وتذكرت «يعقوب صنوع» الذى بدأ ذلك حينما نفاه الخديو اسماعيل، وظل مثابرا على اصدار المجلة حتى مات، بعد عمر طويل يضيف محمود السعدنى صفحة اخرى الى هذا التراث ويثبت استمرار مصر وصمودها.

ولدهشة الجميع صدرت المجلة وحملت اسم «٢٣ يوليو» ولم تلبث أن بهرت الجميع وأصبحت حديث العرب.. أصبحت مكاتبها فى حى «ايرلز كورت» مجمعا سياسيا ثقافيا لكل الأحرار والمعارضين والكتاب والفنانين

والسياسيين، أصبحت من معالم بريطانيا بالنسبة لكل عربى . وكان روحها و«الدينامو» الذى يديرها هو «محمود السعدنى» ويمكن ان تسمع ضحكاته تجلجل عن بعد، وخلال أربع وعشرين ساعة كل يوم .

كانت تصدر أسبوعيا وتتسلل بأعداد كبيرة الى مصر، وأصبحت تتصدر قائمة المهربات التى يدسها كل مصرى بين ملابسه أو فى قاع حقائبه، وتضخم توزيعها فى العالم العربى، وفى أقصى أطرافه وحيث لم يتوقع أحد أن توزع، وكانت تصيب المسئولين فى ذلك الحين بنوبات أسبوعية من «الصرع» واستبسلوا فى حصارها أو تقويضها أو اغلاقها ولكن بلا جدوى . .

ومهما كان نجاحها، إلا أنها كانت سباحة ضد التيار، ولم يكن تيارا أو إعصارا واحدا ولكن طوفان . . وسبحت فيه تماسيح وأسماك قرش كثيرة . . وكان على السعدنى أن يقف متصديا وأن يتقيها من كل اتجاه .

*****

ولم يلبث الكرب أن زال . وقد جاءت النهاية مأساوية مروعة .

وفى الصباح التالى على الفور أعد السعدنى حقائبه . . لم يعد هناك معنى للبقاء لحظة أطول خارج مصر، ولم يعد هناك معنى أوطعم لأى شىء فى لندن . لا العشاء فى «الكازانوفا كلوب» ولا التسكع فى مقاهى «بيزوتر» ولا المشتروات من «اوستن ريد» ولا حتى مشاغبة العرب فى «بلاى بوى» .

ولم تُجد النصائح بالتروى والتمهل والى ان تتضح الأمور، وأصبحت العودة حمى تستبد به، وانهالت الخطابات والبرقيات والمكالمات فى كل

ساعات الليل والنهار، لا يهم أى شىء ولابد أن يعود ولو ليجلس على باب «السيدة أم العواجز» واستغرقت مراجعة المحاضر والملفات بعض الوقت ولكن فى النهاية عاد محمود السعدنى الى الجيزة.

وفى اليوم التالى، بدا كأنه لم يغادرها قط، ولم يخرج من حارة رابعة..

وتوافد المهنئون على قهوة المعلم حسن مقره المختار، وأصبح الغداء والعشاء وكل الوجبات طواجن مع المعلم ابراهيم نافع، وكل ليلة وسهرة لابد ان تنتهى بالشيشة العجمى فى مقاهى الحسين.

عاد «الولد الشقى» رافع الرأس الى الحارة وأهل الحتة. وجلس ليروى بالتمام والكمال كل ما جرى له فى بلاد لا تركب الأفيال.

وكما شاء الرئيس !!

أنـــا

أولا وقبل كل

شىء لم أحلم فى

حياتى بأننى سأغادر

يوما ما أرض مصر وأن أترك

مصر ! أنا . . الذى سقط رأسى

على شاطىء الرياح المنوفى ، الذى

تلعبط فى مياه ترعة سك وهى ترعة ليس لها

مثيل فى الكون ، لأن فيها من الطين ضعف ما فيها

من الماء . ونشأت وترعرعت فى حوارى الجيزة وعشقت

تراب الحسين وبرك المدبح وتلال زينهم وعيون فم الخليج ،

وقضيت أعواما من حياتى عائما على سطح مياه النيل ، وعشت

سنوات طويلة من حياتى فى سجون مصر .

ولعلى الكاتب المصرى الوحيد الذى تربطه صله صداقة متينة مع عشرات الحرفيين والمهنيين من أبناء مصر . وزراء ومديرين ومثقفين وجهلاء وموظفين وصياع وأصحاب ملايين وأصحاب ديون وفلاحين واقطاعيين وفنانين وأغنياء وموهوبين ومدعى الموهبة !

وأنا اعتبر نفسى فنيا ابنا بارا لبيرم التونسى وكامل الشناوى ومحمد التابعى وزكريا الحجاوى ومأمون الشناوى ، وسياسيا أنا وفدى فى البداية ، ناصرى

منذ عام ١٩٦٤ وحتى أبعث يوم القيامة، ثم أنا في مصر مشهور شهرة أهرام خوفو، وخلال أيام الصياعة وأيام الشهرة لم أغير أصدقائى ولم أنتقل من الجيزة الى الزمالك. وكانت قهوة حسن عوف هى مكانى المختار حتى عندما كان الوزراء فى مصر يخطبون ودى، ودكان أحمد الحلاق كان هو «النايت كلوب» الذى أقضى سهرتى فيه مع الحاج ابراهيم نافع والحاج سيد مخيمر وسرور أبوهاشم وأحمد عبدالعال ومحمد حوالة وجميعهم تجار وفلاحون ولا علاقة لهم من بعيد أو قريب بالصحافة أو السياسة، وعندما ألقى القبض على فى عام ١٩٧١ نتيجة مؤامرة لازاحة الجناح الناصرى فى السلطة المصرية، اعتبرت أنا رأس الحربة فى هذا الجناح، لم يغفر لى الدور الذى لعبته على المستوى الشعبى فى صف الحكم الوطنى أيام عبدالناصر، كان هيكل هو السفير الناصرى فى الدوائر العالمية والدبلوماسية، وكان العبدلله- بدون تواضع- هو السفير الناصرى الى مصاطب الفلاحين ومصانع العمال ومقاهى الصياع وقعدات فتوات المدبح وجدعان الحسنية.

كان بريدى فى روزاليوسف هو أضخم بريد عرفه كاتب مصرى فى الستينات من هذا القرن، ولذلك أنفق- الدكتور حاتم- عشرات الألوف من الجنيهات لبعض الصحف المأجورة فى بيروت لتشتمنى بينما كنت رهن الحبس وقيد الأغلال.

والحق أقول أنه حدثت وساطات من أجلى وشفاعات تقدم بها بعض الرؤساء منهم على سبيل المثال العقيد القذافى. ولقد قال لى العقيد عند لقائى به عام ١٩٧٥ : «لقد قلت للرئيس السادات إن وجود محمود السعدنى فى

المؤامرة هو مجرد نكتة» ورد السادات على القذافي «لقد سبني يا معمر وسب بيتي، وأنا لست حاقدا عليه ولكني غاضب عليه فقط وسأعاقبه بأن أشد أذنه». وضحك العقيد القذافي وهو يروى لى القصة وقال: «لقد صدق الرجل فيما وعد به، لقد كان الحكم عليك مطابقا لوعده».

والحقيقة أنني لم يكن لى دور فيما يسمى بالمؤامرة، ولم أعلم بهذه المؤامرة إلا عندما بدأ النائب العام استجوابي. كانت كل جريمتي انني رويت أكثر من نكتة على رئيس الجمهورية. وهي نكت مسجلة لأنني رويتها في التليفون لأصدقائي. وعندما أفرج عني فجر اليوم التالي لموعد الافراج، ظننت ان الأمر انتهى، أنا أخطأت على فرض أنني أخطأت. وقد نلت عقابي وانتهى الأمر، ولكني فوجئت بأنني مفصول من مؤسسة روزاليوسف، وأنني ممنوع من الكتابة وأنه محظور على الصحف نشر اسمي حتى في الوفيات.

والحمد لله لأنني لم أمت في تلك الأيام، إذن لما عرف الناس أنني مت، وربما لم يذهب خلفي أحد الى دار السلام، ولقد حدث خلال تلك الأيام أن ذهبت الى مكتب عمل الجيزة أطلب ورقة رسمية بأنني عاطل كما يتضمن القانون، ولكن مدير المكتب رفض واتصل بمدير المباحث العامة الذي نهاني عن طلب هذه الورقة وقال ان كل شيء سينتهي على خير.

وكتبت مسرحية بعنوان (٤-٢-٤) وذهبت بها الى يوسف السباعي وزير الثقافة فوعدني بعرضها على رئيس الجمهورية! وقلت للعم يوسف يرحمه الله: مسرحية هزلية تحتاج الى موافقة رئيس الجمهورية؟ فرد العم يوسف: «لن أضحك عليك، أنت تعرف أن قضيتك مع رئيس الجمهورية وهو وحده الذي يقرر ولا أحد سواه».. !!

واتصل بى ذات صباح الزميل أحمد رجب وقال لى: إن رئيس الجمهورية وافق على ان تنشر كتبك القديمة. وسألت أحمد رجب ومن الذى يرضى بنشرها والكل يعلم أن الرئيس يعادينى؟ قال فى مؤسسة روزاليوسف وسأخبر رئيس المؤسسة الآن. واتصل برئيس المؤسسة الذى شتمنى فى سجنى.

المهم ان رئيس المؤسسة أحالنى الى لويس جريس، وقال لويس جريس بطريقته «وهاعمل ايه يا عم محمود عندنا عشرة كتب لما نطبعها نبجى نطبع كتابك ما أنت عارف يا عم محمود» وجاء الفرج أخيرا، رق قلب كبير العائلة وأمر بتشغيلى ولكن بعيدا عن الصحافة.

ولم أدرك الحكمة من هذا القرار. فلو فرضنا أننى حداد أو نجار أو تاجر خضار واشتركت فى مؤامرة ودخلت السجن ثم خرجت من السجن فهل أترك تجارة الخضراوات الى الهندسة؟ لقد كنت صحفيا وسأبقى صحفيا وسأموت صحفيا وسأبعث يوم القيامة فى كشف نقابة الصحفيين. إن أحدا لا يستطيع أن يصنع كاتبا، يمكن صناعة وزير أو رئيس وزراء أو حتى رئيس جمهورية ولكن لا أحد يستطيع أن يصنع كاتبا أو مطربا لأن الموهبة منحة من عند الله.

ووجدت نفسى فى شركة المقاولون العرب، فأنا لدى نقطة ضعف مع عثمان أحمد عثمان، فأنا أعرفه منذ زمن بعيد، والحق أقول أنه الوحيد الذى كان معى رحلا خلال محنتى الأخيرة، كان من أصدقائى وزراء وكبراء وأصحاب نفوذ وأصحاب ثراء، ولكنى اكتشفت لحظة المحنة أنهم جميعا بلا أخلاق وبلا ضمير، الوحيد الذى كان رجلا هو عثمان أحمد عثمان، ولذلك وافقت على العمل مع عثمان بعض الوقت على أمل أن أعود بعد فترة الى مهنتى التى خلقت لها وهى الصحافة.

ولقد صارحت عثمان بذلك منذ اليوم الأول وقال لى عثمان وهو يضحك : إن كل مصرى يتمنى العمل فى شركة المقاولون العرب وأنت الوحيد الذى يرفض هذا، انك مجنون، وبعد نقاش طويل قال لى عثمان : اطمئن ان الرئيس قلبه كبير وستعود الى مهنتك عما قريب وأنا أعدك بذلك.

وسافرت للحج مع عثمان ثم عدت من هناك لافاجأ بأننى مطلوب فى قضية أخرى امام محكمة جنايات أمن الدولة بتهمة سب موظفين عموميين هم حضرات السادة ورؤساء ومديرو مؤسسة السينما المصرية، وكنت قد اتهمتهم بتبديد مبلغ ٨ ملايين جنيه خلال السنوات التى تولوا فيها أمور المؤسسة.

والغريب فى الأمر اننى لحظة نشر مقالاتى فى صباح الخير لم يتحرك أى أحد منهم ولكنهم تحركوا جميعا ولجأوا للقضاء بعد سجنى فى قضية المؤامرة. ولقد انتهزوها فرصة للقضاء علىّ، ولكنهم أفادونى من حيث أرادوا الاضرار بى، وكانت هذه القضية فرصة ذهبية لمغادرة سجنى الكئيب عدة مرات للمثول امام المحكمة التى لم يقدر لها نظر القضية خلال فترة سجنى، والتى انتقلت من دائرة قضائية الى دائرة اخرى حتى انتهى آخر الأمر الى دائرة المستشار زكريا حذيفة، وهو قاض شهير خرج فى حركة تطهير القضاء التى جرت فى عام ١٩٦٩.

ومرة أخرى سافرت الى بيروت فى محاولة لتأجيل نظر القضية وعدت لأفاجأ بأن القضية قد تأجلت لمدة أسبوع وأن على أن أمثل أمام قضاتى فى اليوم التالى لوصولى من بيروت.

ولقد كانت هذه القضية سببا مباشرا فى تأكيد احترامى للقضاء المصرى. وهى فى النهاية ورقة ناصعة فى كتاب القضاء المصرى العظيم. لقد انقلبت المحاكمة الى مظاهرة سياسية وحضر للدفاع عن العبدلله عشرة محامين على رأسهم شيخ المحامين المصريين الدكتور محمد عبدالله، وضمت قائمة الدفاع صبرى مبدى وعباس الأسوانى وصالح فراج وعبدالرؤوف على وآخرين وقضت المحكمة ببراءة العبدلله، وجاء فى حيثيات الحكم: «حيث إن مؤسسة السينما كانت فاسدة فإن القائمين عليها بالضرورة كانوا فاسدين»!! ولكن هذا الحكم الذى صدر لصالح صحفى.. لم تقبل صحيفة واحدة بنشره! واضطررت لنشره فى الاعلانات المبوبة بجريدة الأهرام ونشروه بالأجر لكن بخط لا يرى وفى مكان إعلانات بيع السيارات المستعملة وتأجير الشقق المفروشة!!

وعدت من جديد أطالب بعودتى الى روزاليوسف وكان من الممكن ان استمر فى المطالبة مع استمرارى فى العمل بالمقاولون العرب، غير أننى اكتشفت فجأة ما جعلنى أتخذ قرارى، بمغادرة مصر الى بلاد الله لخلق الله.

فقد سعيت للسفر مع ابنتى هالة لاستكمال علاجها فى لندن، وعندما ذهبت للحصول على تأشيرة الخروج طلبت منى مصلحة الجوازات خطابا من شركة المقاولون العرب بأنها موافقة على سفرى الى الخارج وعدت الى الشركة والتقيت مع المدير العام الذى كان يعرف صلتى بعثمان، لكنه لا يعلم على وجه التحديد مشكلتى. وفوجئت بالرجل الطيب يصارحنى بأننى لست موظفا فى المقاولون العرب وأننى مفصول من خدمة الحكومة والصحافة

والقطاع العام بقرار جمهورى وهو بمثابة فرمان الهى لا يقبل النقض أو التعديل. وسألت الرجل وكيف أتناول مرتبى من الشركة إذن؟ ورد ببساطة انها نقود تدفع لى من جيب المهندس عثمان ولا علاقة للشركة بها!

يا سبحان الله . . إذن لقد خدعنى عثمان وخدعنى الجميع وأنا لست موظفا فى المقاولون العرب منقولا من روزاليوسف ولكننى عاطل أتقاضى «حسنة» من جيب عثمان!! وهل أصبحت جثة الى هذا الحد؟ ولكنى أصبح جثة بالفعل لو ارتضيت هذا الوضع. إذن لابد من الهجرة وإلى أى مكان. حتى لو اضطرتنى الظروف الى العمل حمالا فى الميناء أو عامل نظافة فى الطريق العام.

وعندما جلست أمام مديرة ادارة التأمينات الاجتماعية لأحصل على مكافأتى نظير سنوات الخدمة قال لى الرجل شحاته فانوس الذى أحيل للمعاش منذ سنوات: ان الذى أمر بفصلك حمار. لأنه لا يحق فصلك. لأنك تعمل بالصحافة والصحافة ليست دائرة حكومية. كما أنها ليست من دوائر القطاع العام. .

سألته ولماذا تصرف المكافأة إذن؟ قال لأننى أيضا حمار، وأنت أيضا حمار لأنك ستقبض المكافأة، على أية حال إذا كنت فى حاجة اليها فخذها. ولحظة انتقال السلطة من هذا الرئيس الى رئيس آخر فستحصل على حقوقك كاملة، فأنت من الآن والى أن يتم انتقال السلطة محرر فى روزاليوسف وحقوقك محفوظة بشرط أن تبقى على قيد الحياة بعد ذهاب الرئيس!

وكما شاء الرئيس !!

وهكذا تناولت المكافأة وطرت مع هالة الى لندن. . وفوجئت فى عاصمة البريطانيين بأن حجرة المستشفى التى كانت بعشرين جنيها قد قفزت الى المائة. . وحاول بعض الأصدقاء مساعدتى منهم الطيب صالح وادجار فرج ونور السيد، ولكن لأن امكانياتهم ضئيلة فقد جاءت المساعدات فى حدود الامكانيات وبقيت المشكلة بدون حل. وأرسلت أستدين نقودا من كل من أعرفه خارج حدود مصر. واستجاب أصدقاء كثيرون، ومد لى يد المساعدة منهم فؤاد مطر والمرحوم زكريا الحجاوى وطلال سلمان وأمين الأعور الذى كان سخيا الى أقصى حدود السخاء!

وانتهت مشكلة هالة مؤقتا، فقد كان امامها عمليات جراحية أخرى لابد من إجرائها قبل ان تستوى واقفة على قدميها بإذن ربى!

وهكذا سافرت هالة الى القاهرة وبقيت وحدى فى لندن فى انتظار ان أسمع خبرا من هناك بأن مشكلتى فى طريقها الى الحل. ولكن الأنباء جاءت عكس ما اشتهى. فقرار الرئيس مقدس، وعلى أن أخضع لمشيئته، فأنا صحفى سابق ومشرد رسمى فى شركة المقاولون العرب اتقاضى إكرامية من جيب المهندس عثمان ومن يدرى ماذا يحدث غدا، قد أصبح متسولا أهليا أتقاضى الاكراميات من جيوب المحسنين!

وقضيت أياما صعبة فى لندن أقلب الأمر على جميع الوجوه، هل أعود الى القاهرة وأخضع؟ هل أقبل الأمر الواقع؟ هل أرضى بالمقسوم وأعيش حياتى كما شاء الرئيس لا كما شاء الله!، ولكن أى حياة ستكون حياتى. لقد خلقنى الله صحفيا أشم رائحة الورد بين ماكينات الطباعة وفى عروقى يتدفق حبر

أحمر . ونظرت الى مايدور حولى فى لندن وابتسمت، هل يوجد فى لندن أى صحفى ممنوع من العمل فى المهنة لأنه على خلاف مع مستر ويلسون؟ هل رأيتم فى لندن صحفيا يجلس على المقهى لأنه فى عراك مع المستر كالاهان؟ لماذا نحن دون خلق الله نعيش وفقا لارادة الرئيس ورهنا لمشيئته؟ ونحن من؟ نحن أهل مصر ولسنا أهل غينيا الاستوائية .

إن كل شىء ممكن فى افريقيا الوسطى تحت حكم الامبراطور بوكاسا، ولكن هل يمكن أن تتحول مصر الى افريقيا الوسطى!

وبعد أيام طويلة امتدت الى أسابيع أحسست بالراحة تملأ نفسى وبالطمأنينة تخفق مع شرايين قلبى، لقد قررت العودة .

نعم قررت العودة الى الصحافة ! !

وفى البدء كانت لدى عدة عروض، عمنا المرحوم زكريا الحجاوى ارسل لى خطابا يحثنى فيه على الذهاب الى قطر . قال ان شخصا اسمه الحسينى يصدر مجلة اسمها العهد ويرغب فى اسناد رئاسة تحريرها لشخصى الضعيف، وفى الخطاب استغاثة من العم زكريا . أن أسارع بالذهاب الى هناك . وشعرت بالألم يعتصر قلبى ويدميه . فزكريا قطعا فى أزمة، وهى بالقطع ليست أزمة مادية ولكنها أزمة عاطفية على وجه اليقين . فزكريا الحجاوى فى قطر أشبه بفلسطينى فى حارة يهود .

زكريا الحجاوى الذى حمل على رأسه هم الفلاحين وغمهم وطاف بقرى الريف المصرى مد يده الى كل موهبة فى طين مصر، والذى كانت رائحة روث

البهائم فى القرية المصرية تنعشه وتفجر براكين الحياة فى جسمه البدين، زكريا الحجاوى الذى مارس الجنس مع الأرض المصرية من شدة عشقه لها، ماذا يفعل مثل هذا الفنان فى قطر؟ حيث الهواء مشبع برائحة النفط، وحيث المواهب هى أحقر سلعة فى سوق العمالة هناك، وحيث المتصارعون فى الحلبة لا هدف لهم إلا جمع المال وتكديسه بأقصى سرعة ممكنة. ثم الهروب من هناك الى حيث يمكن استئناف الحياة من جديد.

زكريا لابد فى حاجة الى صديق، صديق يذكره بمصر الطيبة. مصر الصياغة والفن والتجوال بلا هدف. وكان لدى عرض آخر من أبوظبى، دار الوحدة ولديها مجلة اسمها الظفرة، وجاء بالعرض جلال كشك وأنا بعد فى القاهرة ورفضته فى البدايةثم عدت من جديد لأفكر فيه.

ولكن سطور زكريا الحجاوى شدت أذنى ولوت عنقى نحو قطر. وحكمة الله اننى كنت أضع زكريا فى مرتبة أمى. وكان حبى له بلا حدود.. وأحيانا كثيرة تشاجرت مع زكريا، وأحيانا أخرى خاصمته، ولكننى كنت دائما أعود إليه كما يعود الولد الشقى الى أمه. وكنت أجلس إليه استمع الى أكاذيبه وخرافاته كأنه يهودى مخلص يستمع الى مزامير داود.

وما أكثر المرات التى خدعت فيها زكريا الحجاوى وأخذته عنوة معى الى مشاوير بعيدة ومهام لا علم له بها، وكان يتقبل الأمر فى النهاية بصدر رحب وبضحكة صافية عميقة.

ذات مرة اتصل بى محافظ بورسعيد وأفهمنى أنه يعتمد على فى القاء محاضرة مساء الغد امام القيادات الادارية والسياسية فى المدينة. ولم أكن

مستعدا لألقاء المحاضرة ولم تكن لدى الرغبة فى ذلك. فاتصلت بزكريا الحجاوى وقلت له : اننى ذاهب الى قرية فى الريف لأن معركة عنيفة نشبت بين عائلتين هناك. احداهما تمت لى بصلة قرابة، وأنا ذاهب لمحاولة عقد الصلح بين الطرفين. وساد الصمت بيننا لحظة قطعه زكريا قائلا : متى نذهب ؟. قلت الآن. قال : سأذهب معك.

وطوال الطريق الى بورسعيد راح زكريا يسألنى عن اسم القرية واسم العائلتين المتصارعتين؟ وفى كل مرة اخترع له اسم عائلة واسم قرية. . ونام زكريا فى الطريق واستيقظ امام مبنى محافظة بورسعيد، وتركنا السيارة الى قاعة تضيق بالناس من مختلف الأعمار. ودوت عاصفة من التصفيق. كل ذلك وزكريا ينظر نحوى فى ذهول. وأمسكت بالميكرفون باعتبارى المحاضر ولكنى قلت للحاضرين : لقد جئت اليكم الليلة لأستمع فلا يجوز لمثلى أن يتكلم لأنه لا يفتى ومالك فى المدينة. أيها السادة أقدم لكم عمنا الكبير زكريا الحجاوى فليتفضل. . وضجت القاعة بعاصفة شديدة من التصفيق والهتاف ومال زكريا على أذنى قائلا : مش هتبطل مقالب يابن الكلب.

وابتسمت لزكريا وقلت بصوت عال تفضل أستاذنا. وكانت ليلة ولا كل الليالى. تجلى زكريا كأروع ما يكون المحاضر وسهر الناس معه حتى الفجر وسهرت مع زكريا حتى الصباح اضحك معه على المقلب الذى شربه وهو فى غاية الانشراح.

وكان لابد أن أذهب الى زكريا، وبالفعل ركبت الطائرة الى الدوحة وكان فى مطار الدوحة زكريا الحجاوى فى انتظارى والصديق الطيب صالح

والحسينى رئيس تحرير مجلة العهد، ومن أول نظرة للأخ الحسينى أدركت أننى لن أعمل معه.

وقضيت فى قطر ثلاثة أيام كانت من أجمل أيام العمر، وكانت هى أيضا آخر عهدى بزكريا الحجاوى، لم يقع نظرى عليه بعد ذلك ومات غريبا فى المنفى يتحسر على أيامه فى القاهرة ويبكى كلما جاء ذكرها فى مجلسه.

انتهت مفاوضاتى مع الحسينى بالفشل. كان لديه امكانيات ضئيلة ويحلم بإصدار مجلة فى حجم النيوزويك! ولم تكن له صلة سابقة بالعمل الصحفى، وكان يعتقد فى قرارة نفسه أنه سيقضى على جريدة الأهرام.. وتركت الدوحة رغم توسلات زكريا الحجاوى. لقد قررت العودة الى الصحافة ولم تكن «العهد» هى الصحافة التى قررت العودة لها، وهكذا طرت من جديد الى أبوظبى. وفى أبوظبى فاتحنى الزميل مصطفى شردى لأعمل فى دار الوحدة.

وقلت لمصطفى:

لقد كان لدى عرض سابق ولا مانع من مناقشة الأمر.

وهكذا دخلت دار الوحدة برفقة واحد اسمه ابراهيم المطيرى سيصبح صديقا لى فيما بعد. كان ابراهيم هو مدير التحرير الذى سأحل محله. وكان يدير التحرير بطريقة تثبت أن موهبته الأصيلة هى الملاكمة ولكنه اخطأ طريقه فى الحياة وكان يقرأ الجريدة بصعوبة ومع ذلك كان هو المكلف بمراجعة المواد. وكان شديد الطيبة فى أعماقه. شديد الغطرسة فى الظاهر، وكان يتعمد إظهار أسوأ ما فيه ويجاهد كثيرا لكى يخفى مشاعره الطيبة. ونجحت فى تحويل

ابراهيم من وحش مفترس الى حيوان أليف . وقررت العمل فى جريدة الوحدة فقد كان لديها فرصة لتصبح واحدة من الجرائد المؤثرة فى الخليج .

أولا : لأن صاحبها كان جادا فى الوصول بها الى هذه المرتبة .

ثانيا: لأن الجو السياسى فى أبوظبى يختلف عن جو الدوحة . ففى أبوظبى نسبة كبيرة من الحرية . وللصحافة حق الخوض فى مواضيع محرم على صحافة الدوحة أن تخوض فيها أو تتعرض لها ، ثم هناك جريدة هى بالقطع أفضل من جرائد ليبيا والجزائر والعراق معا . وأقصد بها جريدة الاتحاد . ثم هناك عشرات من الصحفيين من مصر وسورية وفلسطين الى جانب عشرات آخرين من الأرزقية امتهنوا الصحافة باعتبار انها أفضل من السرقة والتهليب وكل شيء يغضب الله . . !

وقضيت عشرة أيام داخل دار الوحدة ثم قررت أن أهرب من الدار ومن أبوظبى كلها . لقد اكتشفت قانونا غير مكتوب ولكن تنفيذه واجب على الجميع . . ان موازين القوى فى الخليج تحتم تعيين اعداد مختلفة من جميع الجنسيات فى العمل الواحد . . بمعنى أنك لو كنت فى حاجة الى عشرة صحفين فلابد أن يكون ثلاثة منهم مصريين وثلاثة فلسطينيين وواحد سورى وواحد سودانى وواحد هندى . . وواحد يمنى مثلا . أو بلوشى أو ايرانى أو ما تيسر من الجنسيات . وقد يكون مفيدا تطبيق مثل هذا القانون فى عمل تجارى مثلا . ولكن فى عمل صحفى . . اسمحلى !

ولكننى فخور بالفعل لأننى اكتشفت خلال تلك الفترة القصيرة كثيرا من المواهب لو سنحت لها فرصة حقيقية لقدمت عطاء كثيرا . بلا شك . . الفنان

وكما شاء الرئيس !!

محمد العكش الذى لابد ان يذكر يوما ما فى تاريخ صحافة الامارات بأنه أسهم مع آخرين مثل مصطفى شردى بمجهود رائع فى خدمة المهنة وازدهارها فى هذه البقعة من أرض العرب، وهندى غيث المصرى وأسامة فوزى الفلسطينى. وكثيرين غيرهم. حفروا فى الصحراء بأظفارهم لتمهيد الطريق امام الصحافة الناشئة.

وحقيقة أذكرها الآن من باب العلم بالشىء. أننى لم أتقاض أجرا عن الأيام العشرة التى قضيتها فى دار الوحدة. وأننى آثرت السفر الى بيروت تاركا حقيبة ملابسى فى عهدة ابراهيم المطيرى. وحتى هذه لم تصلنى إلا بعد أسابيع كثيرة من سفرى، ولكنها على أية حال كانت تجربة مفيدة. لقد أكدت لى أن الخليج ليس هو بحر الرمال المتحركة ولكنه بحر الحياة المتطورة والآمال العريضة والمستقبل الغامض الحافل المتخم بالفرص والمفاجآت. وآه على مصير الموهوبين الذين مكنت لهم خلال فترة اقامتى القصيرة هناك. لقد خلا الجو بعد رحيلى لعديمى المواهب فافترسوهم بعد ذلك. ولكن لأنه لا يصح فى النهاية إلا الصحيح فقد عادوا من جديد لتسير القافلة. ذلك لأن الموهبة كالجريمة لابد ان تنكشف يوما ما!

******

هبطت بى الطائرة صباح عيد رأس السنة ١٩٧٥ فى بيروت. فى الطريق من المطار الى فندق استراند قرأت فى جريدة بيروت نبأ مظاهرات فى القاهرة وحرائق هنا وهنا؛ والقبض على عشرات من المتظاهرين والبحث عن آخرين بتهمة إحراق القاهرة، وبيان من وزير الداخلية بأن الأمر كان مدبرا من قبل،

وأن هناك مؤامرة سعت اليها أطراف عديدة ووعد من وزير الداخلية بالضرب بيد من حديد لسحق المؤامرة والمتآمرين. يا سبحان الله.. لو أننى كنت فى القاهرة لكنت الآن فى سجن أبوزعبل.. أو فى ليمان طره على أقل تقدير، ففى المعتقلين أصدقاء لى وبعضهم كان يعمل معى أيام التنظيم الطليعى: أمين الغفارى وعبدالغفار صيام وسعد كامل هارب وهو أيضا زميل فى المهنة وصديق فى الحياة.

وهاهى ذى الحكومة التى أحرقت الشرائط المسجلة عقب ما جرى ١٩٧١ تعلن أن لديها شرائط مسجلة للمؤامرة الجديدة وصورا فوتوغرافية.

ما الذى أحرقته إذن الحكومة فى ساحة وزارة الداخلية (!!) بينما وقف لواء شرطة يهلل لرئيس الجمهورية «سترت عرض الناس ربنا يستر عرضك».

يبدو أن الذى أحرقوه شرائط مسجلة للسيدة أم كلثوم.

لقد فكرت كثيرا والطائرة معلقة بين السماء والأرض فى طريقها من أبوظبى الى بيروت أن أعود الى مصر. ولكن كيف أعود ومثل هذه الحكومة ترى أن أى حركة جماهيرية مؤامرة، وكل تحرك شعبى انقلاب. وكل رأى معارض خائن.. وكل صوت حر عميل.. أين هم أبطال ١٥ مايو الذين سيذكرهم التاريخ كما قال الرئيس نفسه؟ الليثى ناصف لقى حتفه فى لندن فى ظروف غامضة! ومحمد صادق قائد الجيش أطيح به فى ظروف أكثر غموضا.. لم يبق من الأبطال غير ممدوح سالم وهو يبدو كجندى مخلص فى بلاط الملك.

وأين حافظ بدوى؟ لقد تدحرج من فوق، وبعد ان كان رئيسا لمحكمة الثورة ألزموه حجمه بعد أن أدى دوره. . وحتى الدكتور حاتم أبعدوه عن الطريق وألزموه المجالس القومية المتخصصة مع أنه لم يتخصص فى شىء طوال حياته. أين هم الكتاب الذين هللوا لثورة «١٥ مايو» وهى أغرب وأعجب ثورة فى التاريخ، وهى ثورة لأن رئيس الجمهورية قام بفصل عدد من الوزراء يعملون تحت رئاسته؟ أين هم ؟ لقد منع بعضهم من الكتابة بينما احتل الساحة الكاتب صلاح راتب شقيق الوزيرة عائشة راتب ولكنه اختفى باختفائها. . حكومة مثل هذه، البعد عنها غنيمة والعيش بعيدا عنها خير وأبقى. ومصر التى أعشقها ليست مدنا وشوارع ومقاهى وقعدات. ولكن مصر هى أولا روح وحياة ومكان تحت الشمس، لذلك قررت البقاء فى بيروت!

وفى بيروت بدأت البحث عن عمل. اتصلت فى البداية باستاذنا الطبيب سعيد فريحه يرحمه الله. رحب الرجل بى على الفور ودعانى لوليمة كبرى فى فندق فخيم. وحضر الحفل أمين الحافظ رئيس وزراء لبنان السابق وبعض الصحفيين. وقال لى الرجل الطيب سعيد فريحه ونحن على مائدة الغداء، سأكلم الرئيس السادات بشأنك وأرجو أن يوافق على أن تعمل معى فى الصياد. إن الصياد تحتاج الى حقنة من الدم الخفيف، واعتقد أنك قادر على ان تعيد النبض اليها!

وأضاف: سأسافر الى القاهرة وأعود بعد أسبوع، وأرجوك عاود الاتصال بى بعد العودة، واتعشم أن يكون خيرا بإذن الله.

ولقد كان حاضرا معنا هذا اللقاء، رجل فلاح من الجيزة. هو الحاج ابراهيم نافع. وكنت قد تعرفت به صدفة فى حوارى الجيزة. خلال معركة انتخابية

اشتركت فيها. وأصبح ابراهيم صديقى منذ تلك اللحظة. بل لا أغالى إذا قلت إننا لم نفترق لحظة منذ أن تعرفت به إلا فى السنوات التى افترقت فيها عن مصر.

وأبرز سمات الحاج ابراهيم أنه متفائل. فالسماء سوف تمطر بالرغم من عدم وجود سحاب فى الأفق، والأحوال سوف تنفرج مع عدم وجود دليل واحد على هذا الانفراج. والدنيا بخير، مع ان الأرض كلها شرور ومصائب وآثام. وقال الحاج ابراهيم معلقا على حديث فريحه معى: لقد انحلت المشكلة. اشتغل فى الصياد، واكتب بعيدا عن السياسة واسكن فى بيروت. وكن على صلة بمصر. وقلت لابراهيم نافع، أفلحوا إن صدقوا. ورد ابراهيم: الأكيد أن الاستاذ سعيد فريحه صادق. وهززت رأسى موافقا وقلت. هذا صحيح. وأنا لم أقصد الذين فى بيروت. ولكنى أقصد الذين فى القاهرة.

وكان تشاؤمى مبنيا على أسس كثيرة. فالسلطة كلها فى حالة جنون ضد ما يسمى بمراكز القوى. والأكثر جنونا أنهم اعتبرونى مركز قوة. وهو أمر غريب حقا. لأننى فى عهد عبدالناصر سجنت مرة وفصلت من عملى ثلاث مرات، ومنعت من دخول الاتحاد القومى مرة والاتحاد الاشتراكى مرة! فى الوقت الذى كان فيه الجميع يحتلون أرفع المناصب ويقبضون أعلى المرتبات!

ومن المضحك حقا ان السيد حافظ بدوى الذى تولى محاكمة مراكز القوى، ثم تولى رئاسة البرلمان بعد ذلك. تقاضى مبالغ من المصاريف السرية أيام عبدالناصر، بلغت مائة وعشرة آلاف جنيه. بواقع أحد عشر ألف جنيه للمساهمة فى مصاريف زواج احدى بناته. ولحسن الحظ. كان لدى حافظ بدوى عشر بنات تزوجن جميعا.

وكما شاء الرئيس !!

وبالرغم من ذلك كان الوضع في محكمة الثورة: حافظ بدوى على المنصة، ملاك برىء طاهر لم يرتكب إثما. والعبدلله في قفص الاتهام. بجرم أثيم مسئول عن الحراسات التي شملتني، وعن المعتقلات التي أقمت فيها! ولكن هذا هو منطق التصحيح وزمان الأعاجيب والألاعيب! الزمان الذي أصبح فيه توفيق عبدالحي مليونيرا، ورشاد عثمان سياسيا، وعصمت السادات مستثمرا، والحاج محمد لطفي من رجال الأعمال!

المهم، عاد سعيد فريحه من القاهرة، واتصلت بالعم سعيد ألف مرة بعد أن عاد الى بيروت، ولكنه في كل مرة كان غير موجود أو نائما أو تليفونه مشغولا، وتوقفت عن الاتصال، وفهمت أن الأمور لم تكن خيرا كما كان يرجو عمنا سعيد، واكتشفت السر فيما بعد، وكان الرجل مريضا يعاني بشدة، وخارجا لتوه من المستشفى ويقيم بفندق تشرشل بلندن. وذهبنا لزيارته. الأستاذ على بلوط رئيس تحرير الدستور وأنا، واستبقاني سعيد فريحه عنده، وكشف لي عن السر. لقد ذهب الرجل الى القاهرة. وعرض الأمر على الدكتور حاتم، وأمهله حاتم يوما، ثم سلمه ورقة مكتوبا عليها بخط حاتم (بالنسبة لمسألة السعدني. لا. لا. لا) لاءات ثلاثة كلاءات العرب في مؤتمر الخرطوم، مع فارق بسيط، هو أن لاءات العرب لا تطبق، ولاءات القاهرة ظلت تطاردني الى مابعد مصرع أنور السادات بعام كامل!

ولقد حاولت المحاولة نفسها مع المرحوم سليم اللوزى وفوجئت بوجود المرحوم على أمين في مكتبه. وتحدثت مع على أمين في البداية، ثم تحدثت مع سليم اللوزى، وكان مرحا كعادته وابن نكتة، قلت له: أريد أن أكتب في

الحوادث، قال: ولكنك متآمر فكيف تريدني أن استخدمك في الحوادث؟ قلت، وما المانع؟ إن لديك في الحوادث لصوصا وقتلة وفنانين وصعاليك ومحررين، فما المانع أن تستخدم متآمر معهم؟ ورد سليم اللوزى ضاحكا، عندك حق، أنا مسافر غدا مع على أمين الى مصر، وسأتكلم مع السادات بشأنك. اتصل بى بعد أن أعود . .

واتصلت ألف مرة ومرة بعد ذلك، ولم أوفق أبدا حتى مات يرحمه الله!!

وبالمناسبة، سليم اللوزى كان صديقا قديما للعبد لله، وسبق لى العمل معه فى مجلة روزاليوسف، وكان يعمل وقتها سكرتيرا للتحرير، وكنت أعمل بالقطعة، ثم كتبت له عدة مقالات فى الحوادث، نشرت فى أعوام ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ثم انقطعت عن الكتابة لانشغالى فى العمل السياسى فى القاهرة وانقطعت عنى موارد كنت فى أشد الحاجة اليها!

المهم، واصلت السعى فى بيروت، واتصلت بصحفى لبنانى كان يعمل فى جريدة النهار. وأبرز مميزات هذا الصحفى، أنه كان يحظى بمكانة عالية لدى الجميع. فهو صديق للثوار، وصديق للخونة. وهو صديق الحكومات وصديق المعارضة، وهو مع الخارجين على القانون، ومع أجهزة المباحث! وعرضت عليه العمل فى جريدة النهار محررا أو فى سكرتارية التحرير، وأمهلنى أياما، ثم أبلغنى بأن الموقف صعب، لأن رئيس تحرير النهار فى طريقه الى القاهرة لمقابلة السادات، وتعيينى فى النهار فى هذا الوقت بالذات، قد تفسره القاهرة تفسيرا خاطئا.

وفى هذه الظروف التى هى أسود من قرون الخروب، اتصل بى الأستاذ طلال سلمان رئيس تحرير السفير، وعرض على العمل عنده، فطلبت منه أن يمهلنى ثلاثة أيام لأفكر فى الأمر، ولكنه بادر فى اليوم التالى، ونشر خبرا فى الجريدة يعلن فيه انضمامى الى أسرة التحرير ككاتب، ولم يكن أمامى إلا أن أوافق فوافقت، وكتبت مقالا يوميا فى الصفحة الأخيرة، وكان أول مقال عن الكاتب الذى فقد الوعى . . توفيق الحكيم!

ليالى الرعب..!!

عشت
أيامى فى
بيروت فى رعب
قاتل، كان التليفون يدق
أحيانا، ثم لا أسمع شيئا،
وأحيانا كان ينبعث من التليفون
صوت أشبه بالفحيح، وفى ظلام الليل كان
باب الغرفة يدقه شخص ما دقات رتيبة منتظمة
وعندما أفتح الباب لا أجد أحدا هناك.

وأقنعت نفسى بأنها مجرد أوهام وخيالات وعشت الرعب وعايشته، ولم يكن هناك مفر من التعايش معه فى كل الأحوال، لقد كنت أسكن فى فندق ينزل فيه زعماء منظمة التحرير الفلسطينية، وكان الفندق محط أنظار رجال المخابرات من كل جنس ومن كل ملة، ومع ذلك مضت الحياة بنا فى بيروت هادئة وعادية، ولم يؤنس وحشتى إلا الصديق بكر الشرقاوى الذى لازمنى كظلى فى الفندق، وبنت بيروتية «جدعة» اسمها ثروت، ولا داعى لبقية الاسم.. ولقد أثبتت فى المحنة أن بعض النساء أكثر رجولة من بعض الرجال.

ومادام الشىء بالشىء يذكر. فلابد من ذكر الأيام التى قضيتها مع الملك

محمود نصير ، ومحمود نصير كان ملكا غير متوج على بيروت ولم ينازعه الملك إلا فريد شوقى ، وان بقى الصولجان دائما فى يد نصير ، ومأساة محمود نصير تحتاج الى «معددة» تلطم على وجهها «ببرطوشة» . وفنان صايع مثل زكريا الحجاوى ليؤلف ملحمة عن يتيم الدهر الذى عاش غريبا فى المنفى ، ومات غريبا فى بلاده ، ولم يتعرف أحد عليه وهو حبيس ثلاجة مستشفى أم المصريين فى الجيزة .

وأصل الحكاية ان محمود نصير كان يعمل ممثلا فى فرقة فاطمة رشدى ، وسافرت الفرقة فى رحلة عربية ذات يوم من أيام عام ١٩٤٧ . وركب الجميع القطار من محطة القاهرة الى محطة القدس توجهوا الى يافا والى حيفا ، ومن هناك الى بيروت ، ومن بيروت الى طرابلس وحلب ، ومن حلب الى اللاذقية فدمشق ، ومن دمشق عادوا من جديد الى بيروت ، وعندما حان وقت الرحيل والعودة الى القاهرة ، كان طريق القطار قد أغلق فى وجوه المسافرين وكانت حرب فلسطين قد نشبت وبعدها قامت دولة اسرائيل . وعادت الفرقة الى القاهرة بطريق البحر .

ولكن محمود نصير لم يعد . بقى فى بيروت . فقد أحب المدينة وأحب الناس وأحب نمط الحياة هناك .

وتزوج محمود نصير من نرجس شوقى وهى مطربة عراقية قديمة لها أصول مصرية . وعاش معها آخر حلاوة وآخر انسجام . وعوضنى الفنان محمود نصير عن أصدقائى الذين افتقدتهم فى القاهرة ، رأيت فيه خليطا من ملامح زكريا الحجاوى ، وحنان حسن فؤاد ، وطيبة الصديق الفلاح ابراهيم نافع ، وبين هذا الثالوث ثروت وبكر ومحمود نصير عشت حياتى فى بيروت .

وفجأة وصلت زوجتي الى بيروت تحمل خطابا من عثمان أحمد عثمان مازلت أحتفظ به ضمن أوراقى، كان فى الخطاب عرض بالعودة سريعا الى القاهرة قبل أن تتطور الأمور الى الأسوأ، ولم أفهم ما هو الأسوأ الذى كان يقصده عثمان! وشرحت الأمر لزوجتى . . فالعودة الى القاهرة ستكون خسارة بالنسبة لى، مادام هناك إصرار على أن أبتعد نهائيا عن الكتابة وسينتهى الأمر بى الى حبسى على مقهى حسن عوف بالجيزة. ألعب الطاولة طول النهار واتقاضى مرتبا آخر الشهر من «المقاولون العرب» وهو وضع لا استطيع أن أعيشه ولا أتصور أن أجد نفسى فيه، أنا رجل عشت حياتى مع المطابع وقضيت حياتى صحفيا، وسأموت صحفيا، وسأبعث يوم القيامة على لائحة الصحفيين.

وبعد محاولات ومحادثات طويلة وافقت الزوجة الأصيلة على رأى العبد لله، وركبت ذات صباح ورجعت الى الأولاد الخمسة فى القاهرة على أمل أن تلحق بى اذا استقرت الأمور خارج الديار، ولكن الأمور لسوء الحظ لم تستقر بالعبدلله إلا بعد ذلك بعام كامل. وشاءت الأقدار أن تستقر بى الأمور بعيدا عن بيروت.

وكانت آخر ليلة للعبد لله مشحونة بالرعب والخوف فقد عدت آخر الليل مع الصديق سيد الغضبان، وسيد الغضبان للعلم كان مذيعا فى اذاعة صوت العرب. ولكن التغيير الذى حدث فى مصر بعد (ثورة) التصحيح، أطاح به بعيدا عن الاذاعة، فاضطر الى الاشتغال كسائق تاكسى بعض الوقت فى القاهرة، ثم غادرها الى بيروت، وأثبت سيد الغضبان هناك ان الكفاءات

لا يمكن حصارها ولا يمكن وقف نموها، فسرعان ما ازدهرت أعماله وسار واحدا من رجال الأعمال في بيروت.

المهم أننا عدنا الى الفندق بعد سهرة طيبة فإذا الفندق والمنطقة كلها تسبح فى الظلام وحول الفندق عشرات من حرس الثورة الفلسطينية يطوقون المكان كله بالسلاح. واضطررت الى الهرب من الفندق وبت ليلتى فى بيت سيد الغضبان، وعدت الى الفندق فى الصباح وحملت حقائبى الى المطار، لأبدأ خطوة جديدة فى رحلة الضنى والشقاء والعذاب، ولم أحزن على شىء وأنا أغادر بيروت إلا حزنى على فراق العم العجوز محمود نصير الذى سألته وهو مصر على ملازمتى حتى باب الطائرة (مارحتش مصر فى السنين دى كلها ليه يا عم محمود؟) ورد فى هدوء شديد ولا حاجة، كسل وحياتك.

ولكن الكسلان أتيح له أن يذهب الى القاهرة بعد ان اشتعلت بيروت بالنيران وعاد يعمل ممثلا كما كان فى الأيام الخوالى. ورأيته بعد ذلك فى لندن. وكان سعيدا لأنه عاد الى موطن الرأس بعد غيبة طويلة. وراح يحكى لى عن أعماله فى مصر وسهراته وقعداته.. وتركنى فى لندن وعاد الى مصر على وعد منه لأن يعود. ولكن عم محمود الطيب لم يهنأ بالعودة الى القاهرة. فقد صرعته سيارة مسرعة فى طريق الهرم بالجيزة، ورحل عن دنيانا العم محمود نصير ملك ببروت غير المتوج وأعظم من قام بدور ابن البلد قبل عبدالفتاح القصرى، وبكيت محمود نصير كما بكيت زكريا الحجاوى.

وكأن الحياة قد تحالفت ضدى بخطف الأصدقاء، مات عبدالحليم حافظ وأنا فى المنفى، ومات محمد علوان، ومات صلاح منصور، ومات الشيخ

عبدالحميد قطامش، ومات غير هؤلاء كثيرون لحكمة لا يعلمها إلا الله، لكى أبقى غريبا بين غرباء فى بلد غريب.

وتذكرت صرخة العم زكريا الحجاوى فى كتابه الأول (اقدارنا بيد السماء القاسية يا نهر البنفسج) لقد جف النهر من البنفسج لم يعد فى المجرى إلا أوشاب وأعشاب وطين وبقايا جثث وجيف تدور على وجه الماء، ورحلتى القادمة الى طرابلس الغرب . . و . .

«ومايجيش من الغرب شيء يسر القلب» على رأى ستى يرحمها الله، وفى الطائرة المتجهة بنا الى طرابلس، اكتشفت ان جارى فى الطائرة هو الأستاذ طلال سلمان صاحب ورئيس تحرير (السفير) مع أنه كان معى قبل السفر بساعات ولم يخبرنى بهذا الأمر قط!

وأثناء تحليق الطائرة على البحر، مال طلال سلمان على أذنى وهمس لى أنه قرر رفع مرتبى الى الضعف. وقلت يا سبحان الله. وسرحت فى ملكوت الله وتعجبت من تصاريف القدر، فالعبدلله حتى ساعة ركوب الطائرة كان يتقاضى راتبا شهريا قدره ألف وخمسمائة ليرة لاتزيد. وهو مبلغ متواضع للغاية بالنسبة لكاتب عجوز كالعبدلله كان الى عهد قريب رئيسا لتحرير أنجح مجلة أسبوعية على مستوى الوطن العربى هى مجلة صباح الخير، ولكن هكذا المثل المصرى الشعبى من خرج من داره! قل مقداره! وأضيف الى المثل المصرى (خصوصا من خرج من داره قسرا ولا يستطيع العودة اليها).

ورثيت لحال الفلسطينيين فهم فى مثل محنتى وإن كانت محنتهم أشد، وقررت فى تلك اللحظة وبالتحديد فى تلك اللحظة أن أكف عن الكتابة

فى جريدة (السفير) . . وسرحت بأفكارى وعدت القهقرى الى بيروت .
وعندما أتذكر بيروت فلابد أن أتذكر أمين الأعور، وأمين الأعور مناضل عربى قديم جرى عليه ما جرى لكل صاحب رأى فى بلادنا، ولكن ظروف أمين الأعور كانت تختلف كثيرا عن ظروف الآخرين، هو فى الأصل من عائلة درزية كبيرة ولها نفوذ. وقد بدأ حياته كرئيس لبلدية قرنايل، وهى قرية على أعلى قمة فى لبنان. ولقد سرت على أرضها يوما ما. ولم أستطع أن أتبين موضع خطواتى لأن السحاب كان يلفنا تماما ويحجبنا عن الأنظار. ولكن أمين لم يستمر طويلا فى منصبه بالبلدية ولم يلبث أن هجرها وجاء الى بيروت .

واشتغل بالصحافة والسياسة وصار عضوا فى الحزب الشيوعى اللبنانى ثم عضوا فى اللجنة المركزية ، ثم انقلب على الحزب الشيوعى وتحول الى ناصرى شديد الناصرية، وكان صوته أعلى الأصوات التى وقفت الى جوار عبدالناصر بعد الهزيمة، وبعد رحيل عبدالناصر آمن بثورة الفاتح وتوقع الخير على يد العقيد القذافى، وأصدر مجلة «بيروت المساء» وصار رئيسا لتحريرها، وكان هدفه أن تصبح المجلة تعبيرا حيا عن النظرية الثالثة فى الفكر والثقافة، ولكن جاذبية أمين الأعور وسحره أنه ظل رئيسا للبلدية فى كل الأعمال التى تولاها فى حياته. . ولذلك أيضا كانت مجلة «بيروت المساء» أقرب من المنشور الثورى الى المجلة، وكان بينها وبين الصحافة جسور مقطوعة وخلافات مزمنة .

وعندما أبديت له رأيى فى الجريدة أفهمنى ببساطة أن مجلة بيروت المساء تختلف بالفعل عن كل المجلات التى على وجه البسيطة لأنها التعبير الحى

المجسم للنظرية الثالثة . وعرض على أن أهتم بكتابة عمل أدبى وأن يتكفل بكل نفقاتى فى بيروت ، والحق أقول أنى مدين لأمين الأعور بأشياء كثيرة ، وخلال رحلة صياعتى فى الوطن العربى سيكون أمين الأعور هو صاحب الفضل الأول ، وسيكون أحمد الجارالله صاحب الفضل الثانى ، وسيكون لشعب العراق الطيب صاحب التاريخ الباهر والأمجاد العظيمة الفضل الأخير ، ولكن هذا سابق لأوانه ، ولنتمهل حتى تكون الأحداث حسب تسلسلها الطبيعى وتواريخها المضبوطة .

تذكرت الأيام الأخيرة فى بيروت- الرصاص الطائش الذى اخترق سماءها شرقا وغربا ، ولكن رصاصة واحدة من تلك الرصاصات هزتنى بعنف وجذبتنى الى الهم والتفكير ، رصاصة طائشة انطلقت فى الجنوب اللبنانى واستقرت فى قلب الزعيم معروف سعد . وصرخ الرجل وهو يلفظ أنفاسه (يخرب بيتكو . بدنا نهدى الأحوال عما تقوصونا) وكان موته سابقة خطيرة فى جنوب لبنان ، فالرصاص يتطاير كل يوم فى سمائها ، ولكن يصيب الزلمات دائما ولا يصيب الزعماء ، وكان مقتل معروف سعد هو أول خروج على قواعد اللعبة ، وكان ذلك إيذانا بأن اللعبة فى بيروت قد اختلفت ، وان عصرا جديدا سيشهده البلد الذى عاش حياته على لعبة التوازنات .

وقررت مغادرة بيروت ولكن الى أين؟ ليس هناك مكان على وجه التحديد ، أصبحت مثل التائه ، على أن أضرب فى شعاب الأرض ، ولكن بلا وجهة وبلا هدف . وأيضا بلا متاع ، وتذكرت موقفا غريبا حدث لى فى الأيام الأخيرة فى بيروت ، فبعد أن بدأت أنشر مقالاتى فى جريدة (السفير) ، بدأت

محاولات السفارة المصرية باقناعى بالكف عن الكتابة والعودة الى القاهرة، وفجأة ووسط هذه المحاولات اتصل بى زميل صحفى قديم من القاهرة وقال لى انه يريدنى لأمر هام. وتوقعت الأمر الهام الذى كان يريدنى من أجله، كذلك توقعه الذين كانوا معى لحظة اتصاله بى تليفونيا.

وكان معى وقتئذ، الاستاذ بهجت عثمان رسام الكاريكاتير الشهير والأستاذ حسين عبدالرازق رئيس تحرير جريدة الأهالى، وكانت توقعاتنا على أساس أن الصحفى إياه كان يعتبر نفسه من أبطال ثورة ١٥ مايو، وهو نفسه كتب فى احدى المناسبات انه اشترك فى ثورة ١٥ مايو بالسهر حتى الصباح فى قهوة الحميدية مع مجموعة كبيرة من الأبطال.

المهم جاء زميلنا إياه وعرض على أن التقى بالمستشار الصحفى بالسفارة المصرى ويدعى الجمل، وقبلت اللقاء ورفضت المكان، وقلت إذا كان لابد من الاجتماع ليكن فى مكان عام. وحددت مطعم البلدزدار على شاطىء الروشة. وبعد مشاورات ومناكفات اجتمعنا فى النهاية، الجمل والزميل إياه وأنا. وقال المستشار الجمل وهو يؤكد على صداقته لى وإعجابه الشديد بالعبدلله وحرصه على مصلحته: (إذا كنت تريد البقاء فى لبنان. فلا مانع، ولكن لماذا تكتب فى السفير؟) وحكيت للمستشار الجمل قصتى مع الصحافة اللبنانية كيف حاولت وكيف رفضت ولم يرحب أحد بالعمل معى إلا الأستاذ طلال سلمان، فقال الجمل وهو يبدى دهشة مصطنعة: إذن أنت لا تعارض فى الكتابة فى صحف نعتبرها صديقة لنا؟ قلت: بالطبع لا اعتراض لى على شىء من هذا النوع. فقال اذن ما رأيك فى الصياد؟ قلت: تانى. قال بحزم نابليون

بونابرت وافق وسننشر مقالاتك فى الصياد، فقط أعطنى مهلة أسبوع، وستحل جميع المشكلات، وانتظرت أسبوعين ثم اتصل بى المستشار الجمل من جديد، وقال تستطيع ان تذهب وتعمل من الغد فى جريدة (اليوم) وسيكون مرتبك هناك خمسة آلاف ليرة فى الشهر.

ولولا العيب وتمسكى بأخلاقى لقمت بحركة اسكندرانى للأخ المستشار! ولذلك اكتفيت بالصراخ فى سماعة التليفون وقلت له وأنا أكتم ثورة فى أعماقى أنا لست طالب عيش ولا طالب وظيفة، وأنا لن أكتب فى جريدة اليوم حتى ولو كان المرتب المعروض مائة ألف ليرة، وسأكتب فى السفير مادمت فى بيروت، ورجائى الوحيد أن تقطع هذا الحوار الآن. وسكت فترة قبل أن يقول: لقد سمعت أنك تلقيت دعوة لزيارة ليبيا.. وقلت له نعم هذا صحيح، سألنى وهل ستذهب اليها، قلت أعتقد أننى سأذهب عندما أشاء، قال أنصحك بعدم الذهاب الى ليبيا لأنك إذا ذهبت تقطع الحبل، فقلت: لكن الحبل مقطوع من زمان، ولذلك لن أسمح لأحد مهما كان أن يحدد خطواتى القادمة.. وانقطعت المكالمة بينى وبين المستشار بعد أن ظل صوته يلعلع على الناحية الأخرى من الخط بكلمات التحذيربعواقب الذهاب الى ليبيا. لدرجة أننى فى الصباح فتحت الخريطة لأتأكد أن ليبيا ليست مكان اسرائيل..!!

وعندما حلقت الطائرة بمحاذاة شاطىء الاسكندرية، ألقيت نظرة على البحر في محاولة من العبد لله لرؤية الأرض التي وراء البحر والتى حرمونى من رؤيتها بفرمان همايونى من حاكم عانى الويلات مثلنا فى حياته ولكنه تصور بعد أن وصل الى السلطة أنه ظل الله فى الأرض!

وخطر لى خاطر أفزعنى، ماذا لوهبطت الطائرة الآن فى الاسكندرية وألقت السلطات القبض على العبد لله؟ ان الأحداث التى تلى ذلك مباشرة احداث تعسة وغاية فى البشاعة، فياويل من يناهض السلطان فى بلادنا، انك ستقرأ اتهامه ولكنك لن تسمع دفاعه، وعندما يكون السلطان هو الخصم والحكم، فويل عندئذ للمهزوم فى صراع السلطة، وزمان كان يدفع المهزوم حياته ثمنا للهزيمة، واليوم يدفع حريته وسمعته أيضا! فهو غالبا لص ومختلس وتاجر فى السوق السوداء، وهو دائما عديم الذمة والشرف وليس لديه ذرة واحدة من أخلاق القرية!

فى آخر مرة دخلت فيها السجن، أذاع المسئولون عن الأجهزة أنهم عثروا عندى فى منزلى على أربعة ملايين جنيه، وأننى أمتلك أربع عمارات فى المعادى وسبعة عشر فدانا فى الشرقية! صحيح أننى فى الأصل من الشرقية، وهرب أجدادى من المملوك الملتزم الذى كان يضرب الفلاحين على أقدامهم بالعصا الطويلة، ويحرق جلودهم بالمسامير المحمية، واستوطنوا بلادا بعيدة، وانقطعت الصلة بين الفرع والأصل، ولكنى لا أعتقد أن أحدا من عائلتى فى الشرقية أو المنوفية أو الجيزة يملك سبعة عشر فدانا، كما أننى لا أملك من أرض مصر إلا تسعة قراريط وبضعة أسهم، اشتريتها فى عام ١٩٦٤، بخمسمائة جنيه مصرى، وبالرغم من ذلك وجدت الأجهزة من بين السذج من صدق روايتها وراح يضيف إليها من خياله الشيء الكثير!

عدت من جديد بخيالى الى بيروت، وتذكرت نماذج أخرى من الأصدقاء، جمعتنا المهنة فى البداية، ثم فرقت بيننا السبل، كل فى اتجاه، أحد هؤلاء

الأصدقاء اشتغل فى الصحافة عشرة أعوام، كتب خلالها خمس مقالات لاغير، ولكنه تقاضى أجرا عليها، مرتبات ومكافآت وبدل سفر وانتقالات، ربما عشرة أضعاف ما تقاضاه طه حسين فى حياته! وهو شكلا ورسما يقطع بأنه من سلالة مماليك عظام أتوا من الأناضول أو القوقاز وحكموا مصر يوما ما، وهو يعشق الكلام ويجيده فى سهرات الأنس وحفلات العشاء.

ولقد شاءت الأقدار لهذا المملوك القديم أن يقيم فى بيروت، وأن تصبح له مكانة خاصة هناك، وكان يقضى سهراته والمسدس على المائدة التى بجواره، عندما كان يتجول ليلا فى شوارع بيروت كانت يده لا تفارق جيبه، وأصابعه على الزناد، ولكنه بالرغم من ذلك لم يطلق رصاصة واحدة فى حياته، ولم يرهق نفسه فى اكتشاف طريقة استعمال المسدس! ولكن الجلالة كانت تأخذه أحيانا فيتحدث عن قتلاه الذين صرعهم برصاصه، وأحيانا كان يشطح بعيدا، فيردد بأسف حقيقى (أنا بقالى كتير مقتلتش!).

وذات مساء وكنا قد انتهينا من سهرة طويلة، خرجت معه وانتظرنا فى الشارع طويلا، حتى توقفت لنا سيارة أجرة وافق سائقها ان ينقلنا الى الجهة التى نقصدها، وعندما فتحنا الباب الخلفى للسيارة اكتشفنا وجود راكب فيها، فقد كانت السيارة تعمل بنظام السرفيس الذى يسمح للسيارة أن تنقل عدة أفراد الى عدة جهات فى وقت واحد.

كان الرجل الجالس فى المقعد الخلفى عجوزا جاوز الستين بزمن طويل، كان يبدو عليه الارهاق والتعب! بالاضافة الى أنه كان مريضا بأمراض الشيخوخة، لقد كانت يده ترتعش ويبدو من حركة شدقيه أن فمه بلا أسنان،

وفجأة صرخ صديقى الأناضولى وكأنه واقف على خط النار فى الجليل الأعلى، وشهر مسدسه فى يد الرجل الغلبان وأمر بالتسليم فورا!

ولم يدرك الرجل ماهو المقصود بالتسليم؟ اذا كان الخضوع والاستسلام، فهو على هذه الحالة منذ ولدته أمه، وإذا كان التسليم هو السلام، فيده مرتعشة ولا تقوى على المصافحة خصوصا فى هذا الزمهرير!

وابتسم الرجل فى سذاجة، وربما ظن أننا بعض الشبان العابثين، وأننا نمارس لعبة جديدة، ولكن امام صرخات زميلى المتلاحقة بمغادرة السيارة، ألقى الرجل بنفسه في الشارع دون مناقشة وكأنه حمد الله أنه نجا من هذا الشر المستطير.

ونحن فى السيارة الى الفندق الذى نزل فيه. سألت صديقى عن سر هذا التصرف الذى لم نكن فى حاجة إليه قط، فاتهمنى على الفور بأننى أهبل وأننى لا أعرف بيروت، وأن هذا الرجل ربما كان جاسوسا أو فدائيا يعمل لحساب الصهيونية والاستعمار، وأدركت السر فى وكستنا فى ساحات القتال وانتصاراتنا فى استديوهات الاذاعة! لو كان هذا الرجل جاسوسا حقيقيا أو ارهابيا حقيقيا، لما جرؤ صديقى على رفع المسدس فى وجهه، ولكن منظر الرجل المطحون هو الذى شجع صديقى على سحب المسدس والصراخ ولا عنترة العبسى فى معارك اليمن!

وشدتنى من أفكارى حركة الطائرة وهى تستعد للهبوط فى مطار طرابلس. وبنظرة سطحية عابرة على المطار اكتشفت انه هو نفس المطار القديم لم يتغير،

فقد سبق لى الذهاب الى ليبيا مرتين، مرة فى عام ١٩٥٦ وقبل العدوان على مصر. وكنت في طريقى الى تونس للقاء الرئيس بورقيبة بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية في بلاده، وفكرت في الذهاب الى طرابلس فى طريقى الى تونس، وتقدمت بطلب الى سفارة ليبيا بالقاهرة أطلب السماح لى بالتوقف فى طرابلس لمدة ٢٤ ساعة، ولكن السفارة رفضت طلبى بحزم ودون ابداء للأسباب.

وبالرغم من ذلك، عندما هبطت بى الطائرة المصرية فى مطار طرابلس، طلبت من جندى الجوازات السماح لى برؤية طرابلس ولو ليوم واحد، وكان الجندى الليبى عربيا أصيلا وكريما، فمنحنى تأشيرة لمدة أسبوع ونزلت فى فندق المهارى أعظم فنادق طرابلس فى ذلك الوقت، هو فى الشكل والحجم والمستوى ليس أفضل من أى فندق من فنادق العتبة الخضراء، عشت فى طرابلس أسبوعا تمكنت خلاله من دخول قاعدة هويلس الأمريكية ونشرت عنها تحقيقا صحفيا بالصور فى جريدة الجمهورية.

وفى عام ١٩٧٠ سافرت الى ليبيا للمرة الثانية فى صحبة الرئيس عبدالناصر، ونزلت فى فندق واحد مع الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين. وذهبنا معا لزيارة العقيد القذافى فى المستشفى لنجد فى انتظارنا مفاجأة كبيرة..!

والمفكرة لا تزال في جيبي

عندما ذهبنا- الأستاذ بهاء وأنا- لزيارة العقيد القذافي، في المستشفى العام بطرابلس. اكتفينا بتسجيل أسمائنا في سجل التشريفات مع كلمة رقيقة تمنينا فيها الشفاء العاجل للعقيد معمر القدافى، نزلنا الدرج الكبير متجهين الى باب المستشفى الخارجي.

ولكننا فوجئنا باثنين من أعضاء مجلس قيادة الثورة: بشير هوادى ومحمد المقريف بدعواننا الى لقاء العقيد على الفور، وترددت قليلا فى قبول الدعوة، والسبب أننى كنت وعدت السفير المصرى فتحى الديب بعدم زيارة العقيد القذافى فى المستشفى!

وأصل الحكاية أننا كنا على مائدة عشاء بدعوة من السفير المصرى فتحى الديب فى الليلة السابقة. . وعندما أبلغناه بنيتنا فى زيارة العقيد فى المستشفى، قال فتحى الديب على الفور: أرجوك- لا تذهب إلى العقيد القذافى فى المستشفى، وصمت قليلا قبل أن يضيف، وهذا رجاء من العقيد القذافى نفسه. وربما خاف السفير المصرى أن أسيء تفسير الأمر أو أسيء فهمه. فقال

ضاحكا: لقد طلب منى أن أرجوك ألا تذهب إليه فى المستشفى، ولكنه حريص على أن يراك فى بيته بعد أن يترك المستشفى ويعود إليه. ولقد طلب منى أن أرجوك فى عدم مغادرة ليبيا حتى يتم شفاؤه ويعود الى المنزل.

واستغرق فتحى الديب فى ضحكة عميقة ثم قال: إنه يخشى لو رآك أن تسوء حالته فالجرح لم يلتئم بعد. وعندما استفسرت من السفير فتحى الديب عن العلاقة بين زيارتى والجرح الذى لم يلتئم فى بطن العقيد، قال: أنه لم ينس سطور كتابك الذى نشرته على حلقات فى مجلة صباح الخير (الشيخ لعبوط يتلعبط)وقال العقيد انه كلما تذكر محمود السعدنى ضحك بشدة. وهو يخشى أن يستغرق فى الضحك إذا رآنى فينفتح الجرح الذى لم يلتئم بعد.

ووعدت السفير فتحى الديب ونحن نغادر بيته بعد العشاء بعدم زيارة العقيد فى المستشفى. وبدا من الارتياح الذى ظهر على ملامح وجه الديب أنه كان جادا فى مطلبه. ولذلك حاولنا الاعتذار عن رؤية العقيد دون جدوى. وصحبنا محمد المقريف وشريف هوادى وفتح المقريف الباب ودخل دون استئذان. ودعانا الى الدخول.

كانت حجرة العقيد القذافى فى المستشفى عادية للغاية، أرضية الغرفة عارية تماما والجدران أيضا. وسرير العقيد يتوسط الحجرة، سرير صغير وعادى أشبه بسرير طالب فى مدرسة داخلية. وبجانب السرير مائدة صغيرة وضعت عليها بعض الأدوية وعلبة مناديل ورق وزجاجة مياه غازية. وكان العقيد يرتدى بيجامة مقلمة وقدماه عاريتان ورأسه أيضا وفى يده جهاز راديو ترانزستور صغير. ولم يكن بالحجرة أحد سواه.

وعندما رآنا أمسك ببطنه وراح يضحك بلا سبب . . أو لعله ضحك للسبب الذى ذكره السفير فتحى الديب . وجلسنا مع العقيد لمدة ساعة ونصف الساعة . . وكنا بين الفترة والأخرى نحاول الاستئذان والانصراف ولكنه كان فى كل مرة يصر على أن نبقى معه . . وبعد أن تحدث معى فترة عن الشيخ لعبوط وعن مذكرات الولد الشقى وعن السعلوكى فى بلاد الأفريكى . استدار نحو الأستاذ بهاء وقال لقد سببت لنا مقالتك فى «المصور» مشاكل كثيرة . وأبدى بهاء دهشته لأن مقاله لا يحتمل هذا التفسير الذى ذهب إليه بعض الصحفيين الليبيين وحملوا حملة شعواء على بهاء بسببه . وقال العقيد لكن أعداء الثورة يصطادون فى الماء العكر . وهم سيفسرون الكلمات حسب أهوائهم ووفق مصالحهم ، وقال بهاء للعقيد ، ولكن ألا ترى سيادتك أن الاجراء الذى اتخذته مع هؤلاء الصحفيين كان عنيفا؟ مع أن الموضوع كله كان يمكن اعتباره زوبعة فى فنجان .

وبعد أن شرح العقيد وجهة نظره فى الموضوع نظر نحوى وقال : سأطلب منك طلبا بسيطا وأرجو أن تستجيب . قلت : الأمر يتوقف على الطلب نفسه يا سيادة العقيد . وقال العقيد : إنه طلب بسيط واعتبرنى من قرائك . فأنا أريد أن تكتب لنا رواية فى حلقات على طريقة الشيخ لعبوط !

صمت العقيد القذافى فترة نظر خلالها عدة مرت الى بشير هوادى . وقال سأعطيك المادة التى تصلح لهذه الحلقات . وأضاف : لقد عثرت لجان الجرد فى مكتبة الملك السنوسى على مفكرته الشخصية التى كان يدون بها مذكراته يوما بيوم . وعندما تقرأ هذه المذكرات ستكتشف أن الشيخ لعبوط هو أرسطو بالنسبة

للملك السنوسي. وستجد في هذه المذكرات مجال إضحاك أكثر مما وجدت في حياة الشيخ لعبوط وحياة غيره من لعابيط هذا الزمان. وقال لبشير هوادي أذهب مع السعدني وافتح الخزانة وأعطه المفكرة. ونظر إليّ وقال: لا تترك بشير حتى تصبح المفكرة في حوزتك.

وكان هذا إيذانا بانتهاء المقابلة التي استمرت أكثر من تسعين دقيقة قطعها الحرس ثلاث مرات ليستأذنوا العقيد في استقبال سفير احدى الدول العربية وفي كل مرة كان العقيد يرسم على وجهه تعبيرا يجبر الحارس على التراجع واغلاق الباب. وعندما خرجنا من غرفة العقيد كان السفير لايزال يجلس في غرفة الحرس ينتظر الاذن له بالدخول.

وعندما تصفحت مفكرة الملك السنوسي، ضحكت بالفعل، ولكنه كان على رأي المتنبي ضحكا كالبكاء. أي عيشة غلب كان يعيشها الملك السنوسي في ليبيا ؟ وعندما تسمع كلمة ملك قد يشرد ذهنك الى حياة الملوك المترفة التي كان يعيشها ملوك أسرة محمد علي في مصر، وقد يذهب خيالك بعيدا بذاكرتك الى ليالي بغداد أيام خلفاء بني العباس.

ولكن الحقيقة، من خلال هذه المذكرات: كان السنوسي يعيش عيشة موظف حكومي درجة ثالثة في القاهرة. ولم يكن عيبه هو الاسراف أو الترف ولكن عيبه هو ضعفه الشديد كحاكم. فلم يكن يحكم أبعد من حجرته في القصر. كانت بني غازي في يد الانجليز وكانت طرابلس في قبضة الأمريكان. وكانت فزان في براثن الفرنسيين. . وكان القصر الملكي في قبضة زوجته، وكانت حجرته هي المكان الوحيد الذي يستطيع أن يأمر فيه وأن يحكم في مساحتها على هواه.

كان حرصه الشديد فى مذكراته على العلف الذى يقدم للخيول. . وأحيانا كان يأمر بصرف عشرة دنانير لبعض الأصدقاء وبعض خاصته المقربين. وفى إحدى الصفحات طلب الى ناظر الخاصة إحضار ثلاثة رؤوس ضأن من مزارعه لإحياء ليالى العيد! ثلاثة رؤوس ضأن ثمنها فى تلك الأيام عشرون جنيها لا تزيد!

الأغرب من هذا أن المفكرة هدية للملك من الشمولى وهو صاحب مكتبة فى شارع محمد على بالقاهرة ويطبع كل عام مفكرات رخيصة يطرحها فى الأسواق لعامة الناس. ولم تكن مفكرة السنوسى إلا واحدة من هذه المفكرات وكانت تحمل فى صفحتها الأولى المطبوعة عناوين المحطات الرئيسية لترام الجيزة والمدبح والسكاكينى. والعباسية وأرقام تليفونات. . إسعاف ومطافىء ونجدة القاهرة. . والأغرب من ذلك، أنه كتب فى أولى صفحاتها وتحمل تاريخ أول يناير ١٩٦٩ «اللهم نجنا من كل شر وجنبنا غدر الزمان. آمين» وبعد ثمانية أشهر من هذا التاريخ وفى يوم الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ لم تشفع له دعواته وقضى الزمان على الملك السنوسى أن يبقى خارج أرضه غريبا حيا وميتا وقد دفن السنوسى فى القاهرة. . و. . المفكرة لاتزال فى جيبى.

*****

آه من الولد الشقى يموت ولا يتعلم. ويخرج من نقرة ليقع فى دحديرة ولا يستفيد كأننى المثل الحى الذى يثبت أن الانسان أصله حمار، وأحيانا كثيرة يخيل إلىّ أننى مثل بغل استرالى عنيد كلما جذبوه الى الخلف بعيدا عن المهالك اندفع من جديد إلى خط النار ليغرق فى الهموم والمشاكل.

ومازلت أتذكر تلك اللحظة التى هبطت فيها الطائرة أرض مطار طرابلس. كانت تلك اللحظة هى أول خطوة في رحلة الأسى والضياع، كان الوقت مساء والشمس غطست كلها في مياه البحر تاركة ذيولها فى الأفق تعكس نوراً أشبه بحريق يشتعل فى مكان بعيد. وكانت الدنيا بين الشتاء والربيع، ويبدو أن الشتاء عز عليه أن ينسحب قبل أن يبدد آخر خيط من جهده الذى استمده من صحوة الموت، فالريح كانت تعصف. والأمطار كانت تهطل بغزارة. والبرق يأتي من ناحية الصحراء. يضيف الى الجو الكئيب لونا من ألوان الرهبة والفزع. وكأن الطيار أراد أن يشارك الطبيعة جنونها فألقى بالطائرة على أرض المطار كأنها حجر ألقاه السيل من عل، على رأى عمنا امرىء القيس.

فى هذا الجو العاصف غادرت الطائرة مع الأستاذ طلال سلمان لأجد فى انتظارى- ولا أقول فى انتظارنا- شابا ليبيا من المقربين للعقيد هو الأستاذ ابراهيم البشارى وكان يشغل وقتها منصب مدير اذاعة ليبيا قبل ان تتحول الى جماهيرية بعد ذلك بأعوام.

والحق أقول أن ابراهيم البشارى شاب يمتلىء حماسة وإيمانا بالعروبة، وبدا من نظراته لرفيقى فى السفر أنه ليس مرتاحا لوجوده. وبعد أن رحب بى اصطحبنى معه الى فندق الشاطىء. وهو فندق أشبه بمطارات الدول النفطية. فيه أبهة فخمة وخدمة رديئة، وفيه زحام ولكن نادرا ما تدخل الخزينة نقود. فهو فندق الدولة وغرفه معدة لاستقبال المكافحين والمناضلين العرب الذين كثر عددهم فى السبعينات فأصبحوا أكثر من الهم على القلب. ولا تخطئهم العين فى ردهات الفنادق الكبرى من طنجة إلى صنعاء.

وودعت ابراهيم البشارى عند باب الحجرة وقال سنلتقى فيما بعد . أعدت ترتيب مافى حقيبتى من ملابس وتهيأت لفترة راحة بعد العذاب الذى لقيته فى الطائرة ولكن لم أهنأ طويلا فقد سمعت طرقاً على الباب وكان الطارق هو طلال سمان ومعه حقائبه . وقال طلال وهو يعتذر : لم أجد حجزا لى فى الفندق فهل أستطيع أن أقضى الليلة هنا؟ وأجبته مرحباً تستطيع أن تقضى الليلة هنا وكل ليلة . ولم تلبث الحجرة التى أقيم فيها أنا وطلال إلا وقتاً قليلاً حتى ضاقت بالزائرين بعضهم من أهل طرابلس جاء يرحب بنا ، وبعضهم من قدامى المكافحين بالفندق جاءوا يتفرجون على المكافح الجديد . ويلتمسون عنده أخباراً جديدة . .

من بين هؤلاء المكافحين واحد هزنى بعنف . وهو تونسى كان عضواً فى الحزب الحر الدستورى وكان أحد الكوادر الحزبية التى وضعها بورقيبة على عينه وشمله باهتمامه على نحو خاص ، كان اسمه عبدالله وكان سميناً بعض الشىء ، ومتكلما يجيد صنعة الكلام ويهواها على نحو ما . وكان يمكن لعبد لله أن يصبح وزيراً كغيره من الذين استوزروا بعد الاستقلال . وكان يمكن أن يصبح ثرياً يشار إليه بالشيكات كالغالبية العظمى من المكافحين الذين زاملوه فى فترة الكفاح قبل الاستقلال . ولكنه لحظه العاثر انضم لصالح بن يوسف وجماعته لحظة الخلاف الذى نشب على الساحة التونسية بعد أن أستولى الثوار على مقاليد السلطة فى البلاد . ولأن عبدالله انضم الى الجانب الخاسر فقد خسر كل شىء حتى تونس نفسها . واضطر الى الهروب من البلاد تحت جنح الظلام ، وتحول الثائر القديم إلى جاسوس وخائن ومطلوب للمقصلة عند حكام اليوم زملاء النضال فى الأمس القريب .

وساح عبدالله فى بلاد الله ومنذ عام ١٩٥٧ لا يعرف شيئاً عما أصاب أسرته الصغيرة ولكنه كان يبكى أحياناً كلما سمع عن وفاة أحد أفراد عائلته. وغالباً كان يسمع بالنبأ بعد حدوث الوفاة بسنوات، ولكن مأساة عبدالله ليست فى هذه الأحداث التى سردتها، فهى قصة كل مناضل هارب من بلاده شاء له حظه العاثر أن يخسر المعركة على طول الخط.

ولكن شيئاً آخر هزنى فى مأساة عبدالله، فقد كان معه شاب فى الخامسة عشرة من عمره وفى سن ابنى الوحيد أكرم. وله هيئته وحجمه وبعد أن قدمه إلينا راح يحكى لنا قصته مع ابنه الوحيد. فقد تركه رضيعاً لحظة خروجه هاربا من تونس ولم تقع عينه عليه بعد ذلك. غير أن أحد الناس الطيبين تطوع فى عام ١٩٦٢ وأرسل إليه صورة ابنه ولم يكن قد جاوز الخامسة من عمره بعد، وأصبحت هذه الصورة هى الصلة التى تربطه بابنه وبعائلته وبتونس كلها. وكان ينظر إليها كلما أحس بالحنين أو أستبدت به الغربة حتى بهتت الصورة وضاعت معالمها على مدى ستة عشر عاما ظل عبدالله ينتقل مع تيار الثورة العربية إلى هنا وهناك.

وفى البداية كانت الأحوال قد استقرت به فى مصر فى زمن عبدالناصر، ولكن بعد رحيله جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن. فغادر مصر الى اليمن الجنوبى ومن اليمن الجنوبى الى دمشق. ومن دمشق الى بيروت. ثم شد الرحال أخيراً الى طرابلس. وقرر أن يقيم فيها على الأقل ليتسنى له أن يشم ريح تونس وحدودها لا تبعد عن طرابلس أكثر من ساعة.

ولكنه بعد انقضاء عدة أشهر عليه فى طرابلس وبينما كان مستلقياً على مقعده الذى اعتاد الجلوس عليه كل أمسية فى بهو فندق الشاطىء، وكان

لحظتها مغمض العينين سارحاً فى أحكام الله سابحا فى تصاريف القدر عندما استيقظ فجأة على صوت يناديه . . ونظر إلى صاحب الصوت فإذا به شاب صغير ظنه فى البداية أحد عمال الفندق، وكان الغلام الواقف أمامه . يسأله هل أنت فلان؟ وبالرغم من أن عبدالله أجاب بالإيجاب . إلا أن الغلام راح يكرر السؤال أكثر من مرة . وعندما تأكد أنه هو الشخص الذى يقصده . أجهش الفتى بالبكاء فقد كان ابنه وكان الجالس امامه هو أباه .

لا أعتقد أن مؤلفي السينما ومؤلفى المسرح قد توصلوا الى موقف درامى من هذا النوع، أول لقاء بين رجل وابنه، مع أن الأول فى الخمسين من العمر والآخر فى السادسة عشرة فرقت بينهما الظروف السياسية التعسة وخلافات السلطة والرئاسة التى قضت على سلطان العرب وعلى وجودهم أيضا فى عديد من الأماكن هنا وهناك .

وسرحت بعيداً عن الحاضرين . وتصورت أنى سألقى مصير عبدالله وأن عينى لن تقع على أكرم ابنى مرة أخرى . فعبدالله لحظة افترق عن ولده كان فى الخامسة والثلاثين، بينما العبد لله فى السابعة والأربعين، وصحيح أن الأعمار بيد الله، ولكن من يدرى، ماذا يخبىء القدر؟ وله أحياناً تصاريف تفوق خيال كل الشعراء والمؤلفين .

وانتزعنى من أفكارى رنين تليفون متواصل ظل يصرخ بلا انقطاع، كان موظف الاستقبال فى الفندق على الناحية الأخرى من الخط ورجانى أن أهبط لأمر هام . وعندما نزلت وجدت فى انتظارى ثلاثة شبان أشداء يبدو من شكلهم ومن هيئتهم أنهم من أبناء المعسكرات، وبعد أن حيانى أكبرهم همس

فى أذنى : الأخ العقيد ينتظرك الآن وستذهب معنا، قلت، الآن فى هذا الجو، ووقفت مترددا لحظات خيل إلى أنهم أعدائى، وأنهم ربما جاءوا لاختطافى خصوصا أن تونس على بعد ساعة من الفندق، وهممت بأن اسأل عن هويتهم، ولكنى امتنعت فى آخر لحظة. واهتديت الى حل آخر، فقلت لهم إن الأستاذ طلال سلمان معى فى الحجرة وهو بالطبع سيذهب معى، فأرجوكم الانتظار حتى استدعيه، ولكن كبيرهم رد بشكل قاطع وبحسم شديد: العقيد يريدك أنت وحدك ولا يريد أحداً سواك. وستذهب معنا الآن على الفور.

وألقيت نظرة على موظف الاستقبال نظرة تحمل طلباً للانقاذ ولكن وقفته المؤدبة وقامته التى تقوست امام الثلاثة أدخلت الطمأنينة الى قلبى. فلابد أنه يعرفهم ويعرف مدى السلطان الواسع الذى يتمتعون به وتحركت معهم الى الخارج كأسير يبدأ رحلة المجهول دون ان يدرى.. الى أين؟

كانت السيارة تنهب بنا الطريق بينما العاصفة تزأر فى الخارج. والمطر يخفى معالم الطريق عن أعين السائق، بينما بدت شوارع طرابلس كأنها بقايا مدينة ميتة، ولم يقع بصرى على أحد يتحرك خارج السيارة رغم طول الرحلة، إلا عندما توقفت السيارة أمام حاجز أمنى وتحرك شبح يشهر مدفعا رشاشا، كان جندى الحراسة يرتدى بالطو يقيه من المطر، ويخفى وجهه بلثام، ولا يبدو منه الا عيناه، ولكنه سرعان ما تراجع عندما وقع بصره على الرجل الذى يجلس بجوار السائق، وأدى تحية عسكرية وسمح للسيارة بالمرور!

واكتشفت عندما اجتزنا البوابة أننا فى ثكنة عسكرية، وعندما سألت رفاق السيارة هل العقيد يقيم هنا؟ لزم الجميع الصمت، بينما كانت السيارة تتوقف

امام مبنى قديم على الطراز الايطالى، ولم يكن هناك أحد امام المبنى الا ضابط برتبة نقيب، يعلق مسدسا كبيرا فى وسطه، قدم نفسه (على مفتاح) ثم تقدمنى وصعد السلالم الى الشرفة، واكتشفت وأنا أصعد الدرج خلف النقيب على ان السيارة التى جاءت بى قد تحركت وغابت داخل المعسكر.

ودخلنا مكتبا عاريا تماما الا من مكتب ومقعد واحد، ونظرت حولى أبحث عن مقعد أجلس عليه، ولكن الضابط على أشار علىَّ بالدخول من باب جانبى، وخيل الى أنى سأدخل فى عدة مراحل يفرضها البروتوكول على الذين تتيح لهم الظروف فرصة مقابلة الحكام والولاة، وخيل الى ان النقيب على هو مجرد حارس مهمته استقبال الضيوف عند الباب، وأن هناك جيشا من السكرتارية ورجال التشريفات، ولذلك لم أهتم باطفاء سيجارتى عند النقيب على، وكنت قد أشعلتها وأنا فى السيارة لأستعين بها على مواجهة البرد، ودخلت من الباب الذى أشار اليه النقيب على والسيجارة تستقر بين شفتى وأنا أفرك فى يدى.

وما أن نظرت داخل الباب حتى اكتشفت أنى داخل قاعة فسيحة ليس بها الا مقعدان فى ركن بعيد، بينما وقف رجل فى ثياب عسكرية وبلا غطاء رأس على مقربة من المقعدين، وما أن رقع بصرى عليه حتى انتزعت السيجارة من بين شفتى، فقد كان العقيد نفسه هو الذى يقف فى نهاية القاعة، وحاولت الاعتذار بدخولى والسيجارة بين شفتى، ولكنه لم يترك لى فرصة للكلام، استغرق فى الضحك أولا ثم عانقنى بحرارة، ودعانى للجلوس، فأستأذنت منه ليسمح لى بالخروج لأطفىء السيجارة فى مكتب النقيب على، فلم يكن

في القاعة التي التقينا بها شيء يصلح لهذا الغرض، ولكنه أشار على بمواصلة التدخين، فقلت له: يا سيادة العقيد، ولكنى لا أدخن فى حضرة رؤساء الدول. فقال «ما عليك» إننا الآن نجتمع كأصدقاء، وأخفيت السيجارة فى راحة يدى وأطبقت عليها بأصابعى وجلسنا متقابلين.

وبدأ العقيد الحديث سألنى: لماذا لم تحضر الى ليبيا بعد خروجك من مصر مباشرة؟ وأجبته: أننى خرجت من مصر فى الواقع لعلاج ابنتى هالة ولم يكن فى نيتى أن أغادر مصر، ولكنهم اجبرونى على ذلك، فقد علمت وأنا فى لندن أننى لن أعود الى الصحافة، وأن هناك اصرارا على أن أبقى موظفا فى المقاولون العرب ولذلك قررت البقاء فى الخارج، وإننى جئت الى ليبيا بعد أن تلقيت دعوة من القيادة السياسية، ثم أضفت: أن الأشياء مرهونة بأوقاتها وعلى كل حال، هأنذا فى ليبيا أخيرا.

وقال العقيد، وكيف رأيت ليبيا الآن؟ وضحكت وأنا أقول: لم ار شيئا الا العاصفة والأمطار. وراح العقيد يحكى تفاصيل العلاقة بينه وبين السادات وقال: لقد توسطت لك عنده، قلت للسادات عندما التقيت به، عقب سجنك، أن وجود السعدنى فى المؤامرة ليس أكثر من نكتة، ولكن السادات رد على قائلا: ان السعدنى سليط اللسان وقد سبنى يا معمر وسب بيتى، واذاع نكتا كثيرة حولى، كلها نكت جارحة، وأنا لا أحقد عليه، ولكنى غضبان، وسأقرصه من أذنه فقط.

وقلت للعقيد: لقد سمعت بنبأ هذه الوساطة وأنا فى السجن. نقل الى الخبر الأستاذ مصطفى أمين نقلاً عن الأستاذ محمد حسنين هيكل عندما زاره فى

سجن طره، وأرسل الى الأستاذ مصطفى أمين فى سجن القناطر هدية ورسالة مع فريق كرة القدم بسجن طره الذى جاء إلى القناطر ليشترك فى مباراة مع فريق سجن القناطر، وكانت الهدية عبارة عن شيكولاته وسجاير كنت، ورسالة تقول: محمود لا تقلق، سيفرج عنك قريبا، فقد توسط لك العقيد القذافى عند الرئيس السادات، كما روى لى الأستاذ هيكل عندما زارنى فى السجن.

ولقد عشت أياما فى السجن بعد هذه الرسالة متصوراً أن الافراج بات وشيكاً ولكن لم يفرج عنى إلا بعد قضاء مدة العقوبة بأربع وعشرين ساعة قضيتها فى مكتب الرائد محمد شرشر بمباحث أمن الدولة ولازمنى خلالها شقيقى الفنان صلاح السعدنى وصهرى الأديب عبدالرحمن شوقى وابنى الوحيد أكرم، ولم يفرج عنى إلا فى الساعة الخامسة صباحاً، عندما تلقى الضابط أمراً بذلك من مجهول عبر التليفون.

قال العقيد وهو يضحك، هل تعلم؟ لقد فكرت فى اختطافك من السجن، قلت للمخابرات الليبية، احضروا السعدنى الى هنا ولو فى شوال، ولكنهم قالوا لى قد انقضى عام عليه فى السجن، ولم يبق عليه إلا عام واحد، قلت إذن اتركوه ليقضى هذا العام، ثم بعد ذلك نتدبر الأمر وضحكت وأنا أقول للعقيد القذافى، الحمد لله أنكم صرفتم النظر عن موضوع الشوال، وإلا كنت لقيت حتفى مخنوقاً داخله.

ضحك العقيد القذافى، ثم مرت علينا فترة من الصمت، رفع رأسه خلالها وحدق فى سقف القاعة، وتبدلت ملامح وجهه الوسيم، واكتست لونا من

ألوان الحدة والصرامة، وخيل إلىّ أنه غاب عنى وعن القاعة، وأنه حلق فى آفاق أخرى بعيدة لا يعلم مداها إلا الله. وقطعت علبه سرحانه البعيد، وقلت مازحاً: إن هناك اختراعاً عظيماً اكتشفته البشرية وأرجو أن تكونوا قد حصلتم عليه، وقطع الغقيد سرحته ونظر إلىّ منتبها، وقال: أى اختراع تقصد؟ وأضفت: اختراع اسمه الشاى، وهو مفيد جدا فى أيام الشتاء وفى مواجهة البرد.

وضحك العقيد ضحكة صافية وعميقة، وقال: إننى أعيش هنا كما ترى يا محمود، ولكن على أية خال سأحاول، فأنا أيضاً أريد كأساً من الشاى، وقام العقيد بنفسه وخرج من القاعة الى مكتب النقيب على، ثم عاد بعد لحظات، وقال: اطمئن، الشاى فى طريقه إلينا بعد دقائق، إن الأخ على سيتدبر الأمر، وعلى رشفات الشاى الساخن الذى جاء سريعا، راح العقيد يسألنى، هل كنت تسمع اذاعة ليبيا فى القاهرة؟ فلما أجبته بالإيجاب، قال: ما تأثيرها فى الشارع المصرى؟ أجبته بأن تأثيرها فى حدود ضيقة، ولكن أثره مضمون، لأنكم تذيعون خطب عبدالناصر بصوته، وهى مادة ممنوعة فى مصر، وكل ممنوع مرغوب كما تعلم يا سيادة العقيد.

قال العقيد وقد غير اتجاه الحديث، لقد قرأت ما كتبته فى السفير، وكنت أتابعك كل يوم، واستغرق فجأة فى نوبة ضحك شديدة ثم قال: لقد أعجبنى مقالك عن «ثورة ٢٣ حمروش»

وأتوقف هنا قليلاً لأحكى لكم قصة هذا المقال، الذى أثار اعجاب كل من العقيد القذافى والرئيس السادات على حد سواء، مع أنهما على طرفى

نقيض، فقد روى لى الأستاذ أحمد بهاء الدين أن المرة الوحيدة التى ذكر فيها السادات أسمى بالخير أمامه، كانت بشأن هذا المقال، وروى لى الأستاذ بهاء أنه عندما كان فى لقاء مع السادات سأله عن رأيه فى كتاب ثورة يوليو للأستاذ أحمد حمروش، ووصف الأستاذ بهاءالكتاب بأنه ليس تاريخاً ولكنه وجهة نظر رجل شارك فى الأحداث.

ويبدو أن رأى بهاء لم يعجب الرئيس السادات، فسأله الرئيس: هل قرأت ما كتبه الولد السعدنى عن هذا الكتاب؟ (ملحوظة: وصف الرئيس السادات للعبدلله بالولد، هو شرف لو تعلمون عظيم، وهى رتبة منحنى إياها كبير العائلة المصرية، الذى اعتاد أن يطلق على جميع الناس لقب أولادى، أولادى ضباط الجيش، أولادى الصحفيين، أولادى أساتذة الجامعة، وأولادى الوزراء) حتى شاه إيران الابن أنعم علبه السادات بهذا اللقب.. الواد شاه إيران الجديد كما أطلق عليه الرئس السادات فى احدى خطبه الشهيرة، واستغرق الرئيس السادات فى ضحكة مفاجئة، ثم قال لبهاء: لقد اقترح الولد السعدنى تغيير اسم الكتاب من ٢٣ يولبو الى ٢٣ حمروش، وكنت قد اقترحت هذا فعلاً فى مقال نشرته جريدة السفير بعد أن استرعى انتباهى أن الأسناذ حمروش ركز فى كنابه على الأعمال التى قام بها أو اشترك فيها شخصياً. وقلت فى المقال: (لقد خيل إلىّ بعد قراءة الكتاب أن ثورة ٢٣ يوليو فى الحقيقة ثورة ٢٣ حمروش. ولم أكن قد سمعت من الأستاذ بهاء هذه القصة قبل جلوسى مع الرئيس القذافى الذى أبدى لى إعجابه الشديد بالمقال، وقال لى العقيد: إن كتاب حمروش يجعل من دور الرئيس عبدالناصر دوراً

ثانوياً في الثورة. ثم قال فجأة: لقد قرأت لك مقالا هاجمتنى فيه شخصياً وإن لم تذكرنى بالاسم، قلت له، لقد ذكرتك بالاسم يا سيادة العقيد، ولكن رئيس التحرير هو الذى حذف الاسم وقال: لقد كان واضحا أنك تذكرنى أنا بالذات ، وكان مقالك عن حديث أدليت به الى مراسل صحيفة ايطالية، وأضاف، لقد جاء على لسانى فى الحديث أن المصريين هم أمة من الغنم، ولكنى لم أقل هذا الكلام، الصحفى الايطالى هو الذى فبركه، وكنت أتصور أنك عجوز فى الصحافة وتعرف أن هؤلاء الخواجات يفبركون على ألسنتنا كلاماً لم نذكره، بقصد الفتنة والوقيعة، قلت: ولكنك يا سيادة العقيد لم تكذب الحديث، قال: لأن التجارب علمتنى أن التكذيب يشارك فى انتشار ما تريد تكذيبه، ولذلك آثرت الصمت، وصمت العقيد وغاب عنى وعن القاعة الى مكان ناء بعيد.

الحلم.. والفقر الجديد

أثناء غياب العقيد فى سرحته البعيدة اكتسى وجهه بلون قاتم نوعا ما ، تم تبدلت ملامحه الوديعة فأصبحت أكثر شراسة ومضى وقت طويل وأنا أحدق النظر فيه دون أن أتكلم ، تم بدأ يعود الى طبيعته الأولى ، عادت ملامحه الى وداعتها ، وأكد وجهه لونه الأصيل ، وقال بصوت خفض وكأن هناك من يسمعنا فى القاعه هل قررت الاقامة فى الخارج؟ فلما أجبته بالإيجاب ، قال: هل اخترت المكان؟ قلت: فى الواقع أنا لم أقرر شيئا حتى الآن ، وأشعر منذ خرجت من مصر أننى أشبه بحطام قارب تتقاذفه الموج فى كل اتجاه ، ولقد كنت أود الاقامة فى بيروت ، ولكن ما حدث فى بيروت يؤكد أن الحرب الأهلية على الأبواب ، وفى الأيام الأخيرة التى قضيتها فى بيروت ، حذرنى البعض من مغادرة بيروت الغربية . والتقط العقد الخيط وقال: تستطيع العيش فى بيروت لو أردت ، ما رأيك لو أصدرت مجلة فى بيروت؟ وهتفت مستنكرا . . أنا!!

ولم أترك فرصة للعقيد القذافى للتعقيب واستطردت قائلا : إنى سأكون

هدفا سهلا للجميع ، وسألقى مصرعى قبل ان يصدر العدد الثانى ، وقال العقيد القذافى بحزم شديد ، ولكنى سأتولى حمايتك فى بيروت .

كان واضحا من الحديث ان الذى سيتولى حمايتى هو نظام العقيد وليس العقيد وحده ، وأعتقد ، أنه كان يعنى ما يقول ، وأنه كان قادرا على ذلك أيضا ، وقلت : أنا واثق أنك تستطيع هذا وأنك قادر عليه ، ولكن المشكلة يا سيادة العقيد ، أن الخطر لن يكون مصدره مصر أو أى نظام آخر ، ولكن الخطر الحقيقى سيكون مصدره بعض تجار الصحافة فى بيروت ، فإصدار الصحف التى من هذا النوع ، حرب لها فرسانها فى بيروت ، ولن يسمحوا لأحد الهواة بدخول السوق ، وأعتقد أن إصدار مجلة فى بيروت ، سيكون مغامرة خاسرة ، وسيكون أشبه بفريق كرة قدم يلعب على أرض بعيدة ووسط جمهور غريب ، وتحت رحمة حكم متحيز ، وفى ظل ظروف كهذه ، النتيجة معروفة .

وصمت العقيد القذافى فترة ، ثم قال : إذن أسكن هنا معنا فى طرابلس . قلت : ليس أحب الى قلبى من هذا ، اننى خرجت من مصر لكى أتمكن من الكتابة ، ولا أعتقد أن فى طرابلس مجالا لهذا الذى خرجت من أجله ، قال : تستطيع الكتابة فى جريدتنا هنا ، قلت : فين؟ فى الفقر الجديد ، كانت الجريدة التى أعنيها هى الفجر الجديد ، ولكننى غيرت حرفا واحدا من اسمها ، وقلبت الاسم الى الفقر الجديد ، وأعقبت ذلك بضحكة ، وأشهد الآن أننى قلت ذلك دون وعى ، ولم أقصد إهانة العقيد أو جريدته ، ولكن النكتة حبكت معى فنطقت بها ، وغاب عنى لحظة أننى فى حضرة رئيس الدولة ، وأنه فخور

بجريدته اليومية ، وإن كان للصحفيين وأبناء المهنة رأى آخر فى الجريدة يختلف عن رأى العقيد .

وبدا على العقيد أنه لم يشعر بالارتياح للنكتة التى أطلقتها ، وقال بعد فترة صمت استمرت أكثر من دقيقة ، على كل حال تستطيع أن تعيش هنا ، وأن تنشر فى المجلات التى نصدرها خارج ليبيا ، ومرة أخرى قلت بصراحة كاملة : ولكن يا سيادة العقيد لقد نجح الكثيرون فى تشويه صورتك امام الجماهير ، واستطاع هذا الإعلام بذكاء أن يثبت فى عقول الجماهير أن كل من يتصل بك مرتش يسعى لجمع الفلوس وليس لأى شىء آخر ، واقامتى فى ليبيا ستضعف من تأثير كلماتى عند الناس ، فيعتقدون أننى مأجور ، وأننى أحارب بالثمن .

ومرة أخرى لم تلق هذه الكلمات قبولا فى نفس العقيد وسرح بعيدا مرة ثالثة ، وغاب فى هذه المرة أكثر من خمس دقائق ، وتكرر هذا الغياب بعد ذلك أكثر من خمس مرات فى اللقاء الذى استمر بيننا على مدى مائتين وخمس عشرة دقيقة ، وراح يسألنى اسئلة غير مباشرة ، ثم سألنى فجأة خلال الحديث ، لو فكرت فى إصدار مجلة ، فأى مكان تختاره لاصدارها من هناك؟

وفكرت قليلا قبل أن أجيبه ، اذا فكرت فى اصدار مجلة ، سيكون المكان الوحيد الذى تصدر منه هذه المجلة هو لندن ، وقال العقيد وصوته يحمل رنة سخرية ، مجلة عربية فى لندن ، وقلت للعقيد ، نعم ، واعتقد أن لندن ستكون هى المجال الصالح والوحيد لإصدار صحف عربية فى الأعوام القليلة القادمة خصوصا بعد الذى حدث فى بيروت . وتمتم العقيد بصوت خفيض ، غريبة! ثم غاب فى سرحة جديدة امتدت دقائق . سألنى وهل فى ذهنك تصور لهذه الجريدة إذا فكرت فى عمل من هذا النوع؟

قلت : فى الواقع يا سيادة العقيد ليس عندى تصور ولكن لدى حلم أريد تحقيقه منذ زمن بعيد. فمنذ حوالى ثلاثين عاما عملت محررا فى جريدة كانت الأولى والأخيرة من نوعها وكان اسمها «كلمة ونص» وكان يرأس تحريرها مأمون الشناوى وصلاح عبد الجيد ، وصدرت هذه المجلة عدة أشهر ، كانت تعتمد على المقالات القصيرة اللاذعة وعلى الرسوم الكاريكاتيرية التى هى أبلغ من كل مقال ، وكان لها تأثير شديد على عقول القراء- خاصة الشباب منهم- ولكن اضطرت الى الاحتجاب لأسباب مادية ، وأعتقد أن مجلة من هذا النوع ، ستحقق انتشارا رهيبا ، وسيكون لها تأثير شديد لأن الناس أصابهم الضجر من مقالات الحنجورى ، وفى الواقع ، والموقف الاستاتيكى الذى يتعارض مع المضمون ، من أجل تحقيق طموحات الشواسى العليا للبرجوازية.

وابتسم العقيد ، وسألنى هل وضعت تصورك هذا على الورق؟ وحينما استفسرت منه عما يقصده بالضبط. قال : هل وضعت تصميما لهذه المجلة؟ قلت تقصد الماكيت ؟ قال : نعم. قلت : لا لم أفعل بعد ، ولكنه أمر سهل ، واستطيع ان أضع هذا التصميم فى يوم واحد. قال : إذن ، سأقابلك مرة أخرى خلال هذا الأسبوع ، وأرجو أن يكون معك هذا التصميم عندما تأتى الى هنا.

وقلت : سأحاول إن شاء الله ، وانتهت المقابلة بعد منتصف الليل بوقت طويل ، وودعنى العقيد الى مكتب النقيب على الذى كان جالسا مكانه كما تركته منذ ساعات ، وأدهشنى أن العلاقة بين العقيد والنقيب هى علاقة زمالة وليست علاقة رئيس ومرءوس.

كانت العاصفة لاتزال تضرب طرابلس بقسوة وأنا أجتاز بوابة الثكنة التى يقيم فيها العقيد ، وكانت الأمطار قد زادت عن ذى قبل وراحت تضرب سقف السيارة وكأنها قبضات جماهير غاضبة تحاول اعتراض طريق السيارة والفتك بمن فيها ، وكانت الشوارع كما رأيتها فى طريق الذهاب خالية تماما إلا من بعض رجال الحرس الذين كانوا يقفون عند الحواجز الأمنية ، ولكن الطريق كان يفتح لنا على الفور بمجرد رؤيتهم للسيارة ، ووصلت فندق الشاطىء والفجر على الأبواب ، وبالرغم من ذلك كان هناك عشرات يتناثرون فى البهو ، وكان واضحا تماما أنهم ليسوا من نزلاء الفندق وكانت ملابسهم متشابهة ، وسحنتهم المميزة تؤكد أنهم عيون على هؤلاء النزلاء.

واستلقيت على فراشى حتى الصباح الباكر افكر فيما دار بينى وبين العقيد ، وفيما سوف يجرى فى الأيام القليلة القادمة ، فالواقع أننى حضرت الى ليبيا دون تدبير سابق ودون تخطيط ، وربما كان السبب الحقيقى فى حضورى الى ليبيا هو تحدى السلطة المصرية التى أبدت النصح لى أكثر من مرة عن طريق الممثلين الرسميين والمتطوعين ألا أذهب الى ليبيا حتى لا يحدث لى مالا يحمد عقباه ، لقد أردت أن أثبت للجميع أننى أستطيع الذهاب الى ليبيا إذا أردت ، وانه ليس فى استطاعة أحد أن يحدد خطواتى داخل مصر وخارج مصر أيضا . لقد أفلت من القفص الحديدى فى السجن ومن القفص الذهبى فى «المقاولون العرب» وسأرسم خطواتى القادمة بنفسى ولن يكون لأحد دخل فى هذا الأمر على الاطلاق.

وعندما وصلت الى فندق الشاطىء قادما من مقر القيادة فى طرابلس ، كان الاستاذ طلال سلمان يغادر الفندق فى طريقه مع عبدالسلام جلود الى

الخرطوم. وسألنى طلال وهو يهم بمغادرة الفندق عما دار فى المقابلة؟ فأجبته بأنها كانت مقابلة ودية ، وأن العقيد كان ودودا للغاية ، وودعنى طلال ، وقال سأذهب مع عبدالسلام جلود فى رحلة الى افريقيا وأرجو ألا تغادر قبل أن أعود ، ثم قال وهو يركب السيارة فى طريقه الى المطار ، لاتنس السفير ، إنها فى انتظار مقالاتك ، ونحن ننشر إعلانا كل يوم بأنك ستكتب فى الغد.

وقلت لطلال وأنا أرفع يدى مودعا ، ربنا يسهل ، ولم أشأ أن أبلغه بقرارى بالتوقف عن الكتابة فى السفير بالرغم من أنها كانت ولاتزال أكثر الجرائد صحافة فى لبنان ، وقضيت الأيام الخمسة التى تلت الزيارة فى رحلات داخل طرابلس مع أصدقاء قدامى توثقت بينى وبينهم أواصر المحبة قبل الثورة ، أحدهم كان يعمل صحفيا فى جريدة ليبية إبان حكم السنوسى ، ولكنهم أبعدوه عن العمل الصحفى بعد الثورة وعينوه محاسبا فى أحد البنوك بطرابلس ، وبالرغم من أنه كان صحفيا متواضع المستوى ، إلا أنه كان رجلا مخلصا ، وفنانا على نحو ما ، وصديق آخر عرفته فيما مضى ، وكان يعمل فى تجارة السيارات المستعملة وكان أول ليبى أدخل بيته قبل الثورة ، وكانت أسرته هى أول أسرة ليبية أتعرف إليها عن قرب ، وقد دعانى مرة مع الأستاذ بهاء خلال زيارة عبدالناصر لطرابلس الى إفطار ليبى فى مزرعته الصغيرة خارج العاصمة ، وأشهد أنه كان أشهى إفطار تناولته فى حياتى فقد تم صنعه فى الحال ، وقام بإعداده والد صديقنا ، وكان عبارة عن فطائر من طحين السمسم معجونة بالزبد والعسل.

وفى تلك الزيارة الخاطفة للمزرعة الليبية ، أدركت عمق المأساة التى يعيشها الريف الليبى ، فثمار الزيتون أصابها التلف لقلة الأيدى العاملة

والشعير لم يجد من يحصده ، ولذلك يكتفى صاحب المزرعة عادة بالحصول على ما يكفيه ويترك الباقى طعاما للدود والغربان ، ولكن العجيب فى الأمر أننى عندما رأيت صديقى هذا فى الزيارة الأخيرة ، كانت قد تبدلت أحواله تماما ، أصبح واحدا من كبار الأثرياء ، يدير مكتبا كبيرا للاستيراد والتصدير ، ويمتلك عدة مزارع حول طرابلس ، ويبنى قصرا فخيما ولا قصور ألف ليلة وليلة على شاطىء المتوسط ، وهالتنى مظاهرة الأبهة والفخامة والتبذير الذى يصل الى حد السفه ، وتضاعفت دهشتى عندما علمت منه أن هذا السلوك مقصود ومتعمد من جانبه ، وأنه يتوقع بين لحظة وأخرى وضع أملاكه تحت الحراسة ، ولذلك ؛ فهو يبددها أو يحاول ذلك ، قبل أن تصل يد السلطة إليها .

كان صديقى أحمد القفل الذى أثرى فى عهد الثورة قد تحول الى عدو لها ولكن حكاية القفل ومأساته هى نفسها حكاية الثورة الليبية ومأساتها ، لقد تولى القفل مسئولية القطاع العام مشرفا على عدة مزارع كانت ملكا للايطاليين من قبل ، وقد تولى هذا العمل باعتباره يمت بصلة القرابة لأحد رجال الثورة ، وليس لأى سبب آخر ، واتهموه بعد ذلك باستغلال النفوذ والثراء غير المشروع ، وقضى فى السجن مدة ثم اطلقوا سراحه وغادر ليبيا ، وقضى فترة فى تونس ثم عاد بعد سنوات ليصبح واحدا من أهم موردى السلاح للجيش الليبى ولتصبح ثروته فى سنوات قليلة فى حجم ثروة المرحوم أوناسيس والمرحوم روتشيلد ، وبعد الكتاب الأخضر واللجان الشعبية ، كان طبيعيا أن تنقض الثورة على القطط السمان التى أكلت أكثر من طاقتها واختزنت أكثر من حاجتها

******

وفى تلك الفترة شهدت ليبيا حركة تهريب للأموال غير عادية ، حتى قيل أنها بلغت فى عام واحد خمسين مليارا من الدولارات ، وتبع هروب الأموال هروب الأشخاص ، وعاش هؤلاء فيما وراء البحر عيشة مهراجات الهنود أيام الأستعمار ، وقال لى أحمد القفل وهو يطوف بى أرجاء قصره المنيف (فى زيارتك القادمة لن تجدنى هنا ، لقد قمت بتهريب الجزء الأكبر من أموالى وسألحق به عما قريب) .

صديق ثالث كان يعمل فى السياسة ، وقضى فترة فى معسكر اعتقال فى بداية الثورة ثم خرج من المعتقل الى سفارة بلاده فى دولة أوربية ثم أعيد الى طرابلس وتركوه هناك موظفا بلا عمل وإن كان يتناول راتبه أول كل شهر وتناله الترقيات والعلاوات أول كل سنة ، ومن الناحية الأخرى كان هناك أيضا شاب عربى لاشك فى اخلاصه ، وكان يعمل مديرا للاذاعة ، وكان مؤمنا بالوحدة متأكدا من أنها ستتحقق خلال عامين !! وثمة شاب ليبى آخر ، كان يتولى منصبا هاما فى الاعلام ، كان عربيا وحدويا ولكنه على عكس زميله ، وكان يؤمن بأنها ستتحقق على مهل ، وربما يطول انتظارنا لها سبع سنوات !!

وفى اليوم الثالث للمقابلة ، أبلغنى صحفى عربى كبير أننى سأقابل القذافى فى اليوم التالى ، وقال أنه علم بأمر المقابلة من مسئول كبير فى القيادة الليبية . والعجيب أن المقابلة قد تحققت بالفعل فى الموعد الذى حدده الصحفى إياه ، وحينما رأيت القذافى كان بمفرده كالمرة السابقة ، وبادرنى بسؤال عن التصميم الذى وضعته للمجلة التى أتصورها ، ولكنى اعتذرت بأن الوقت ضيق ،

وغير الحديث وقال: أين محطتك القادمة؟ قلت: سأذهب الى لندن لوضع الترتيبات ، لاستقبال هالة فى المستشفى ، وصمت العقيد القذافى لحظة وقال ان هالة كانت مشكلتك وستظل ، وأضاف: سارع بعلاجها مهما تكلف الأمر ، وعندما تصل هالة الى لندن ، دعنى أعلم ، وأقترح أن تحضر بنفسك. وسرح كعادته ، وعندما عاد الينا قال على الفور ، عندما تعود الينا فى المرة القادمة ، اتصل بمحمد تبو وزير الزراعة حتى لا يلتفت أحد فى مصر الى مجيئك ، ثم قال: تستطيع أن تحصل على جواز سفر ليبى قد يسهل عليك الأمور ، قلت للعقيد: سأتصل بالأخ محمد تبو قبل حضورى فى المرة القادمة. أما جواز السفر الليبى فلست فى حاجة اليه ، وسأرجىء الحصول عليه للمرة القادمة ، قال- وهو يودعنى عند الباب- ليبيا بلادك ومفتوحة لك ، ولكن لا تنس عندما تصل هالة الى لندن اتصل بمحمد تبو واحضر على الفور ، ولقد استغرقت المقابلة الثانية ساعتين كاملتين ، ودارت فيها أحاديث شتى لا أعتقد أن ذكرها هنا سيفيد أحدا أو يهم أحدا.

المهم أن العقيد ودعنى عند الباب وانطلقت بى السيارة من القيادة الى بيت القنصل المصرى عماد البط وهو رجل فاضل توثقت بينى وبينه أواصر الصداقة عندما كان يعمل فى باريس ، وعندما رأيته أول مرة فى طرابلس ، كان قد مضى على فراقنا عشر سنوات.

كنت أعلم أنهم فى القاهرة قد أوفدوه الى ليبيا باعتبارها منفى ، فلم يكن موضع رضا حكومة القاهرة التى جاءت به بعد ثورة التصحيح باعتباره كان عضوا فى التنظيم الطليعى الناصرى ، ومنحت جواز سفرى لعماد البط فى

أول لقاء بيننا بالرغم من أنه كان قنصل الحكومة التي تطاردني في الخارج ، فطلبت منه ، باعتباره قنصل مصر في طرابلس الحصول لي على تأشيرة دخول الى انجلترا . وكان هذا هو السبب الذي جعلني أقصد منزل عماد البط بعد خروجي من عند العقيد . ووجدت عماد البط في انتظاري وجواز السفر معه وعليه تأشيرة الدخول ولكنني اعتذرت عن قضاء السهرة في منزله متعللا بالسفر الى بريطانيا في اليوم التالي ، ولكنها لم تكن الحقيقة التي منعتني من قضاء السهرة عنده ، أما السبب الحقيقي ، فأنني وجدت ضيوفا عنده يقضون السهرة على رأسهم بعض أعضاء مجلس الثورة في ليبيا ، وخيل الى أنه لقاء رسمي أو شبه رسمي بين السلطة الليبية وحكومة مصر يتم في بيت القنصل المصري في طرابلس . ولذلك آثرت الانسحاب ، فقد يكون في وجودي ما يحرج أحدا . وفي الصباح الباكر كانت الطائرة تحلق بي فوق المتوسط في طريقها الى لندن وسط عاصفة من الثلوج وضباب كثيف يحجب الرؤية . ولم نتمكن من الهبوط في مطار هيثرو ، فاتجهنا صوب مانشستر ولم نعد الى لندن إلا في اليوم التالي .

وعندما استقر بي المطاف في فندق لانكسترجيت في لندن ، كان معي ثمانمائة جنيه استرليني هي كل ثروتي في الحياة ، وكان أجر الفندق عشرة جنيهات عن كل ليلة . وقضيت شهرا في انتظار هالة التي خرجت من المطار الى مستشفى جامعة لندن ، وهو مستشفى شديد الشبه بمستشفى قصر العيني القديم ، وهو يتبع كلية الطب ، ومع ذلك فأجر الحجرة التي نزلت فيها هالة بلغ مائة وعشرين جنيها استرلينيا كل ليلة ، وتسألونني كيف وصلت الأجور الى هذا الحد في مستشفى المفروض أنه يتبع الحكومة .

وأصل الحكاية أيها الناس ، أنهم فى الغرب ناس آخر شطارة وآخر مهارة ، فالمستشفى حكومى وبالمجان أيضا ، ولكن لصنف الانجليز ، وميزانية المستشفى ضخمة ، وربما أضخم من ميزانية وزارة الصحة فى دولة من دول العالم الثالث ، ولكن لأن الانجليز افتقروا بعد الحرب ، فقد فكروا فى فكرة بسيطة ولكنها عملية ومفيدة ، وتضمن ارتفاع مستوى الخدمة المجانية لمرضاها الانجليز ، فقد خصصوا دورا كاملا من أدوار المستشفى الستة للعلاج بالفلوس وهى تستقبل كل مريض يريد خدمة فورية . وبشرط أن يدفع الثمن .

وفى بداية علاج هالة ، أقصد فى عام ١٩٦٣ ، كان أجر الحجرة ستة جنيهات لا غير . ولكن عندما ظهرت هوجة البترول ، وموضة العلاج فى الخارج ، ظل الرقم يتضاعف عاما بعد آخر ، حتى وصل فى عام ١٩٧٥ الى مائة وعشرين جنيها ، وينفق الدخل كله على الأبحاث الطبية ، وعلى مرضى المستشفى من السادة الانجليز ، ولأن العبد لله كان قد قرر فى عام ١٩٦١ أن يعالج هالة حتى تشفى بأمر ربى ولو أدى الأمر الى بيع ملابسى فى سوق الجمعة ، ولأننى أشعر ازاء مأساتها بعقدة ذنب ، لأنها أصيبت بالشلل وأنا فى سجن الواحات عام ١٩٥٩ . ولو أننى كنت موجودا الى جوارها فى تلك الأيام عندما أصابتها حمى الشلل وأكلت جرثومته عضلات ساقها اليمنى ، ربما لم تكن حدثت تلك التطورات الرهيبة التى حدثت لها والتى أقعدتها عن الحركة ، وفرضت عليها أن تحبو حتى بلغت الثامنة عشرة ، وأيضا لأننى فى عام ١٩٧٢ جاءت هالة لزيارتى وأنا فى سجن القناطر ، وكانت ترتدى الحذاء الحديد ، وتسند ساقها بجهاز حديدى لكى تتمكن من السير ، وتذكرت لحظة وقع بصرى عليها وأنا فى سجن القناطر ، ان عام ١٩٧٢ كان موعدى معها

للسفر الى لندن لاجراء عملية جراحية من ضمن سلسلة العمليات التى بلغت ثلاثا وعشرين عملية خلال حياتها ، والتى نهضت بعدها واقفة على قدميها بإذن ربى .

لذلك لم أهتم عندما سمعت الرقم الذى هتفت به موظفة المستشفى ، ووقعت على الأوراق التى قدمتها لى ، وتركت هالة فى المستشفى وسرحت أنا فى لندن وحيدا ، أقضى نهارى بالمستشفى ، وأقضى ليلى فى البلاى بوى ، والسبب أن العشاء هناك أرخص ، والسجاير بالمجان .

كان قد مضى أسبوعان على وصول هالة للمستشفى عندما شددت الرحال الى طرابلس للقاء العقيد القذافى فقد وعدته أن أزور ليبيا بعد وصول هالة الى لندن ، ونزلت من جديد بفندق الشاطىء ، وكان قد امتلأ عن آخره بالمناضلين الذين زحفوا على ليبيا للنضال لتحقيق الوحدة من شاطىء الخليج الى شاطىء المحيط ، وفهمت يومئذ . لماذا اختار المناضلون فندق الشاطىء ليواصلوا النضال من أجل الوحدة بين الشاطئين !

ولازمنى فى تلك الفترة ومنذ نزولى مطار طرابلس مستشار مصرى سابق ، كان يعمل فى ليبيا موظفا بإحدى الوزارات وكان اسمه الزينى ، وبالرغم من أنه كان شديد الصلة بالليبيين . إلا أنه كان يضمر حقدا لا حد له لعبدالناصر ، وكانت لديه عقدة ثابتة لا تتغير ، هى أن عبدالناصر ورجاله نهبوا مصر وأنهم سرقوا أموال الأغنياء ، ونهبوا مخلفات الأسرة المالكة ، وعجبت لوجوده فى ليبيا ، وتساءلت عن الرابطة التى تربط بين الأخ الزينى وبين هؤلاء الذين يرفعون شعارت عبدالناصر ، ويقتفون خطاه ! !

والأعجب من ذلك أن الزينى كان على علاقة وثيقةبالسفارة المصرية وفى نفس الوقت على علاقة وثيقة برجال الأجهزة الليبية ، وكان يبدو من سلوكه وتصرفاته أنه مسنود من جهة ما ، وكان بالرغم من ضآلة حجمه عالى الصوت ، إذا دخل فى مناقشة خيل لك أنه يقود معركة يتوقف عليها مصير حرب البسوس!

وكان مزعجا ومنفرا ، ومع ذلك لم استطع التخلص منه على الاطلاق ، ولم ينقذنى من الأخ الزينى إلا مجىء كامل زهيرى ، وكان نقيبا للصحفيين العرب ، كما جاء محمد الخواجه ، وكان وزيرا فى دولة الوحدة . وعشت أيامى فى طرابلس مع الخواجه وزهيرى ، ومرت عشرة أيام قبل أن أذهب لأتناول العشاء مع العقيد ، وكان اللقاء فى هذه المرة فى منزله .

والحق أقول أن المنزل الذى دخلته كان بسيطا للغاية ، فأثاثه متواضع ، وهو بشكله ورسمه وبما يحتويه ، لايزيد على منزل موظف مصرى فى درجة مدير ، وفوجئت بوجود عشرين ضابطا من ضباط الجيش كلهم شباب . وفوجئت أيضا بأن الكلفة بينهم وبين القذافى مرفوعة كانوا ينادونه باسمه مسبوقا بلقب أخ ، يتناقشون معه فى كل شىء وبصراحة كاملة ، وعندما جاء العشاء ، دخل طباخ نوبى يرتدى بنطلونا وقميصا ، ويلف فوطة حول وسطه ، ولم يكن العشاء إلا صنفا واحدا هو الفاصوليا وعدة قطع من اللحم وخبز جيد الصنع .

وسألت الذين حضروا العشاء معى . ألا يوجد سلاطة فى ليبيا؟ وضحك العقيد القذافى ونادى على السفرجى وأمره باعداد طبق سلطة للعبد لله ،

وتلقى السفرجي الأمر ببرود وامتعاض أيضا فقد كان يبدو عليه الاجهاد الشديد ، وتأكدت لحظتها أنه هو الذى أعد العشاء ، وأنه هو الذي قدمه أيضا ، وانصرف الضباط فى منتصف الليل ، وبقينا وحدنا ، العقيد القذافى والوزير محمد زوى ووكيل وزارة الخارجية اسمه ابراهيم بجاد ، وهو شاب ليبى ، كان زميلا للعقيد فى المرحلة الثانوية .

وسألنى العقيد عن أصول المجلة التى أحلم باصدارها وناولته ماكيت مجلة «كلمة ونص» كما اتخيلها ، وبدا السرور الشديد على وجه العقيد ، ولكن السرور بدأ يختفى شيئا فشيئا كلما قلب العقيد صفحة من صفحات المجلة ، ويبدو أنها لم تعجبه ، فقد كانت مجلة ضاحكة ساخرة ، ولم تكن السياسة غايتها ، ولكن هدفها كان نقد الحياة اليومية للمواطن العربى فى كل مكان ، وما يلقاه من صنوف الكبت والارهاب والاحباط على يد جميع النظم والحكومات العربية بلا استثناء!

وقال لى العقيد وهو يناولنى الماكيت : ولكنها مجلة هزلية ، وأجبته على الفور : وهى صناعتى يا سيادة العقيد ، فأنا لست قائدا سياسيا ولا زعيما شعبيا ، وإنما أنا مجرد كاتب ساخر مهمتى الوحيدة التريقة على الأوضاع الخاطئة ، والسخرية من الظروف التعيسة ، وبلورة هموم الشعب فى جملة ساخرة ، أو نكتة عنيفة .

وخرج العقيد عن الموضوع وسألنى بهدوء ، وكيف أحوالك فى لندن ، قلت : على مايرام ، وسألنى عن هالة وأحوالها ، ورويت له قصة حضورها الى لندن ودخولها المستشفى ، وقلت فى سياق الحديث ، ان تكاليف الحجرة

مائة وعشرين جنيها فى اليوم غير العمليات وأجر الطبيب ، وقال العقيد : لاتهتم ونظر الى الوزير محمد زوى ، وقال له : اكتب قرارا بعلاج هالة على نفقة مجلس قيادة الثورة ، وشكرت العقيد ، ثم قال بعد علاج هالة سأكون فى انتظارك هنا ، وقلت : إن شاء الله . ونهض العقيد ، ونهضنا ، وصافحته ونحن نقف فى الفناء الخارجى وتركنا وانصرف فى اتجاه آخر داخل الفناء .

وخرجت مع ابراهيم بجاد الذى تطوع بتوصيلى الى فندق الشاطىء ، وقلت لابراهيم بجاد ونحن وقوف على باب الفندق يا ابراهيم ، أرجو متابعة قرار هالة فلم يعد معى إلا خمسمائة جنيه استرلينى ، وعلاج هالة سيطول ، وأرجو أن يصدر القرار فى مدة لاتزيد على ثلاثة شهور ، وقال ابراهيم ، متى تكف عن التشنيع عنا؟ وقلت : أى تشنبع تقصد؟ قال : القرار سيكون عندك فى خلال اسبوع ، قلت ياعم ابراهيم انك متفائل أكثر من اللازم ، وأنا أكثر منك خبرة بالروتين العربى ، وبتعقيدات الموظفين العرب . أرجوك ، أن تبذل جهدك حتى لا يتأخر القرار أكثر من ثلاثة شهور ، وقال ابراهيم ، أنت متشائم بدرجة مؤلمة .

وراح يحكى لى عن سرعة الاجراءات فى ليبيا ، وعن كفاءة الانجاز بعد الثورة ، كان يحكى مؤمنا بما يقول وارتسمت على وجهه آثار الراحة النفسية التى يشعر بها فى الأعماق ، وقلت له مازحا بعد ان انتهى من حديثه عن جنة الثورة العربية وعن مستقبلها الزاهر المضىء ، تعرف يا ابراهبم أنت عامل زى إيه؟ بدت الدهشة على وجه ابراهيم وهو يسألنى زى إيه؟ قلت زى جدى الشيخ خليل وهو رجل عبر العام المائة من عمره المديد ، ولديه حتى الآن

الرغبة فى عمل كل شىء ، ولكن المأساة أنه ليس لديه القدرة فى عمل أى شىء! وضحك ابراهيم ضحكة قصيرة وقال ، الأيام بيننا أو بينما! على رأى الكحلاوى رحمة الله عليه ، وفى الصباح كنت أغادر ليبيا الى لندن ، ودخلتها هذ المرة كالأسد ، لأنه فى يوم فى شهر ، ربما فى خمسة شهور ، سيأتينى قرار الثورة الليبية بعلاج هالة فى لندن!

جُحا .. والسلطان

عــشت شـهـرا فى لندن بلا قلق وزعت وقتى بـيــن زيـارة هــالــة فــى المسـتـشـفى والتـردد على دار الإذاعة البريطانية لقضاء السهرة مع الصـديق ادجـار فـرج والصـديق الطيب صــالـح ، وبين الحـين والحـين كنت أقــوم بالاتصال بالسفير محمود المغربى سفير ليبيا فى لندن ، استفسر منه عن آخر الأخبار ، أقصد أخبار القرار الثورى الجماهيرى الخاص بعلاج هالة ، وفى كل مرة كان السفير يعتذر بأدب ، وبالرغم من ذلك لم أشعر بأى قلق ، فكنت أعلم أن الملك السنوسى ترك ليبيـا بدون جهـاز حكومى على الاطلاق وان انجاز معاملة صغيرة فى ليبيا قد يستغرق أسبوعا ، بسبب التعقيدات التركية والايطالية والتركية البدوية ، وعدم وجود كوادر ادارية ، وبالرغم من ان إدارة المستشفى بدأت تطالبنى بتسديد الفواتير بعد أسبوعين فقط من دخول هالة لكنها لم تلح ربما لأنها لم تتصور أننى مفلس تماما ، وأغلب الظن أنها تصورت أننى مشغول فى أعمالى الواسعة ، منهمك فى عملى الصحفى الذى لابد أنه يعطى قارات العالم الخمس! ولذلك لم تلح فى الطلب ، وإن كانت ظلت مواظبة على ارسال الفواتير فى مواعيد محددة .

وخلال هذا الشهر الذى عشته بلا قلق على أمل صول النقود لعلاج هالة من طرابلس الغرب ، اكتشفت تغييرا خطيرا حدث فى تركيبة العبدلله ، فأنا والحمدلله أغضب ولا أكره ، وأثور ولا أحقد ، وقد أقاتل صديقى فترة ولكنى أعود بعدها أصفى وأنقى . فقد حدث أن دخلت ذات مساء نادى الاذاعة البريطانية فإذا بصديق قديم يعترض طريقى وقد مد ذراعيه فى شوق ولهفة . ولكنى نظرت نحوه نظرة باردة ، ثم انحرفت عن طريقه ، ومضيت الى غايتى دون أن أتجاوب مع صرخاته التى ظلت تلاحقنى وأنا أسرع الخطى ، وفى الواقع لم أجد فى نفسى أية رغبة فى الحديث معه أو التطلع إليه ، لقد سقط من نفسى نهائيا ، وأصبح بالنسبة لى جثة هامدة ، وإن كان يتحرك ويسلك سلوك الأحياء .

وأصل الحكاية أننى فى عام ١٩٦٧ كنت فى زيارة خاطفة الى لندن ، وجاء صديقى هذا لتحيتى ومعه عدد آخر من أصدقائه وقبل أن تبدأ السهرة عرض على صديقى مشكلته ومشكلة أصدقائه وتتلخص فى أنهم كانوا على خلاف مع حكومة عبدالناصر فى وقت من الأوقات ، ولكنهم بعد هزيمة ١٩٦٧ أعلنوا جميعا وقوفهم الى جانب حكومة مصر ، وأصابهم من جراء ذلك ضرر شديد لأنهم يعملون فى لندن وفى دار الاذاعة البريطانية الموجهة للشرق العربى ، ولأن موقفهم لم يكن من خلال تنظيم سرى ، ولكنه كان موقفا علنيا وعمليا ومفيدا ، لأنهم تبنوا وجهة نظر مصر فى تعليقاتهم الاذاعية مما حدا بحكومة اسرائيل الى الاحتجاج لدى الحكومة البريطانية على الموقف العدائى تجاه هؤلاء الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزانة البريطانية ، وقال

صديقى وهو يصل بالمشكلة الى الذروة ، إنهم عندما ذهبوا الى السفارة المصرية فى لندن لتجديد جوازات سفرهم المصرية ، رفضت السفارة تجديد الجوازات ، واعتذرت لهم بأن عليها أن تسأل القاهرة أولا ، وبالرغم من أنهم ترددوا بعد ذلك على السفارة أكثر من مرة كانوا فى كل مرة يتلقون جوابا واحدا ، هو ان السفارة سألت ، ولكن القاهرة لم ترد. وبالفعل وجدت نفسى امام موقف مأساوى ، فلا ينبغى أن يجرد مواطن من جنسيته بسبب موقف سياسى أو لأى سبب من الأسباب مادام لم يصل به الحال الى حد الخيانة أو الانضمام الى جيش الأعداء ، وأبديت اهتماما شديدا بالموضوع ، واتصلت بالقنصل المصرى العام فى لندن ، الأستاذ جمال شعير السفير بوزارة الخارجية ، وأبدى الرجل اهتماما عظيما بالموضوع ، وبعد أسبوع واحد ، أقام القنصل العام حفلا فى منزله لتكريم هؤلاء المصريين ، وقام بتجديد جوازات سفرهم ، وأعطاهم جميعا أرقام تليفوناته فى المكتب وفى المنزل ، بعد ذلك طلب الى صديقى أن أسعى له لدى المسئولين فى القاهرة كى يعود الى القاهرة بشرط أن يتبوأ منصبا يليق بمؤهله وخبرته فى مجال الاعلام ، وبالفعل اتصلت فى القاهرة بالسيد محمد فايق وزير الاعلام وعرضت عليه الأمر ، وعرضت الموضوع أيضا على السيد شعراوى جمعة أمين التنظيم ونائب رئيس الوزراء الذى وعد هو الآخر بدراسة الموضوع وعرضت الموضوع أيضا على الأستاذ فريد عبدالكريم فقد كان هو الآخر صديقا لصديقى أيام الصبا والشباب.

وعندما أبلغنى الوزير محمد فايق بأن قرار تعيين صديقنا هذا مديرا عاما بمصلحة الاستعلامات فى طريقه الى التوقيع بادرت بالاتصال بصديقى

فى لندن ، وطلبت إليه الحضور فورا الى القاهرة ليكون مستعدا لتولى منصبه الجديد ، وبالفعل حضر صديقنا وكان أول شىء طلبه من العبدلله عند زيارته لى فى مكتبى بروزاليوسف هو صرف مبلغ خمسمائة جنيه له مقابل رواية قام بترجمتها من الانجليزية لنشرها على حلقات فى مجلة صباح الخير . وقال إنه شديد الحاجة الى هذا المبلغ لأنه جاء من لندن بلا نقود .

وبالفعل أمرت بصرف المبلغ له ، واكتشفت بعد ذلك أنه لم يترجم شيئا ، وأنه كرر نفس الفعلة مع دور صحفية أخرى فى القاهرة ، المهم اننا خلال وجوده فى القاهرة ، قمت باستعجال صدور قرار تعيينه واتصلت بعدد من الوزراء المختصين تليفونيا ، ولكن الأيام لم تمهلنى حتى صدور القرار ، فقد أطيح بنا جميعا يوم ١٥ مايو ، وتصور رئيس النيابة أثناء التحقيق أننا استدعيناه من لندن للاشتراك معنا فى المؤامرة المزعومة ، ولكنه اقتنع بروايتى التى قررتها فى التحقيق ، والتى ذكرت لكم تفاصيلها الآن .

المهم ان (صديقى) إياه جلس على قهوة ريش بعد ساعات قليلة من القبض على العبدلله ، وراح يلعن سنسفيل جدودي متهما إياى بتهم أهونها كفيل بتقديمى الى حبل المشنقة ، وأعتقد أننى فى حاجة الى سؤال عالم نفسى ليشرح لى أبعاد هذه النفسية الغريبة ، رجل وقفت معه فى محنته ، ولكنه فى محنتى استل سكينا وانهال تقطيعا فى جثتى ، كيف؟ ولماذا؟ ليس عندى جواب لهذه الأسئلة إلا اعراضى عنه عندما رأيته ، واحساسى بالقرف عندما وقع بصرى عليه .

وبالرغم من أنى رأيته بعد ذلك أكثر من مرة فإن شعورى نحوه لم يختلف ، وأدركت أنى تغيرت وأصبح هذا التغيير هو صفتى الأصيلة الآن ،

واتخذت نفس الموقف بعد ذلك مع كل الذين تصرفوا معي بنذالة ، وبعضهم مع الأسف عرفته منذ نصف قرن من الزمان .

المهم أنني وبعد مضي شهر كامل ، بدأ الفأر يلعب في عبي كما يقول المثل ، ورأيت أن الأتصال التليفوني بالسفير محمود المغربي لن يجدي ، فقررت الذهاب إليه في مكتبه بالسفارة ، واستقبلني الرجل بترحاب شديد ، وقال لي ورنة صوته تحمل معاني كثيرة ، لقد اتصلنا بطرابلس بكل الوسائل ، بالخطابات وبالتليفونات وبالتلكس ، ولكن طرابلس لم ترد ، وعلى كل حال ، فسأحاول الاتصال من جديد ، ولكن أرجوك لا تتعجل الأمر ، وحاول الاتصال بي مرة كل أسبوع ولكن إذا جاءني خبر جديد فسأتصل بك على الفور .

وعندما نهض يودعني توقف السفير عند منتصف الغرفة ، وقال وهويمسكني من كتفي ، انصحك للخلاص من هذه الأزمة ، ان تتصل بالأخ سليمان جرادة مستشار السفارة فله اتصالات خاصة بطرابلس وقد يستطيع انجاز هذا الأمر في أقصر وقت ، ووعدت السفير بالاتصال بالأخ سليمان ، وودعته وانصرفت ، وأغرب شيء أنني عندما اتصلت بالمستشار سليمان جرادة ، نصحني بعدم الاتصال بالسفير ، وأوحت كلماته الهامسة بأنه ربما كان اتصالي بالسفير هو سبب تعثر صدور القرار حتى الآن .

*****

على مدى شهرين في لندن ، كانت جيوب العبدلله قد أصبحت «أنضف من الصيني بعد غسيله» ، بعدها لجأت الى الصديق الأديب الطيب صالح ،

وكان وقتها يشرف على المنوعات بالقسم العربى بالاذاعة البريطانية ، وكتبت عدة برامج اذاعية سلمتها للطيب صالح ، وسلموني ثلاثمائة جنيه استرليني أجرا عنها ، وخرجت من دار الاذاعة وأنا أشعر بأنني أغاخان العصر ، وبالرغم من هذا الثراء المفاجيء الذى هبط على العبدلله فإنني لم أقطع الاتصال بالمستشار الليبى وفى كل مرة كان يعتذر عن عدم ورود أخبار من طرابلس الغرب ، ولكن وضعى الاجتماعى الجديد كثرى أمثل اهتز كثيرا بعد ان تبخرت الثلاثمائة جنيه التى قبضتها من الاذاعة البريطانية واضطررت الى الاعتكاف فى الفندق وممارسة عادة أمقتها بشدة ، وهى كتابة الخطابات للأصدقاء ، فأنا أفضل رؤية الأصدقاء ، وأرفض أسلوب المراسلة واعتقد ان الرسائل وسيلة اتصال ، عندما كان البغل هو وسيلة المواصلات ، أما فى عصر السيارة والطيارة والقطار ، فلم يعد صعبا لقاء الأصدقاء فى أى مكان ، ولكن فى هذه الأزمة شعرت بأننا عدنا الى عصر البغل ، وقضيت عدة أيام أكتب الرسائل لجميع الأصدقاء ، لم أرسل خطابا واحدا لصديق من أصدقائى فى مصر ، لسبب بسيط ، هو أننى كنت أطلب عونا ماديا من النوع الذى يطلقون عليه وصف العملة الصعبة ، ووضعت أمامى خريطة العالم العربى من طنجة الى أبوظبى ، وكتبت رسائل تلغرافية كثيرة ، وكانت كلها بصيغة واحدة كأنها استغاثة «اس . او . اس» التى ترسلها السفن عندما توشك على الغرق .

كان الخطاب يبدأ هكذا (صديقى فلان . . هالة فى المستشفى وأنا محتاج الى فلوس لا أطلب كثيرا اى فلوس تتيسر لك ابعث بها على الفور وشكرا) ومر اسبوعان قبل ان تبدأ الرسائل فى العودة الى . كانت اول رسالة من زكريا

الحجاوى ارسل للعبد لله مائة جنيه استرلينى ، تسلمتها من البنك ثمانية وتسعين جنيها فقط ، وأرسل الى الصديق فؤاد مطر مائتى جنيه ، ومائة جنيه من طلال سليمان ، وألف دولار من أمين الأعور ،

وبدأت اوداجى تنتفخ من جديد ، وعاد الى شعور بأننى أغاخان آخر الزمان! كان قد مضى على وجودى فى لندن اربعة شهور ، كانت كل المبالغ التى وصلتنى من الخارج ، قد بلغت الفا ومائة جنيه استرلينى لاغير ، وكان المستشفى يطالب بعشرة آلاف وسبعمائه جنيه قيمة إقامة هالة وثمن الدواء ، أما أجر العملية التى أجريت ، فقد كان لها حساب آخر .

وأصابنى احباط شديد ، وأسودت الدنيا فى عينى ، وقضيت الليل بطوله أفكر فى طريقة للخروج من الورطة ، وفى الصباح توصلت الى قرار هو الجنون بعينه ، لقد قررت قطع علاج هالة واعادتها الى القاهرة بعد تهريبها من المستشفى ، وكتمت الخبر عن كل الاصدقاء الذين كنت أتردد عليهم فى لندن ، ولكى ارضى ضميرى ، ذهبت لمقابلة الطبيب ، وهو احد عباقرة طب العظام فى العالم ، وهو اعظم خبير على ظهر الكرة الارضية فى مرض شلل الاطفال ، واسمه دونالد بروكس ، وهو الذى تولى علاج هالة منذ البداية فى عام ١٩٦٣ على وجه التحديد .

وأصل الحكاية أننى قد أخذت هالة الى لندن فى ذلك العام لعلاجها عند طبيب اسمه اوسمان كلارك . وكان الاطباء فى القاهرة قد اجمعوا على ان الدكتور كلارك هو العمدة فى مرض شلل الاطفال . وان شفاء هالة سيتم على يديه ، وسافرت الى لندن وقتئذ وليس فى جيبى الا خمسمائة جنيه انجليزى

هى كل ما استطعت تدبيره لعلاج هالة والاقامة والفسحة فى بلاد الانجليز ، وشراء ما يلزم ايضا من ملابس صوف وكشمير .

وتصورت وأنا فى الطائرة فى طريقى الى لندن ان ملكة انجلترا ستكون فى استقبالى فى المطار باعتبارى احد اثرياء العالم ، وباعتبارى موردا هاما لانعاش الاقتصاد البريطانى الذى يعانى الاضطراب ، وبحثت عن غرفة خالية فى حوارى لندن ، وعثرت على واحدة فى حجم زنزانة القناطر الخيرية ، ومجاورة لحجرة شبيهة كان يقطن بها النجم ، السينمائى محسن سرحان ، وكان الايجار خمسة جنيهات اسبوعيا ، ولذلك نفخت من شدة الغيظ وعلى طريقة عمنا الجبرتى يا باسط الارض والسماء نجنا من هذا الغلاء .

وعندما سألت عن الدكتور اوسمان كلارك ، اكتشفت انه اعتزل الطب وأنه تجاوز ، التسعين من العمر ، وانه يقضى اوقات فراغه فى زراعة قطعة ارض صغيرة يملكها فى ضواحى لندن ، ولكنى صممت على لقائه ، وذهبت اليه مع الدكتور صلاح خاطر ، وهو طبيب مصرى كبير يقيم فى لندن منذ اربعين عاما ، وكان يمارس الطب وله عيادة فى شارع الاطباء الشهير ، شارع هارلى فى لندن .

وتطوع الرجل الكريم بالذهاب معى ليقوم بالترجمة بينى وبين الطبيب ، اوسمان كلارك ، كان الرجل عجوزا وضعيفا ، ولم يبق فيه شىء من الزمن القديم إلا علمه الغزير وقوة إبصاره وفحص هالة مجانا وقال فى لهجة قائد جيش يصدر أوامر لعساكر وقعوا فى ورطة رهيبة ، قال وهو ينظر من خلف نظاراته اذهبوا الى دونالد بروكس ، انه خليفتى النابغة ولا أحد يستطيع علاج

هذه الحالة إلا هو ، انه فى هارلى استريت وعنوانه فى دفتر التليفون وسأتصل به ليحدد لكم موعدا .

وذهبت الى بروكس فى اليوم التالى واكتشفت انه فى الخمسين من العمر ، قوى البنية ، ويتكلم بعض الكلمات العربية ، فقد سافر الى القاهرة عدة مرات ، وقضى فيها شتاء كاملا ، وفحص هالة وقال وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح هذه اصابة جسيمة ، ستحتاج الى عشر عمليات على الأقل وستمشى على قدميها ، ولكن بعد أن تبلغ السابعة عشرة ، وحاولت أن أناقشه ، فصدنى بحزم ، وقلت فى نفسى ما أشبه بروكس معى بجحا والسلطان ، فقد استدعى السلطان جحا لتعليم الحمار المنطق والبيان ، وقال جحا للسلطان ، يحتاج الحمار الى خمس سنوات ليصبح كاتبا ولا ابن العميد ، شاعرا ولا البحترى ، لغويا ولا ابن منظور !! وطلب عشرة آلاف دينار من السلطان كعربون للاتفاق ، وعندما خرج جحا من حضرة السلطان ، سأله أصدقاؤه ، كيف تغامر بحياتك؟ وأنت تعلم أن الحمار سيصبح (أحمر) بعد خمس سنوات ، فقال : فى خلال خمس سنوات سيتم حل للمشكلة ، فإما أن يموت الحمار أو أموت أنا أو يموت السلطان .

ولكن سرعان ما تبدد هذا الخاطر من نفسى عندما لمحت الدكتور بروكس يعرج وهو يودعنا الى خارج العيادة ، فسألته بجليطة شديدة ، هل هى حادثة؟ فقال : لا ، انه شلل اطفال . لقد كنت مثل هالة تماما ، وسألته بلهفة ، وهل هالة تصبح مثلك تماما؟ وأجاب ببساطة شديدة ، نعم بالتأكيد ، وسلمت أمرى الى الله والى الدكتور بروكس منذ تلك اللحظة . وعندما ذهبت للقائه

بعد أن قررت قطع علاج هالة فى لندن ، كان قد مضى على لقائى الأول به ثلاثة عشر عاما ، شاب فيها شعر رأسه وبدت عليه الشيخوخة ، وتغيرت فيها أنا أيضا ، فقدت شعرى وعملى وبلدى أيضا ، وهآنذا وحيد مفلس يائس فى لندن وفى ورطة لا يقدر على حلها إلا الله .

كان الدكتور بروكس هادئا واثقا بنفسه كالعادة وكان عندما استقبلنى قد فرغ من عمله بالعيادة الكائنة فى هارلى استريت وكان الاجهاد واضحا عليه ، فهو من هذا النوع من الأطباء العظام يقتل نفسه فى اكتشاف ما يريح مرضاه ، ولم يكن مرضاه من صنف واحد ولأنه طبيب عظام فى الأصل فقد كان المئات يترددون على عيادته الأنيقة كل يوم . محاربون تحطمت عظامهم فى المعارك ، وأطفال أبرياء أصابهم الشلل ، وسيدات أنيقات معطرات من سلالة البارونات واللوردات العظام الذين حكموا ريف انجلترا وتحكموا فيه خلال عدة قرون ، وكان على مستر بروكس أن يرضى الجميع ، ولكن اهتمامه كان موجها على نحو خاص للجنود البواسل الذين هشم الرصاص هياكلهم العظمية .

والسبب ان مستر بروكس كان جنديا فى الأصل يعمل حتى الآن مستشارا طبيا للقيادة العامة لسلاح الطيران . وهو قد سافر كثيرا الى مصر لفحص كسور الجنود والضباط الذين أصيبوا فى المعارك ، وزار عبدالناصر مرة فى مهمة طبية وقام بزيارات متعددة لدول الخليج وله اصدقاء كثيرون فى بلاد العرب وهو متزوج من سيدة انجليزية ارستقراطية وله أربع بنات وهو غنى ويعيش عيشة طيبة ويقضى أجازته الصيفية دائما فى أسبانيا . . وأجازته الشتوية فى أحد بلاد الشرق .

وبالرغم من هذا النجاح والحياة السعيدة التى يحياها فقد وجدته مهموما الى حد بعيد.

وبالرغم من أنه لا يقدم مشروبات لزائريه فى العيادة فقد خالف العادة هذه المرة وطلب لنا شايا وبعض الحلوى وجلس يحكى كيف أنه بعد انقضاء هذه السنين الطويلة لم يحقق شيئا مذكورا. صحيح انه اكتشف طريقة جديدة لعلاج شلل الأطفال وذلك بالاعتماد على العظام وارتكازها بعضها فوق بعض واستخدامها فى الحركة عوضا عن العضلات الميتة. وصحيح أن هذه الطريقة حققت نجاحا باهرا بنسبة ٨٠٪ ولكنه كان يأمل فى اكتشاف المزيد فى هذا المجال، ونظرا لأنه مربوط بالعيادة أغلب الوقت فهو لا يجد وقتا آخر يقضيه مع بحوثه وإبداعاته الطبية.

مثلا- هكذا قال- لو أننى وجدت الوقت لتمكنت من الوصول للجراحة التى تعتمد على العظام الى نجاح بنسبة مائة فى المائة، ثم سكت برهة وقال: على فكرة، انها الطريقة التى نتبعها مع هالة وأعتقد أنها ستحقق نجاحا باهرا فى نهاية الأمر.

والتقطت الخيط من المستر بروكس وسألته: كم عملية تحتاج إليها هالة الآن؟ وأجاب بروكس: لقد أجرينا لها عملية وهى فى الجبس الآن، وأعتقد أن عملية أخرى نجريها فى الشهر القادم ثم عدة شهور فى الجبس- ستكون كافية وبعدها سنرى. قلت للمستر بروكس وأنا أحدق فى عينيه بطريقة ربما أفزعته، هل تعتقد أن هالة ستكون قادرة على المشى بعد هذه العملية القادمة؟ وقال المستر بروكس فى هدوء اعتقد نعم، قلت له: هل أنت واثق؟ قال بنفس

الهدوء أظن ذلك . . أعدت عليه السؤال وبطريقة وقحة : هل أنت واثق . . واثق . . واثق؟ وكررت الكلمة ثلاث مرات ، وفجأة انفجر الرجل الهادىء فى ثورة شديدة وفى غضب أشد ماذا تعنى بكلمة واثق واثق واثق؟ أننى لست الها ولا نبيا ، انا مجرد طبيب أحاول وقد أنجح وقد أفشل ولكن حساباتى تقول أننى سوف أنجح مع هالة ، ولكن حساباتى قد تخطىء فما الذى ينبغى على أن أفعله؟ ثم إذا كنت لا تثق بى بما فيه الكفاية فخذ هالة واذهب بها الى أى طبيب آخر .

وبذلت جهدا كبيرا لتهدئة المستر بروكس وبدأ يهدأ عندما شرحت له القضية بالتفصيل وكيف أننى عاطل ومفلس وأن مكافأتى عن عملى الذى أفنيت فيه حياتى تبددت تماما بعد أشهر قليلة فى لندن ، وصمت الطبيب الانجليزى فترة ثم قال : لن أتقاضى منك أجرا عن العمليات التى قمت بها أو سأقوم بها فى المستقبل وسأجرى العملية لهالة فى الشهر القادم وسأفك الجبس بعد خمسة أشهر وأرجو أن تنهض هالة سائرة على قدميها .

وشكرت الدكتور الانجليزى على انسانيته وعلى شهامته ولكنه قاطعنى قائلا : لا أستحق منك أى شكر فأنا سأجرى العملية ليس من أجل هالة ولكن سأجريها لأبرهن لنفسى على صحة نظريتى .

ونهض بروكس وصافحنى مودعا . . وتركت العيادة وأنا أكثر حيرة مما دخلتها ، فأجر الطبيب ليس هو المشكلة فلن يتعدى أجره ألفا وخمسمائة جنيه استرلينى بأى حال من الأحوال وهو مبلغ تافه يمكن جمعه حتى لو اضطرتنى الظروف الى الوقوف على ناصية شارع اوكسفورد اسأل الخواجات حسنة

لكاتب على باب الله ينتسب لأمة من أغنى أمم الأرض. ولكن المشكلة الحقيقية في فاتورة المستشفى وسيقترب المبلغ من أربعين ألف جنيه استرليني ، وهي مشكلة لا أعرف لها حلا ، لو كانت أسواق العبيد قائمة كما كان العهد بها في سمرقند وبغداد والقاهرة لذهبت وعرضت نفسي في هذه الأسواق على السادة المماليك وقادة الألف والمائة والعشرة وأصحاب الطبلخانات والبيرقدارات مهرجا في قصر ، مضحكا في حاشية ، كذاب زفة في غزوة ، أي فاتورة وأي مهنة مقابل دفع فاتورة المستشفى ولكن هذه الأسواق للأسف الشديد اندثرت مع غيرها من معالم العصر القديم ما العمل اذن؟ وأين المفر؟

صديقي الطبيب إدجار فرج نصحني بالانتظار والصبر ، والبعض قال سيأتيك الرد من طرابلس في يوم ما لا تقلق فأمامك شهور طويلة في لندن حاول خلالها أن تفكر في طريقة للخروج من المأزق. كانت كلمات الأصدقاء متشابهة كلها لأنها كانت تحمل نوايا طيبة ولكنها لا تقدم حلا. وفي الواقع لم يكن هناك أي حل.

ولكن لماذا لم يحقق العقيد القذافي وعده ، لماذا لم يأمر بعلاج هالة المشلولة؟ وهي مسألة لن تكلفه أكثر من إصدار أمر ، ورحت استعرض شريط مقابلاتي مع السيد العقيد لعلي أعثر على السبب الذي جعله يتخذ هذا الموقف الغريب ، تذكرت أنه سألني مرة هل في نيتك اصدار كتاب عن السادات؟ وأجبت العقيد بصراحة شديدة : لم أفكر في هذا الأمر حتى الآن ولكن يجوز التفكير فيه في المستقبل فأنا لا أريد أن أهاجم الرئيس السادات الآن . .

ويبدو أن كلمة أنا التي سبقت حديثي أغضبت العقيد ، فهل غضب العقيد من هذا الموقف؟ هل كان ينتظر كتابا مني ضد أنور السادات في تلك الأيام التي

احتدمت فيها المعركة الكلامية بينهما؟ من يدرى؟ ربما لا شىء هناك على الاطلاق سوى الروتين المعقد فى ليبيا وخمول الجهاز الوظيفى الذى ورثه القذافى من عصور الاستعمار والاستسلام وقد يأتى الفرج فجأة وقد لا يأتى على الاطلاق ، لقد وجدتها وصرخت كما صرخ الفيلسوف اليونانى ذات يوم بعيد!

*****

هدأت نفسى عندما وصلت الى الحل السعيد ، بروكس لن يتقاضى أجرا عن العمليات وسأماطل المستشفى الى ان تنتهى هالة من فك الجبس ، ولتكن النتيجة كما يشاء الله ، تسير هالة على قدميها أو تزحف على ركبتيها كما كانت ، فى الحالتين سأتركها فى المستشفى وليكن ما يكون ، أنهم لن يأخذوها أسيرة وأقصى ما فى ايديهم أنهم سيقدموننى للمحاكمة قد يكون بتهمة النصب أو بتهمة الفقر ، وأيا كانت التهمة التى سيوجهها القضاء الانجليزى للعبدلله فستكون هذه المحاكمة شاهدا على العصر . ولو أننى أخذت جنيها استرلينيا من كل مقامر عربى فى نوادى لندن ، اذن لجمعت حصيلة تكفى لعلاج كل المشلولين فى العالم العربى ، ولو أننى أخذت جنيها من كل «متبضع» من شارع اوكسفورد وريجينت وبيكاديللى لأقمت عشرة مستشفيات فى أوربا لعلاج العرب الفقراء ولكن ما باليد حيلة فلتعالج هالة أو لا ثم فليأت الطوفان بعد ذلك .

وبدأت الحياة تستقر بى فى لندن ، ترك لى صديقى نور السيد شقته فى (سيل بليس) وهو جميل يطوق عنقى ماحييت ، وكان هذا الموقف هو الذى

حال بينى وبين اتخاذ أى اجراء ضده خلال الظروف الأليمة التى مرت بعلاقتنا أثناء وبعد صدور مجلة ٢٣ يوليو . كانت الشقة مريحة وكان نور يصر دائما على ألا أدفع بنسا واحدا من ايجارها ، ورفعت عنى تكاليف الفندق ووفرت لى أجر المواصلات فقد كانت وسط المدينة وعلى مقربة من مستشفى هالة .

ومرت الأيام سريعا ثم بدأ القلق ينهش قلبى عندما اقترب الموعد الذى حدده الطبيب لفك الجبس عن هالة . وخلال هذه المدة الطويلة التى انقضت على لقائى بالدكتور بروكس كنت دائم الاتصال بمستشار السفارة الليبية فى لندن بالتليفون للسؤال عما تم فى مسألة هالة ، وفى كل مرة كان الاعتذار هو الرد ، ولكن فى آخر اتصال تليفونى طلب الى المستشار الحضور الى دار السفارة ، وعندما وصلت الى هناك كانت الساعة الحادية عشرة صباحا ولم يكن المستشار وحده ولكن كان يجلس معه فى الحجرة شاب فى الثلاثينات ولم يكن هندامه يوحى بأكثر من أنه طالب يدرس فى لندن . وقدمه المستشار الى واكتشفت انه أحد رجال العقيد أصحاب السلطة والنفوذ فى ليبيا بالاضافة الى كونه من قبيلة القذافى ، وصافحت الشاب بفتور فقد كنت اسمع عنه كثيرا واسمع عن غزواته ومغامراته فى القاهرة وبيروت ولندن ، وكانت القصص التي تدور حوله تحمل حقائق كثيرة وخرافات كثيرة أيضا كما سبق لى أن رأيته مرة واحدة فى بيروت ولمدة دقيقة . فقد حدث أن اتصل بى أحد الأصدقاء من القاهرة وقال لى أن فنانا كوميديا شهيرا سيصل الى بيروت وانها المرة الأولى التى يغادر فيها القاهرة وطلب الى صديقى انتظار الفنان الشهير فى مطار بيروت وأن أبقى معه حتى يتمكن من الاتصال بأصدقاء له هناك .

وذهبت الى المطار واستقبلت الفنان إياه وذهبت معه الى فندق ستراند الذى أنزل فيه وأعطانى رقم تليفون فاتصلت بأصدقائه فوعدوا بالحضور فورا لاصطحابه الى حيث يريدون. وأخذتنى المفاجأة عندما اكتشفت ان صديقه هو هذا المسئول الليبى الكبير الذى جاء على عجل وباهتمام من فى طريقه الى فتح القدس ، وصافحنى السيد إياه ولم ينطق بحرف واحد ولكنه حمل حقائب الضيف واتجه معه مهرولا الى الخارج ، كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيته فيها من قبل وكانت المرة الثانية فى مكتب المستشار ودار الحديث بيننا- المستشار وأنا- دون أن أهتم مرة واحدة بالنظر اليه ، ويبدو أنه شعر بموقفى فاستأذن من المستشار فى الخروج ومضى دون أن يصافح أحدا منا.

وفى المقابلة أطلعنى المستشار على برقيات التلكس التى أرسلها الى طرابلس دون أن يتلقى أى رد ، وسألنى لماذا لا تخطف رجلك الى طرابلس لانهاء هذا الموضوع هناك؟ واعتذرت له بعدم استطاعتى مغادرة لندن فى الوقت الحاضر لأن موعد فك الجبس عن هالة قد اقترب ولابد أن أكون حاضرا تلك اللحظة التى انتظرتها سبعة عشر عاما طويلة وودعت الرجل وانصرفت.

فى الطريق الى شقتى اخترقت حديقة هايدبارك وكان الجو صحوا ومئات من الناس يملأون الحديقة ولكنى كنت فى واد آخر بعيد ، آه لو تمكنت هالة من السير على قدميها إذن سآخذها من يدها واخرجها من المستشفى الى شوارع لندن ومن هناك ، الى المطار وليغفر الله لى عملية النصب التى سأقوم بها على المستشفى ، ولكن ماذا لو أن هالة لم تنهض على قدميها؟ يا ضيعة الوقت والجهد والمال ، ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل أكثر مما فعلت؟ لقد تحملت كل شىء فى سبيل هذا الهدف وعانيت كثيرا من أجله.

واصطدمت فى طريقى داخل الحديقة بصديق ، وهو صحفى مصرى هاجر من القاهرة بعد عام ١٩٧١ وذهب الى لندن واشتغل فى غسيل الصحون وفى مطابخ المطاعم الصغيرة مع أنه كان فى القاهرة يعمل فى سكرتارية تحرير (آخر ساعة) ولكن يبدو أن الحياة فى مصر أصبحت مملة الى الدرجة التى يفضل فيها سكرتير تحرير مجلة محترمة أن يهجر عمله ليشتغل فى غسل الصحون فى بلاد الانجليز. ولم أكن قد التقيت بجلال إلا مرة أو مرتين فى القاهرة ولكنه كان من النوع الذى لا يسبب نفورا ولا يعقد صداقات عميقة ، ولذلك رحبت به عندما رأيته وراح يحكى لى ونحن نتمشى فى هايدبارك عن الظروف القاسية التى مر بها والأهوال التى عاناها ثم قال ولكننى أخيرا استطعت أن أتجاوز المحنة وقال إنه يعمل الآن بوظيفة مترجم بإحدى السفارات العربية فى لندن.

وعندما وصلنا الى طريق الملكة وفى اللحظة التى كنا فيها على وشك الافتراق فيها سألنى الأستاذ جلال سؤالا عابرا هل رأيت الأستاذ بهاء؟ قلت بهاء مين؟ قال أحمد بهاء الدين. . سألته هو هنا؟ قال: نعم وفى فندق تشرشل وفى حجرة رقم كذا. وودعت جلال وانصرفت. ولا أعرف لماذا ابتهجت كثيرا لأن بهاء فى لندن! كان فى هذا الوقت رئيسا لتحرير الأهرام ليثبت أنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح ، فقد حاربه بعض رجال الرئيس السادات وسلطوا عليه كاتبا عجوزا ، كان كاتبا من باب العشم فهاجمه هجوما شديدا وعف بهاء عن الرد عليه ثم فصلوه بعد ذلك من الصحافة وألحقوه بوظيفة فى الاستعلامات ولكنهم عادوا فصالحوه ليكتب فى الأهرام ليمنحهم جزءا كبيرا افتقدوه من الوقار والاحترام. وفى الصباح الباكر كنت فى فندق تشرشل أدق الباب على بهاء.

وحدثت المعجزة

استقبلني
بهاء ببرود شديد
كعادته دائما . قال :
أنه ســـأل عني في لندن
ولكنه لم يعرف مكاني وسألني
عن هالة وأحـوالهـا ، وشـرحـت له
الأمور كلها بأسلوب تلغرافي ، فقد كان
بهـاء على مـوعـد مع الطبيب المعالج . وكان
يشكو وقتئذ من مرض الضغط ، وحدد لي موعدا في
المساء ، ونزلنا معا هو الى الطبيب وانا الى شوارع لندن ،
وبهاء بالرغم من أنه من سنى ومن جيلى إلا أننى تعرفت به بعد
كـــامل الشناوى وقـــاسم وجـــودة ومـــصطفى أمـــين واحـــســـان
عـــبدالقـدوس . وتعـرفت عليـه أول مـرة فى مكتب كـامل الشناوى ، وأدهشنى تواضعه المهيب واطلاعه الواسع واهتمامه الشديد بكل ما ينشر على صفحات الصحف المصرية والعربية ، ثم عملت مع بهاء فى روزاليوسف ، واعجبنى اسلوبه فى الادارة . ولم اختلف معه قط رغم وجود نقط كثيرة ولكنه كان لا يسمح لأى خلاف ان يستفحل بيننا كمرؤوسين وبينه كرئيس .

أذكر مرة بعد توزيع العلاوات على كتاب ومحررى روزاليوسف ان احتج الجميع على منح احد الكتاب خمسين جنيها ، لأن الكاتب اياه كان لا يحضر

الى المؤسسة ولا يكتب حرفا في المجلة. وانتدبوني لمواجهة بهاء ومناقشته في هذا الأمر.

وذهبت الى بهاء فى مكتبه وفى نيتى أن اختلف معه وان ادخل معه معركة كلامية اذا لزم الأمر واستقبلنى بهاء لطيفا ظريفا هادئا، وجلس يستمع الى وجهة نظرى التى هى فى الوقت نفسه وجهة نظر الزملاء، وتحمست كثيرا وتهدج صوتى وانا أقول لبهاء (كيف تعطيه خمسين جنيها مكافأة وهو لا يكتب حرفا واحدا فى الجريدة؟) سحب بهاء نفسا عميقا من السيجارة. وقال لى بالهدوء نفسه (طيب ايه رأيك: أديله علاوة خمسين جنيها ولا يكتبش ولا ماأديلوش ويكتب؟) ووجدت نفسى أنفجر ضاحكا ونهضت وقبلت عمنا بهاء وقلت له وأنا انصرف (أرجوك من وجهة النظر هذه، امنحه مائة جنيه علاوة واشترط عليه الا يكتب حرفا عندنا).

واحببت بهاء واحترمته.. صحيح انه لم يعتقل ليوم يسجن ولكنه عانى كثيرا بسبب مواقفه المبدئية واقتناعاته السياسية.. ولم يتلون قط، ولم يضطر فى يوم من الايام الى كتابة حرف لا يؤمن به ولم يكسب من عمله الصحفى الا الهموم والقلق وقائمة طويلة من الأمراض.

أذكر أننى كنت اقضى السهرة فى بيت احد كبار الصحفيين بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ولم يكن حاضرا السهرة الا صاحب المنزل والرئيس أنور السادات ولم يكن وقتها رئيسا، لكنه كان مع حسين الشافعى نائبين للرئيس، وجاءت سيرة بهاء فى السهرة، وإذا بأنور السادات ينطلق كالمدفع الرشاش واصفاً بهاء بصفات ابعد ما تكون عن بهاء، وأنبريت للدفاع عن بهاء ولكن السادات

صرخ فى وجهى وعلى طريقة عمد الريف ونهرنى بشدة وقال لى بطريقته الخطابية (أسكت انت اصلك اهبل ، انت أهبل ياوله) ولم أذكر لبهاء ما حدث فى تلك السهرة فقد كنت أعلم يقينا ان عبدالناصر يحترم بهاء وكنت مطمئنا الى أن أحدا لا يستطيع ان يطول أحمد بهاء الدين ، ولم أذكر لبهاء ما حدث فى تلك السهرة الا بعد ذلك بعدة سنوات ، وبعد أن ترك بهاء موقعه فى الاهرام وغادر مصر كلها ، وعاش فى الكويت فترة من الزمان.

خرجت من فندق تشرشل وظللت اسير فى شوارع لندن على غير هدى ، كان موعدى مع بهاء هو أهم شىء فى الحياة. كنت كالغريق الذى عثر فجأة على جذع شجرة. وبقدر فرحتى بوجود بهاء فى لندن كان خوفى ايضا ، ماذا لو فشل بهاء فى حل المشكلة. أو فى ايجاد مخرج لها؟ أعوذ بالله لا استطيع أن أتصور ولا أستطيع أن أتنبأ بما سوف يتلو هذا الموقف من أحداث.

وقضيت اليوم بطوله اتسكع فى شوارع المدينة الجاحدة لا أحد فيها يشعر بك أو يهتم بأمرك ، مدينة منظمة ومخططة كأنها قطار سكة حديد يجرى على قضبان ويتوقف عند محطات معينة. إذا سقطت ميتا فسيهتم بك الحانوتى ، إذا ارتكبت جريمة فستهتم بك مصلحة السجون! ولكن الناس فى الطريق لن تتوقف لحظة عند جثتك ولن يستجيب أحد لاستغاثتك.

اين هذه المدينة من مدننا الصاخبة فى شرقنا السعيد؟ تصرخ فيلتف الشارع كله حولك ، تتعثر فيسرع اليك ألف عابر سبيل ، تسقط قتيلا فتصرخ المدينة كلها حزنا على شبابك. تقع فى مشكلة حقيقية لا أحد يقترب منك ، ولا أحد يعرفك.

وذهبت الى بهاء فى موعده ولفت نظرى شىء ما فى داخله ، لم يعبر عنه بالكلام ولكن عبرت عنه سحنته ، كان يرأس تحرير الاهرام ولكنه لم يكن سعيدا ربما كان حزينا على نحو ما ، وادركت من رنة الحزن فى صوت بهاء مدى التغيير الذى طرأ على المحروسة ، فإن أمنية كل صحفى خصوصا اساتذة المهنة مثل بهاء أن يصل يوما ما الى أرفع منصب فى بلاط صاحبة الجلالة وليس هناك ـ باعتبار ما كان ـ عرش فوق عرش الاهرام ، ولكنه بالرغم من ذلك ليس سعيدا بل لعله فى أعماقه كان يشعر بأسف ، كأنه مملوك عظيم وصل الى السلطة ولكن بعد أن طعنوه فى ظهره ، وفى جنبه ، وعندما وصل الى دكة السلطنة كان ينزف بغزارة ويعانى سكرات الموت ، وجلست مع بهاء استمع اليه يحكى تفاصيل مرضه ثم دعانى الى العشاء فى الفندق الكبير .

وفى طريقنا الى المطعم التقينا بالشيخ احمد السويدى وزير خارجية الامارات كان ينزل فى الفندق نفسه وقف معنا دقائق سألنى فيها عن الأحوال وقلت له (كل شىء عال والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، لقد سجنت وفصلت من علمى وهأنذا أعيش فى لندن ألعب القمار حتى الفجر وأنام حتى المغرب وأعيش عيشة مندوب سام بريطانى يحكم مستعمرة وسط الأدغال) وقال السويدى (ولماذا القمار؟ لماذا لا تحرص على ثروتك؟ وتصنع بها ما يفيد) وقلت ساخرا : (الحمد لله أمى أكرمها الله قامت بتهريب نقودها كلها الى الخارج وهى ملء خزائن عدة بنوك على امتداد القارة الأوربية من لندن والى لوزان . وضحك السويدى طويلا واستأذن منا فى الانصراف فقد كان على موعد مع سفير عربى فى لندن .

وخلال العشاء راح بهاء يستعرض جميع الحلول الممكنة ، اقترح ارسال خطاب للمهندس عثمان احمد عثمان ولكنى رفضت الفكرة ، فاقترح ان يفاتح الرئيس السادات فى هذا الأمر بعد عودته الى القاهرة ، ولم أستقر على رأى وودعته فى الحادية عشرة مساء وانصرفت على ان القاه بعد يومين ، ومر يوم فى اليوم التالى استيقظت مبكرا على صوت رنين التليفون يدق بالحاح وكان المتحدث هو بهاء وقال برقة شديدة (أبشر ، لقد انتهى موضوع هالة) ونهضت من فراشى مذعورا وهتفت (موش معقول! كيف؟) قال (بطريقة ابسط مما تتصور ، أسرع مما تمنيت قلت (طيب احكيلى ، طمنى ربنا يخليك) قال (سنؤجل الحديث فى هذا الأمر حتى تحضر الى) سألته متى؟ قال : سأغادر الفندق فى الحادية عشرة وتستطيع ان تحضر فى العاشرة وقفزت من السرير فى طريقى الى بهاء .

وفى الطريق الى بهاء ذهب خيالى الى الف مكان ، الى حيث تصورت ان حل المشكلة كان هناك ، لعل بهاء اتصل بالرئيس تليفونيا من لندن فرق قلب كبير العائلة على احد صعاليك القبيلة ، خصوصا ان كبير العائلة يكره العيب ويتمسك بأخلاق القرية ، ربما تحدث بهاء مع عثمان؟ ربما. ربما ولكن هل صحيح توصل بهاء الى حل للمشكلة؟ طرحت على نفسى هذا السؤال بالرغم من معرفتى الوثيقة ببهاء وتأكدى من أنه لا يمزح فى مثل هذا الأمر ولا يبالغ فى كل الأحوال .

المهم أننى عندما وقفت أمام بهاء فى الفندق نظر نحوى بمزيد من الدهشة والفرح وقال وابتسامته العذبة ترتسم على شفتيه . . ابسط ياعم فرجت ، قلت

وحدثت المعجزة

الحمد الله ، ولكن كيف ؟ . قال لقد جاء كل شىء بالصدفة . كنت اتعشى مع السويدى ليلة الأمس وجاءت سيرتك فى الحديث وشرحت له كل شىء عن هالة . فأصدر قرارا بعلاجها على نفقة الشيخ زايد ، حاكم ابو ظبى .

قلت لبهاء هكذا ببساطة؟ قال نعم هكذا ببساطة . وصمت فترة أخذتنى الدهشة والمفاجأة وان شئت الدقة أخذتنى الصدمة ، فجلست فترة صامتا على غير العادة ثم زفرت زفرة طويلة وقلت كأنى اخاطب نفسى ، أفلح ان صدق ،! وقال بهاء على الفور ولكن السويدى رجل صادق وهو مسئول ، وقادر هو اذا قال فعل . ولو لم اكن متأكدا لما أبلغتك بالأمر ، قلت : اعذرنى يا عم بهاء . . فرأسى يدور منذ فترة ولم أعد أعرف من أين والى أين؟! واذا كان القدافى رئيس الدولة قد وعدنى . ومازلت انتظر الوفاء بالوعد رغم مرور تسعة اشهر طويلة . قال بهاء وهو يستعد للانصراف ولكن السويدى شىء آخر مختلف .

وعلى باب فندق تشرشل وبهاء يستعد للذهاب الى الطبيب قلت له هل ذكرت لهم اسم المستشفى؟ قال سيقومون بالاتصال بك قريبا ، ربما غدا أو بعد غد . وسيحصلون منك على كل التفاصيل ، وستحل المشكلة كلها خلال أيام قليلة ، ثم قال وهو يدخل فى السيارة أذهب الآن وتنزه فى شوارع لندن وأخلع الكآبة التى ترتسم على وجهك وتصرف الآن كرجل يملك ارادته ويملك مصيره وحاول ان تعوض هالة ما فاتها خلال تلك الشهور . .

انطلقت سائرا فى شوارع لندن ، اصبحت خطواتى اسرع ومتعتى أكبر ورحت أحدق فى الفتارين وفى وجوه المارة ونزلت فى محطة الاندرجراوند ، وصعدت ثم دخلت بارا وخرجت ثم تذكرت أننى لم أفطر فاشتريت بعض

ثمار الفاكهة من بائع انجليزى ابن بلد سارح بعربة يد ، وعندما وقفت الى جوار العربة التهم ثمار الفاكهة سألنى الانجليزى عن البلد الذى جئت منه وعندما قلت من مصر انقلب الانجليزى الى شىء آخر وصاح مهللا ، كايرو ، اسمائيلية (يقصد الاسماعيلية) سويس فايد بكشيش ، جبت بياستر ، مألهش . ومد يده الى حبة خوخ ناضجة وقدمها الى فلما اعتذرت قال لا تعتذر ، هذه من اجل مصر . وحكى لى عن أيامه فى القاهرة عندما كان جنديا فى الجيش الثامن وقال انه كان له صداقات مع عدد من المصريين لا يعلم ان كانوا على قيد الحياة ، أم ذهبوا الى رحاب الله .

وراح الرجل الانجليزى يحكى نكتا ويعلق على المارة فى الشارع ، وبدا سعيدا على غير عادة الانجليز وغير مهتم ايضا بمسائل البيع والشراء ، ثم خيل الى أنى لفرط سعادتى تصورت الانجليز سعيدا ، وفى الأشهر الماضية مررت على هذا المكان الف مرة ولكنى لم ألحظ حتى وجود عربة الفاكهة هناك . انها حالتى وليست حالة الانجليزى ، والكابوس الذى كان يجثم على رأسى زال والدنيا عادت تضحك من جديد .

فى اليوم التالى اتصلت بى سفارة الامارات فى لندن وطلب الى المتحدث الحضور فوراً لأمر هام ، وعندما ذهبت استقبلنى شاب ملتح وطيب وسألنى عن المستشفى الذى تقيم فيه هالة وعن الوقت الذى وصلت فيه الى لندن ، وألقى اسئلة أخرى وفى نهاية المقابلة طلب جواز سفرى ليطلع عليه ، وانا غالبا تركبنى الحماقة خصوصا عندما اشعر بأهانة وأنا فى موقف ضعيف ، تصورت أنه يطلب جواز سفرى ليتأكد بنفسه إن كنت صادقا أم لا ، وبعد نقاش حاد لم

يستمر طويلا ، قال لى الشاب لقد أردت الاطلاع على جواز سفرك كى أحدد بالضبط تاريخ اليوم الذى حضرت فيه لأن لدينا أمرا بصرف بدل سفر لك منذ وصلت حتى تغادر لندن ان شاء الله .

قلت : بدل سفر ومنذ ان وصلت؟ إننى أكون سعيدا وممتنا لودفعتم حساب المستشفى فقط ، ورد الشاب : أننا ننفذ الأوامر ولا نملك تعديلها على اية حال ، ثم قال ولك بدل مواصلات أيضا ستصرفه كل أسبوع وستكتب لك شيكا الآن ببدل السفر المقرر منذ أن وصلت وحتى هذه الساعة .

يا سبحان الله ، خرجت من باب السفارة وقت الظهيرة ومنطقة (برنسس جيت) هادئة ، وقفت فى الشارع انظر الى حديقة هايدبارك بينما الهواء البارد يضرب وجهى وان كنت لا اشعر بالبرد واحس احساسا صادقا بأننى فى روضة من رياض الجنة ، صحيح «مابين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال» . وهأنذا المفلس الحائر والعدمان اشعر الآن بأننى أنا العقيد ، لابد أنا العميد ، بل ان شئت الدقة أنا اللواء ، وأنا المشير ، و«بلادى وانا جارت على عزيزة وأهلى وان ضنوا على كرام» . فكلهم اهلى . . العرب الذين ضنوا والعرب الذين اكرموا .

ونسيت فى لحظة تعب الأشهر التسعة الماضية وسرت على قدمى الى صديقى الانجليزى الذى أكل معنا عيشا وملحا فى مصر أيام الحرب واشتريت فاكهة كثيرة وأوقفت سيارة أجرة كأى عمدة غنى من عمد مقاطعة كنت وذهبت الى المستشفى ودخلت من الباب الرئيسى هذه المرة منتفشا منتعشا ، ألقى التحية على كل من ألقاه وكأننى أحد أحفاد وليام الفاتح عليه رحمة الله .

ولكن فرحتي تبخرت عندما وقع بصرى على المرأة الحيزبون الدردبيس رئيس حسابات المستشفى وكنت أخشى لقاءها كما اخشى لقاء الموت ، وحاولت ان اتفاداها بحكم العادة ولكنها عكمت فى زمارة رقبتى وقالت مسترسعدنى ، فقلت يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ، نعمين ياست ياحيزبون - قالت لقد جاء سكرتيرك هذا الصباح ، قلت سكرتيرى؟ الحمد لله الذى جعل لنا سكرتيرا من البشر من بلاد الانجليز. وماذا يريد سكرتيرى ايتها الست؟ قالت لقد سدد جميع الفواتير وترك لنا عنوانا لنرسل اليه الفواتير الجديدة ، قلت بعظمة يهودى افتتح لنفسه بنكا فى السوق : ألم يترك سكرتيرى لديك شيئا للعبد لله فى مظروف؟ وكانت غلطة كبيرة أن أمزح مع عجوز فى عمر توت غنخ آمون.

أستبقتنى نصف ساعة وهى تبحث فى أوراقها وفى ادراجها عن شىء تركه سكرتيرى المزعوم ، وتخلصت منها بمعجزة وصعدت وثبا على السلالم الى هالة لأجد فى حجرتها لعب اطفال جديدة وغالية الثمن . . استفسرت منها عن مصدر هذه اللعب؟ قالت جاء بها مندوب من سفارة الامارات هدية من الشيخ السويدى.

وتذكرت عم احمد المنجد يرحمه الله ، كان له شعار دائما يردده وحكمة يؤمن بها غاية الايمان (إذا أقبلت - يقصد الدنيا - باض الحمام على الوتد ، وان أدبرت بال الحمار على الاسد) لقد اقبلت إذن يا عم محمود أنها ارادة الله شاءت أن تفتح الطريق امام هالة لكى تقوم وتقف على قدميها وتمشى بأمر ربى.

وعشت وقتا فى لندن عرفت فيه معنى بلهنية العيش ، ونسيت المستشار

الليبي والسفارة الليبية ، وقلت بركة يا جامع ، وحان موعد فك الجبس عن ساق هالة ، وذهبت الى المستشفى ويدى على قلبى ، ولسانى يردد . . يارب !

فليعذرنى القارىء إذا سقت له الف عذر عن عدم استطاعتى وصف ذلك اليوم البعيد الذى خرجت فيه من شقتى فى (سيل بليس) فى طريقى الى مستشفى رويال اورثيبدك فى جرنت بورتلاند استريت ، ولا أغالى اذا قلت أننى كنت فى ذلك اليوم فاقد الاحساس لكل شىء حولى ولأى شىء ! فقد كان اليوم هو موعد فك الجبس عن قدم هالة ، سرحت فى ملكوت الله وأنا سائر على قدمى أجوب شوارع لندن فى طريقى الى المستشفى ، ماذا لو فك الطبيب الجبس ثم اكتشفت ان كل شىء ضاع هباء؟ العمر والجهد والمال ايضا ، وبعد هذا وقبل هذا ، أمل هالة فى أن تقف على ساقيها وتسعى على قدميها كسائر خلق الله؟ !

ولم أجب عن السؤال تجاهلت الأمر ، ووددت لو تبتلعنى الأرض قبل هذه اللحظة ، او تصدمنى سيارة وأنا فى طريقى الى المستشفى فالمصائب يهون بعضها الى جانب بعض ، ومصيبتى فى هالة ستكون أفدح على نفسى من أى شىء ، ولم أنتبه إلا وأنا امام مستشفى ، وكل شىء هناك كما كان من قبل ، دخلت الردهة الفسيحة ، كان هناك مرضى كثيرون فى انتظار توقيع الكشف عليهم ، ولمحت ممرضة تقفز فى الصالة كأنها غزال يهرب من صياد عنيد ، وسألتها عن المستر بروكس ، فأومأت برأسها الى حجرة على يمين الصالة ، وترددت فى الدخول ، وجلست على مقعد مواجه للحجرة انتظر .

ومر وقت طويل قبل ان يخرج مستر بروكس من حجرته ، وعندما رآنى أومأ نحوى برأسه وسار فى طريقه وكأن شيئا لم يكن وبراءة الاطباء فى عينيه !

وخمنت أنه ربما فحص هالة فى الصباح الباكر ، وأكتشف ان العملية لم تنجح ، ومضيت أحجل وراءه كالغراب ، وبالرغم من ان وقع أقدامى كان مسموعا بشلمة ، لم يعرنى التفاتا ، ومضى فى طريقه وكأنه فى كهنوتية فى سبيل الرب ! وفتح حجرة صغيرة وعندما اختلست النظر من خلال الباب ، اكتشفت أن هالة هناك ترقد على سرير وقد علقت قدمها اليمنى بمشبك الى السقف ، كانت هالة فى قمة تألقها وسعاتها ، كانت مؤمنة بأن اللحظة قد حانت لكى تتخلص من الكابوس الثقيل الذى لازمها طويلا ، وأنها لحظة فك الجبس ستنهض واقفة ساعية على قدميها بإذن ربى ، وأحسست بقلبى ينقبض ، ماذا لو حدث العكس؟ وما هو رد الفعل إذا جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن؟

كان مستر بروكس الذى سد الباب يضحك عاليا وهو يسأل هالة ، هل أنت مستعدة فلما ردت بالايجاب ، عاد يسألها ، وهل أنت مصرة على المشى اليوم؟ فلما هزت رأسها بالموافقة استدار المستر بروكس ، قال: أذن هيا بنا ، وسرت خلفه الى صالة مزدحمة بالمعدات ومستعدة لمثل هذه الحالات ، وبعد دقائق ، حضرت هالة على كرسى بعجلات ، حاولت اخفاء اضطرابى وقلقى ، واستقبلتها بالطريقة التى استقبلها بها كل يوم ، ولكنها مشغولة عنى وعن مشاعرى بتلك اللحظة التى أخذت تقترب ، ودخلت الصالة فتاة فى سنها تجلس على كرسى متحرك ايضا ، وقدمها اليمنى ملفوفة فى الجبس ، وعرفت فيما بعد ان اسمها ايمان ، وأنها تعانى من مرض هالة نفسه وأنها فى سنها بالضبط .

وحدثت المعجزة

كان الاختبار سيجرى على الفتاتين معا وبدأ الاخصائيون بفك الجبس عن ساقيهما فى وقت واحد ، واستغرقت هذه العملية حوالى نصف ساعة ، خيل الى أنها دهر بأكمله. كان والد ايمان يقف معنا فى الصالة ، ويبدو شديد العصبية والقلق ، حاولت ان أهدىء من اضطرابه ، قدمت له سيجارة وقلت له وأنا أشعلها ، مهما تكن النتائج ففى الطب مجالات واسعة وآفاق لا حدود لها ويبدو أنه لم ينصت الى كلامى ، فقد كانت عيناه مركزتين على ساق البنت ، وكانت اصابعه ترتعش وهو يمسك بها السيجارة ، وخفت ان تنتقل العدوى الى فابتعدت عنه ولزمت ركنا بعيدا فى الصالة.

وجاءت اللحظة التى انتظرتها سبعة عشر عاما طويلة ، وأختار مستر بروكس ايمان لتبدأ التجربة ، حاولت هالة الوقوف ، لكنه منعها ، وقال لايمان ، حاولى الوقوف الان ، ترددت البنت ، ومضت دقائق وهى لا تحرك ساكنا ، صرخ ابوها فى وجهها يأمرها بالوقوف ، أمره بروكس ان يكف عن الصراخ ، قال له ، دعها وشأنها ، إن هذا الأمر يحتاج الى وقت ، إن مراكز المخ لم تتعود اصدار أوامر الى هذه الساق لكى تتحرك ، ولكى تعود هذه المراكز الى العمل ، فأنها تحتاج الى وقت قد يقصر وقد يطول ، وقلت بينى وبين نفسى يا للمأساة انتهى الآن العمل فى الساق ، وسيبدأ العمل فى مراكز المخ!! يبدو أنها لعبة مثل لعبة دوخينى يا لمونة! وسندوخ من جديد ما بين اطباء وممرضين ومستشفيات وعمليات الى يوم الدين.

اقترب بروكس من ايمان التى انفجرت باكية وراح يداعبها ، ثم عاونها على النهوض ومضت تتوكأ عليه حتى اقتربا من جهاز طبى يشبه المتوازى ،

وقال لهـا ، حـاولى المشى بمسـاعـدة هذا الجـهـاز ، وسـارت البنت على الجـهـاز ولكن بدا لنا بوضـوح ان سـاقهـا مـشلولة ، وعـندمـا أمرهـا بروكس بأن تتـرك الجهـاز وتحاول المشى وحدها ترددت لحظة ثم حـاولت ، ولـكنهـا سقطت على الارض وانفـجـرت فى بكاء عنيف ، وعـادت بهـا الممـرضـات الى الكـرسى المتـحـرك ، وعكف مـستـر بـروكس على فـحص السـاق بعناية ، ولم تجد كل التوسلات لوقف ايمان عن البكاء ، انخرطت البنت التى تستقبل عامها التاسع عشر فى بكاء عنيف ، ثم تضاعفت المأسـاة ، عندما انفـجر ابوها هو الآخر فى نوبة بكاء حادة اهتز لها جسده كله .

اختلست النظر الى هالة وسط هذا المشهد الرهيب ، ودهشت جـدا عندما اكتشفت انها لم تكن معنا ، بدا عليـهـا انهـا فى واد آخر بعيد كانت سـاهمة وعـيناها تحـدقـان فى لا شىء وقد وضعت يدها على ركبـتـهـا . مـوطن الداء اللعـين! وقطع بروكس الجـو المأسـاوى الذى خيم على المكان ، وطلـب بعض الاربطة وسـارعت الممرضـات باحضـارهـا ، وراح يلف بعضـهـا حـول ركـبة ايمـان ، ثم دعـاها الى الوقـوفـوقـفت ومـرة اخرى فك الاربطة من حـول الركبـة وأعـاد ربطهـا حول مـفصل القدم ، ثـم أمـرهـا بالوقـوف فلم تستطع ونظر الى الوالد الذى كـان يبكى وقال له ، لا شىء الأمـر بسيط للغاية سأضع ركبتها فى الجبس شهرا آخر ، وبعدها سيكون كل شىء على ما يرام ، ولـم يرد الوالد ، ولكنه ذهب الى ركن فى القـاعة وجلس ، عندما أرادت ايمان ان تغـادر الصالة على الكرسى المتحـرك طلب اليهـا الطبيب ان تبقى لكى تشـاهد تجـربة هالة ، وخيل الى أن بروكس أراد ان تشاهـد ايمان تجربة هالة بنفسـهـا ، فـإن نجحت

التجربة ، كان هذا حافزا لها على ان تقاتل من أجل تحقيق النتيجة الطيبة نفسها ، وإن فشلت التجربة فإن ذلك سيكون كفيلا بتهدئة نفسها الثائرة ، وستشعر بأنها ليست وحدها ، وأن المقادير تجرى عليها وعلى كثيرات مثلها .

واتجه بروكس نحو هالة وراح يداعبها ببعض الكلمات ، ثم قال لها ، هل اساعدك حتى تصلى الى هذا الجهاز ، وأجابت هالة فى ثقة القائد نابليون وهو على ابواب معركة : لا أحتاج الى هذا الجهاز وسأمشى وحدى . سألها بروكس : وهل انت متأكدة؟ قالت ببساطة وبثقة وعلى الفور : نعم ، قال : إذن هيا انهضى .

ولم أركز فى حياتى على شىء كما ركزت على هذه اللحظة ، ولكن قلبى خاننى فتسارعت دقاته ، وأرعش الموقف قدمى ، وبذلت جهدا شديدا كيلا يظهر على وجهى ما أضمره فى نفسى ، ولذلك فأنا متأكد من أن وجهى فى تلك اللحظة كانت تبدو عليه البلاهة أكثر من أى شىء آخر ، ها هى هالة تنهض . ها هى تمشى ، واثقة مطمئنة سريعة الخطى وان كان بها عرج ملحوظ ، وقطعت الصالة الى نهايتها ، استدارت وعادت الينا ولكن قبل ان تصل الينا وعند منتصف الصالة تقريبا ، لم اتمالك نفسى ، فجريت اليها لأحتضنها وأقبلها ، ولكنى! اصطدمت ببروكس الذى كان أسبق منى فى الوصول اليها والذى احتضنها بقوة ، ولمحت دموعا فى عينيه . . لقد بكى!

كان بروكس فى غاية التأثر والفرح ، ولم اتمالك نفسى فاحتضنت بروكس وقبلته قبل ان احتضن هالة واقبلها ، وقلت له بصوت متحشرج ، لقد صنعت المعجزة يامستر بروكس ، فأشار الى هالة وقال ، بل هى التى صنعتها ، لقد

أرادت ان تمشى ، فتحقق ما أرادت ، وسأقول لك شيئا أرجو ان تفخر به ، ان هالة هى اشجع فتاة عالجتها فى حياتى .

حاولت هالة ان تفلت منا لكى تواصل المشى ولكن بروكس معها بشدة وقال: إن المشى يضرك . الآن حاولى ان تمشى قليلا اليوم ، ثم اكثر غدا ، واحضرى الى المستشفى يوميا للعلاج الطبيعى ، وبعد شهر ستصبحين على ما يرام ، وكانت هذه الكلمات ايذانا لنا بمغادرة المستشفى الى الابد . وخرجت مع هالة ، يدى فى يدها الى شوارع لندن الواسعة ، حاولت ان استقل «تاكسى» ولكنها رفضت بشدة وأصرت على المشى ، أعدت عليها كلمات بروكس ، ولكن من يسمع ومن يقرأ؟ انا نفسى لم أكن محتاجا الى اقناع ، وافقتها على الفور ، كنت اريد أن أراها وهى تمشى ، كانت قدماها شبه عاريتين ، لم تكن ترتدى الا شيئا من شباشب المستشفى ، فلم يكن لهالة أحذية من قبل ، وكانت محنتى التى أواجهها هى ايام الاعياد وفى المناسبات عندما اشترى الحذية حديدة لأختها ولا اشترى لها منها شيئا ، كانت ترتدى أحذية من جديد ، وتضع ساقها فى جهاز حديد ، لذلك كانت وجهتنا الأولى فى شوارع لندن ، محلات الأحذية وامضينا اكثر من ثلاث ساعات لندخل فى دكان أحذية ونخرج من دكان حذية ، واشترينا ثمانية ازواج من الأحذية ، أحمر وأزرق وأبيض وأسود ، ولكننا لم نستعمل من هذه الأزواج الثمانية الا أربعة فقط فقد كان علينا ان نشترى من كل حذاء مقاسين والسبب ان الشلل اللعين أحدث ضمورا شديدا فى قدم هالة اليمنى ، فأصبحت القدم اليمنى مقاس ٣ ، والقدم اليسرى مقاس ٥ .

وحدثت المعجزة

وعدنا فى النهاية الى البيت لأكتشف هناك أن قدم هالة وساقها ايضا قد اصبحتا فى حكم قدم وساق الفيل ، أصابها ورم شديد ، فاتصلت بالمستر بروكس أخبره بما حدث قال بروكس بعد أن وصفت له الحالة ، ان ما فعلته اليوم هو ضرب من الجنون ، ضعها الآن فى حمام ساخن واتركها فترة طويلة ، ثم احضر بها الى المستشفى فى صباح الغد ، ونفذت تعليمات بروكس ، ولكن كلفنا طيشنا ورعونتنا شهرا آخر قضيناه تحت العلاج الطبيعى ، ولكن الحالة أخذت فى التحسن يوما بعد يوم ، وفى نهاية الشهر قال بروكس ، تستطيع الآن ان تغادر لندن اذا شئت ، ولكن عد بها عام كامل لأننى وضعت فى ساقها مسمارا ستزيله بعد مضى عام وعرضت على هالة ان تبقى بعض الوقت معى فى لندن ، ولكنها اصرت على السفر . كانت تريد ان ترى امها بعد ان شفيت . كانت ايضا تتعجل عرض احذيتها الجديدة على اخوتها وصديقاتها ، ثم قبلت ان تبقى معى اسبوعا ثم تسافر الى القاهرة .

وقضينا الاسبوع معا نتردد على حدائق هايدبارك وحديقة الحيوان ومتحف الشمع وقلعة لندن وذهبنا مرة الى الريف البريطانى واصبحنا سائحين بفضل الله ، وعندما حان وقت الرحيل ، ذهبت معها الى المطار ، وودعتها مؤكدا عليها ضرورة الحضور فى الموعد الذى حدده الطبيب . . ولم أعد الى المنزل ولكنى سرحت مع بعض الاصدقاء فقد تحررت اخيرا من القيد الذى ظل يربطنى من عنقى فلم أتمكن من العيش فى لندن وان كنت مقيما فيها .

وعندما عدت الى بيتى فى المساء اكتشفت ورقة ألقيت من تحت الباب ، وكانت تحمل طلبا من المستشار الليبى للعبد لله بضرورة الاتصال به في اى

وقت من أوقات الليل أو النهار. وفى الورقة تليفونه الخاص فى المكتب وتليفونه فى المنزل ، واتصلت به وكانت الساعة الواحدة صباحا وجاءنى صوت على الطرف الآخر متثائبا فى البداية ، ثم عندما اكتشف اننى أنا الطالب ، دب فيه النشاط والحيوية ، وقال لى بلهجة ودودة ، يا أخ محمود ، إريدك غدا فى السفارة لأمر عاجل وهام وخطير ، عندما طلبت اليه أن يفصح لى عن هذا الخبر الان ، اعتذر بلياقة وقال غدا تعرف كل شيء .

وفى الصباح الباكر كنت فى مكتبه واستقبلنى ببشاشة غامرة وبترحيب شديد ، وقال وهو يطلب لنا قد حين من القهوة ، عندى لك خبر عظيم ، لقد صدر قرار مجلس قيادة الثورة بعلاج هالة على نفقة الحكومة الليبية .

ونظرت الى المستشار وحدقت فيه طويلا ، وتصور الرجل ان الفرحة قد عقدت لسانى فقال وآيات السعادة بادية عليه ، مفاجأة لك ، أليس كذلك؟ وهززت رأسى بالنفى ، وقلت يا سعادة المستشار لقد انتهى علاج هالة ، وشفيت والحمد لله ، وقد غادرت هالة المستشفى ولندن ايضا وعادت الى القاهرة ، وتصنع الرجل الدهشة ، وسألنى ، متى سافرت؟ قلت بالأمس. قال وهل نجحت العملية؟ قلت : وبأكثر مما كنا نحلم. قال الرجل : مبروك ، ولكن هذا لا يمنع من أننا مسئولون عن علاج هالة ، هذا بدل سفر لمدة شهر ، ومد يده ببعض الاوراق المالية من فئة الجنيهات العشرة ، ولم أمد يدى لأتسلم نقود المستشار ، وقال انها بدل سفر لمدة شهر وسأمنحك كل شهر مبلغا مثله ، أما علاج هالة فسندفع تكاليفه ولو بلغت نصف مليون جنيه . وقلت وأنا أواصل التحديق فى وجه المستشار ، ولكن علاج هالة دفعناه حتى آخر بنس ،

قال: دفعتموه! من أين؟ قلت: الحمد لله ، صادفت عزبا مثلك سددوا فواتير المستشفى والعلاج والحمد لله ايضا لأن الظروف القاسية التى مررت بها فى لندن لم تدفعنى الى اللجوء لسفارة اسرائيل مثلا ، وهتف المستشار قائلا: أعوذ بالله! لماذا إنت متشائم إلى هذا الحد يا أخ محمود؟ ان الدنيا لا تزال بخير قلت: نعم بلا شك ، وأنا شخصيا تأكدت من ذلك.

وعاد المستشار يسأل من جديد: ولكن من الذى دفع؟ كان واضحا عليه انه يعرف كل شىء. من الذى دفع؟ وكم؟ ولكننى رأيت انها لعبة لذيذة يتسلى بها كلانا ، فقلت له ان الشيخ احمد السويدى عندما علم بالأمر توسط لدى الشيخ زايد ، فوافق على علاج هالة على الفور ، وبالرغم من اننى لم أقابل الشيخ زايد إلا مرتين فى حياتى ، وفى عام ١٩٦٧ على وجه التحديد لم يتردد لحظة فى اصدار القرار ، وطوق عنقى بجميل لن انساه مدى العمر.

وقال المستشار ان الشيخ زايد رجل طيب ، ولكن ماذا تفعل فى قرار مجلس قيادة الثورة؟ قلت: لا أدرى ، وان كنت أرى توجيه هذه النقود الى من يستحقونها الآن بالفعل ، وسألنى المستشار تقصد من؟ قلت له وأنا اتأهب للنهوض. هناك مرضى كثيرون فى العالم العربى ينتظرون مبلغا كهذا ليبدأوا العلاج على الفور.

صمت المستشار فترة قبل ان يقول. يا أخ محمود هذا القرار خاص بك انت شخصيا ، ولابد من تنفيذه ، قلت خاص بى أنا نعم ، لكن تنفيذه كيف؟ هل تريد منى ان اعيد هالة الى حالتها الأولى ثم نستأنف العلاج من جديد؟ لقد قلت لك ان هالة شفيت تماما وعادت الى القاهرة على قدميها ، ولم أعد

فى حاجة الى النقود فأنا معى نقود كثيرة ، وان كان هذا لا يمنع من توجيه الشكر الى القيادة الليبية على هذا الموقف النبيل ، قال المستشار ، أنا لا امزح ، لابد من تنفيذ هذا الأمر ، فأنا لا أستطيع الاتصال بطرابلس لأقول لهم إن هالة شفيت وانتهى الامر ، أنك ستضعنا فى موقف صعب ، فأرجو؛ قبول هذا المبلغ ، وسأعطيك مثله فى كل شهرواحضر فواتير هالة ، وسنصرف قيمتها ولو بلغت نصف مليون جنيه ، قلت اذن انت مصمم ، قال نعم. عندئذ مددت يدى وتناولت المبلغ ووضعته فى جيبى وصافحت المستشار ، وخرجت من السفارة الليبية وقد طويت النية على أمر . . وهو أمر لو تعلمون خطير!

إنها جريمة الفأر..!

تناولت فلوس المستشار ووضعتها فى جيبى ، وخرجت من دار السفارة وأنا أغلى ، كان بدنى كله يستعر برغم المطر والبرد كان قرارى الذى اتخذته بينى وبين نفسى أن أنتقم وأن أرد اللطمة بلطمة مثلها ، ولكن كيف؟ كيف لرجل مثلى وحيد مطرود من بلده ان يرد اللطمة إلى قوة تحت يدها سلاح ورجال وأجهزة؟ إنها معركة غير متكافئة فى واقع الأمر وإذا أنا ارتضيت هذا ، فمن المؤكد أننى سأموت غيظا وكمدا.

وكان واضحا لى أنهم علموا بأن حكومة ابو ظبى قد غطت تكاليف علاج هالة ، فأسرعوا الى اجراء هذه التمثيلية لكى يبدو الأمر مجرد اجراءات روتينية معقده وبطيئة ومملة ، وأن العقيد اصدر الامر ولكن الموظفين تأخروا فى تنفيذه ، ولكنها بالنسبة لى كانت مجرد حركة قرعة ومكشوفة وقديمة تلعبها النظم إياها فى مواقف من هذا النوع.

ولجأت الى حجرتى فى الفندق افكر فى الطريقة التى أرد بها النقود الى

سيادة العقيد شخصيا ، وأن اثأر فى الوقت نفسه لشهور طويلة من الانتظار والقلق والرعب ، وعرضت الأمر على بعض الاصدقاء فنصحنى بعضهم بأن أضرب عما فات ، وأن أضع النقود فى جيبى ، وأن أتناول مثلها كل شهر ، وأن أحصل على فواتير المستشفى بمئات الالوف من الجنيهات ، وأن أقيم فى لندن بقية عمرى بنكيرا مستورا آخر ألاجه والاطه وانتفاخ ، وأفتى البعض بأن هذا السلوك هو أفضل طريقة للثأر من النظام الذى استغل مرض ابنتى هالة لاذلالى ، ووضعى فى هذا الموقف الرهيب .

ولكنى لم أكن أرى هذا الرأى . كان لابد أن أرد الاهانة بإهانة مثلها ، لو كان الامر خلافا سياسيا بينى وبينهم لهان الأمر ، لم أكن مختلفا معهم سياسيا ، وربما العكس كان هو الصحيح ، فأنا امثلهم أؤمن بالمبادىء نفسها وأرفع نفس الشعارات ، وإن وجدت خلافات فهى فى الاسلوب ، وليس فى الموضوع ، لو أنى من أنصار التجزئة ، لو كنت عبدا حبشيا ، وضد جنس العرب وتاريخ العروبة . . لهان الأمر ، ولكنى عربى على دربهم ، ومؤمن بالله ورسله وكتبه ، وبأن العرب أمة واحدة من طنجة الى صنعاء ، ولكننى فى ورطة ، وهى ورطة لا تمس طعامى او شرابى ، ولكنها تمس ابنتى المريضة ، وهى تحت العلاج ، وعلاجها مضمون ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، ولكن يد الاصدقاء طويلة ، وهم الذين عرضوا وتطوعوا ، وفتحوا صدورهم على الآخر ، واذا بالمسألة كلها مجرد محاورة على نمط محاورة القط للفأر ، وجريمة الفأر انه يريد ان تكون له شخصية متميزة ورأى خاص فى نظم القطط ، ولكن ياويل الفأر فى كل مكان ذهب اليه ، سيلقى العنت والارهاق ، والارهاب ايضا .

ولكن كل هذا يهون امام اهانة من هذا النوع ، لأنها كانت إهانة تتعلق بعلاج ابنتي المريضة ، وليس في عمل مثل هذا أية شبهة نبل أو فرُوسية . وإن شئت الدقة ، فهو عمل حقير . . حقير ، ولابد من رد اللطمة حتى لا أفقد نفسى آخر الامر .

طرحت خواطرى امام صديق ، فاقترح أن أرد المبلغ على هيئة (درافت شيك) للعقيد ، ولما كان العبد لله - وقتئذ - يفهم فى عمل الشيكات ، كما تفهم خالتى بهانة فى علم الالكترونيات ، فقد وافقت على الاقتراح على الفور ، ونمت سعيدا فى تلك الليلة ، لقد هدأت نفسى لهذا الحل ، وفى الصباح كنت مع صديقى امام موظف بنك ميدلاند ، وأودعت المبلغ فى حساب خاص ، ثم عدت واستردت المبلغ بدرافت شيك باسم الكولونيل معمر القذافى! ثم دخلنا مقهى فى الهايدبارك على مقربة من السفارة الليبية ، وجلست اكتب خطابا للعقيد القذافى .

(سيدى العقيد) لا أجد الكلمات المناسبة لكى اشكركم على حسن صنيعكم نحوى ونحو ابنتى هالة ، لكن ومهما كان الامر ، فلابد أن أسجل الشكر لمجلس قيادة الثورة فى ليبيا على قراره بعلاج هالة على نفقة الحكومة الليبية ، وهو شرف عظيم لا استحقه ، خصوصا أننى بالرغم من كونى جنديا صغيرا مخلصا ، فإننى أشعر صادقا أننى لم اقدم لأمتى ما يستحق هذا التكريم الجليل ، ولحسن الحظ يا سيدى العقيد ان هالة قد عولجت وشفيت تماما وغادرت لندن الى القاهرة وقبل وصول قراركم هذا ، ولكى يطمئن قلبك الذى ينبض بحب العروبة ويخفق باسمها ، فإن الذين تكفلوا بعلاجها ودفعوا

تكاليفه كانوا عربا ايضاولم يكونوا لا سمح الله من جنس آخر أو من معسكر الاعداء ، ولذلك اقترح على سيادتكم إن كان من حقى ان اقترح عليكم ، توجيه المبلغ المرصود لعلاج هالة الى من يستحقونه ، وما أكثر المرضى فى العالم العربى الذين يعيشون على اعصابهم الان فى انتظار مبلغ مثل هذا . ليبدأوا رحلتهم نحو الشفاء والهناء ، ويحضروني يا سيادة العقيد فى هذا المقام مقولة للكاتب البريطانى اوسكار وايلد . . « غالبا ما يحقق المرء كل ما يتمناه فى الحياة ولكن . . ليس فى الوقت المناسب . . » وأعتقد ان هذه المقولة لا تنطبق على أحد الآن الا على العبد لله فلقد نالنى شرف مجلس قيادة الثورة الليبى ، ووصلتنى عطيته ، ولكن ليس فى الوقت المناسب . شكرا يا سيادة العقيد ودمتم للعروبة وللوحدة وللاسلام .

ودخلت السفارة الليبية ، وقابلت المستشار وعلى شفتى ابتسامة عريضة وتلقانى المستشارمرحبا كالعادة ، وابتسم وجهه كله عندما ابلغته انى قادم لشكره ، وان معى خطاب شكر للسيد العقيد ، وراح المستشار ـ وبالمناسبة ـ . . حكمت عليه الظروف ان يواجه محنتي ، وهو الآن لاجيء فى اوربا ـ يحكى لى بإسهاب بلغ حد الاسفاف تعقيدات الروتين الليبى ، وكسل الموظفين الليبيين ، وكيف ان القيادة تنجز وعدها فى لمح البصر ، ولكن الامور تتمهل فى المكاتب وتتعثر فى الاروقة ، ولكن الحق لابد ان يصل الى اصحابه فى النهاية ، فإن النتائج تكون دائما سعيدة وعلى النحو الذى حدث معى بالكمال والتمام ! !

ورسمت على وجهى حالة من البلاهة وانا اشكر المستشار وقياداته الطيبة القلب السخية اليد الرقيقة المشاعر ، وسلمته المظروف مغلقا وبداخله الشيك

وخطاب الشكر . ثم صافحته وأصر على توديعي حتى الباب ، ولم اشعر فى حياتى بأن قامتى تطول حتى بلغت الشواشى العليا للأشجار الضخمة المتناثرة فى هايدبارك ، الا فى تلك اللحظة ، شعرت بأننى انتقمت لنفسى التى اسقمها الانتظار . ولروحى التى ارهقها القلق ، وأحسست بأن مهمتى فى لندن قد انتهت ، لقد شفيت هالة وعادت الى القاهرة ، وشفيت نفسى ايضا ، ولم يبق الا ان احدد مصيرى واختار مستقبلى والبلد الذى استقر فيه .

شطبت لبنان من القائمة ، فقد تركت (السفير) واصبحت بيروت تحت رحمة الميليشيات والحواجز والقتل على الهوية ، واخترت ابو ظبى ، فقد كان لدى عرض للعمل كمدير لادارة الصحافة المدرسية فى ابو ظبى ، وقررت ان اشد الرحال الى هناك ، فهى تجربة جديدة على كل حال ، وهى خطوة اخرى على طريق الالام والاحزان ، وحجزت مقعدا على الطائرة ، وحددت يوم السفر ، وودعت اصدقائى فى لندن وتأهبت للرحيل ، ولكنى قبل الرحيل بيوم واحد ، اتصل بى المرحوم الاستاذ الكبير على امين من جناحه فى فندق (إن أون ذا بارك) وقال احضر عندى على الفور . . وذهبت الى الاستاذ على امين على الفور . . وحزنت بشدة عندما وقع بصرى عليه . . فقد كان لون وجهه ينبىء بأنه فى ايامه الاخيرة . . وقال : لى بدون مقدمات ، أن مصطفى يريدك «يقصد الاستاذ مصطفى أمين) وقلت : خيرا ، وقال : ستعود الى الصحافة ومصطفى تحدث فى شأنك مع الرئيس السادات ووافق على عودتك ، قلت : ولكنى فى طريقى الى ابو ظبى ، فقد اتفقت بالفعل على عمل هناك ، وفى وظيفة حكومية بعيدة عن الصحافة ، قال: لاشأن لى ، كلم

مصطفى أولا ، ثم افعل ما تشاء ، ورفع سماعة التليفون وأدار رقم الاستاذ مصطفى امين فى القاهرة ، وارتفع صوت مصطفى امين من القاهرة فى السماعة الموضوعة على أذنى ، يا محمود عد فورا الى القاهرة .

*****

كان يبدو من صوت الاستاذ مصطفى أمين أنه سعيد ومنفعل فى آن واحد وقال وصوته يدوى فى السماعة ، عد يا محمود ، ستعود الى مهنتك وستكتب باسمك فى الصحف ، وشرحت للأستاذ مصطفى أمين كيف أننى اتفقت على عمل حكومى فى الامارات ، واننى حجزت مقعدا على الطائرة المتجهة الى أبوظبى فى الغد . ، ثم قلت للأستاذ مصطفى أمين ، وعلى كل حال لن أعود الى مصر إلا بعد تنفيذ اتفاقك معى . وقال الاستاذ مصطفى طيب ، سأنفذ الاتفاق .

وأصل الحكاية أننى بعد خروجى من سجن القناطر كان كل من فى السلطة ضدى ، وكان ضدى ايضا السادة المتربعون على كراسى المسئولية فى الصحف الحكومية . كما إنه لم تكن هناك صحف معارضة فى ذلك الوقت ، ولكن للحقيقة كان الاستاذ مصطفى أمين هو الوحيد الذى أبدى اهتماما خاصا بأمرى ، واتصل بى أكثر من مرة ، وزرته فى مكتبه عدة مرات ، وكان يسعى جاهدا لاعادتى الى عملى ، ومرة تكلم امامى مع الاستاذ إحسان عبدالقدوس ، وكان وقتئذ رئيسا لمجلس ادارة أخبار اليوم ، وقال لاحسان ، اسمح بنشر مقال لمحمود السعدنى فى مجلة آخر ساعة ، واعتذر الاستاذ احسان ، وقال لابد من استئذان الرئيس السادات أولا ، ورد الاستاذ

مصطفى ، لماذا لا تنشر المقال وتنتظر رد الفعل ، فان سكت الرئيس السادات ، كان بها ، وإذا اعترض نعتذر بأننا لم نكن نعلم بأن محمود السعدني ممنوع من النشر .

*****

وأصر الاستاذ إحسان على استئذان الرئيس السادات أولا ، وللعجب حاول الاستاذ موسى صبري ايضا عدة محاولات لاعادتي الى العمل وذهبت معه لزيارة محمود أبو وافية عديل الرئيس السادات في منزله ، ووعدنا بعرض الأمر على الرئيس ، وحاول موسى نشر مقال لي في الأخبار خلال الأيام الأولى من حرب اكتوبر ، ولكن وزير الاعلام أصدر تعليمات بعدم نشر أي مقالات لثلاثة كتاب حتى ولو كانت في تحية جيش مصر اثناء المعركة . وكان الأستاذ محمود العالم ايضا واحدا من هؤلاء الكتاب . المهم أن كل الوساطات باءت بالفشل ، وأصر الرئيس على موقفه ، لا أكتب في أية مطبوعة ولا ينشر اسمي في الصحف ، مع أن الأصل في طبيعة الكون أن الله سبحانه هو وحده الذي يولي ويعزل ويرفع ويخفض ويحيي ويميت ، ولكن بعض عبيده يتصورون أحيانا أنهم مكلفون بأداء بعض وظائفه . ولكن الله سبحانه يمهل ولا يهمل ، ونهاية الرئيس السادات هي أبلغ درس لهؤلاء الذين يتصورون أنهم قادرون على أداء هذا الدور !

المهم أن الاستاذ مصطفى أمين واصل اهتمامه بقضيتي حتى بعد أن تركت مصر وسافرت للخارج ، التقيت به ذات مرة في لندن ، ونصحني بالعودة الى عملي الصحفي ، وقلت للأستاذ مصطفى أمين يرفضون نشر اسمي في

الجرائد ، قال إننى سأنشر اسمك فى أخبار اليوم ، قلت إذا نشرت اسمى فى أخبار اليوم فسأعود على الفور.

ولابد أن الاستاذ مصطفى أمين قد تذكر تفاصيل هذا الاتفاق عندما قلت له إذا نفذت اتفاقك معى فسأعود على الفور ولذلك كان رده فى نهاية المكالمة ، احرص على قراءة أخبار اليوم كل يوم سبت ، فإذا طالعت اسمك فى احد اعدادها ، فاعلم أن كل شىء على ما يرام ، وبعدها اركب اول طائرة متجهة الى مصر.

وعشت فى فندق الخالدية بأبو ظبى أقرأ أخبار اليوم وانتظر إنهاء إجراءات تعيينى ، وسارت اجراءات التعيين بخطوات سريعة فى البداية ، ثم تعثرت بعد ذلك ، ثم توقفت آخر الأمر ، وفى يوم الجمعة الخامس من وجودى فى أبو ظبى ، زارنى فى الفندق رجل فاضل من أهل البلاد ، هو الأخ عبيد المزروعى ومعه عرض للعمل مديرا لتحرير جريدة الفجر ، جلس عبيد المزروعى يتحدث معى طويلا عن امكاناته واحلامه ، وكان صادقا وبسيطا ، عربيا مخلصا ، وحكى لى بعفوية شديدة كيف عاش أيام الفقر ، اشتغل عامل بناء واشترك فى الغوص ، وبدا من حديثه أنه رجل صنع نفسه بنفسه ، ويدير أعماله بمزاج الهاوى وخبرة المحترف ووقعت عقدا مع عبيد المزروعى فى الجلسة نفسها وكتبت العقد بخط يدى ، وتركت لصاحب العمل تحديد مدة العقد ، فكتب عبيد المزروعى بلا تردد (لمدة عامين).

وفى الاسبوع التالى اتصل بى أحد الصحفيين وهو يعمل بالاهرام ، وكان فى مهمة سريعة الى الامارات ، وكان مع الزميل القادم من القاهرة نسخة من

أخبار اليوم التى صدرت فى آخر اسبوع ، ولم تكن قد وصلت الى أبو ظبى بعد ، وقرأت فى (باب عزيزتى أخبار اليوم) خطابا من قارىء يسأل أين محمود السعدنى ، الآن؟ وكان الجواب ، محمود السعدنى يعيش الآن فى ابو ظبى ويعمل مديرا للصحافة المدرسية هناك ، وسيعود قريبا الى القاهرة للعمل فى الصحافة المصرية ، ومع الزميل الصحفى العائد من القاهرة خطاب من الأستاذ مصطفى أمين يطلب الى العودة فورا خصوصا بعد أن نفذ الاتفاق الذى بيننا ، كان موقفى ضعيفا أمام الأخ عبيد المزروعى وأنا اعتذر له عن العمل للعودة الى القاهرة ، وقال الأخ عبيد ، شارك معنا فى إصدار الجريدة ، وأمكث معنا شهرا على الأقل ، ثم بعد ذلك عد الى بلادك ، فهى على كل حال محطتك النهائية آخر الأمر .

ووافقت الأخ عبيد ، وانشغلت عن كل شىء بالاعداد لصدور جريدة الفجر ، واتفقت مع عبيد المزروعى على الخطوط الرئيسية للجريدة ، وكان أهم هذه الخطوط وعلى رأسها ، أن الفجر ستكون جريدة العرب ضد مطامع الشاه فى الخليج ، واتفقنا على الشعار الذى سنرفعه على رأس الجريدة ، من أجل الخليج العربى والضمير العربى ، واستدعيت بعض الزملاء من القاهرة ، وجاء منير عامر وتولى سكرتارية التحرير ، وكان خير عون لى فى مهمتى الجديدة .

ويبدو أن وجودى فى أبوظبى وعملى فى جريدة الفجر قد لفتا انتباه بعض الجهات ولم أشعر بما يدور حولى إلا بعد أن سافرت فى رحلة مع الشيخ زايد الى طهران ولم تكن الفجر قد صدرت بعد ، بالرغم من وجود اسمى

في كشف المرافقين للشيخ زايد ، فإن الايرانيين تجاهلوني وتعمدوا التقليل من شأني ، فكنت أنا الصحفي الوحيد الذى خصصوا له غرفة صغيرة جدا تطل على الفناء الداخلى فى فندق انتركونتيننتال ، وفى نهاية الرحلة قدموا هدايا لكل أعضاء الوفد ماعدا العبدلله ، ولم أفهم الاشارة فى وقتها ، وظننت أن الأمر مجرد صدفة ، لا أكثر ولا أقل .

وجاءت الاشارة الثانية من مؤتمر وزراء الاعلام العرب فى الخليج ، لقد طلب لقائى ثلاثة من وزراء الاعلام أولهم الدكتور عبده يمانى وزير الاعلام السعودى ، وكان الثانى هو الشيخ يوسف الكوارى وزير إعلام قطر ، وكان الثالث هو طارق عزيز وزير اعلام العراق ، وشعرت فى المقابلة الأولى ان هناك شكوكا لدى من يفترض أنهم من الأصدقاء ، وان الجريدة التى سنصدرها ستكون موضع فحص تحت الميكروسكوب لمحاولة الكشف عما بين السطور . وقلت للدكتور عبده يمانى الذى كان ودودا للغاية ، ان الفيصل بيننا سيكون هو سطور الجريدة وما تحمله من اتجاهات ، وسنحاول جهدنا لتكون جريدة الفجر هى صوت العروبة فى الخليج ضد أى غزو أجنبى ، خصوصا المتربصين بنا على الشاطىء الآخر ! وكان لقائى مع الوزير عيسى الكوارى لقاء تعارف أكثر من أى شيء آخر وسألنى سؤالا عابرا عن جريدة الفجر ، فأجبته اجابة عائمة ، ولكن لقائى مع طارق عزيز كان يختلف ، قال لى ، مادمت ستعيش خارج مصر ، لماذا لم تحضر الى بغداد؟ وشرحت له الظروف التى أتت بى الى أبوظبى ، وقال فى النهاية ، اذا تركت مكانك هنا فسنرحب بك فى بغداد ، وانفجرت هذه العبارة فى رأسى ، فما الذى يقصده الوزير طارق عزيز

بعبارة: إذا تركت. . «هنا»؟ وهل لديهم معلومات؟ أم انها مجرد صدفة أيضا؟

وكانت الاشارة الثالثة من مطار أبوظبى فقد حدث قبل صدور الجريدة بأسبوع، أن عاد صاحبها من الخارج وبدلا من استقباله كرجل من وجوه أبوظبى، اقتادوه من المطار الى السجن، وفتشوه تفتيشا ذاتيا، وبعد عدة ساعات فى الحبس، ذهب اليه وزير الداخلية وأطلق سراحه، واعتذر له بأن المسألة كلها حدثت بطريق الخطأ.

وكانت الإشارة الرابعة من إمارة مجاورة لإمارة أبوظبى، وكانت تربطنى بشيخها صلة صداقة، وهو رجل متنور ومتعلم ودرس فى مصر، وعندما ذهبت اليهم بناء على طلبه، قال لى بصراحة شديدة، نصيحتى لك أن تكف عن العمل الصحفى وإذا أردت أن تعيش هنا، فعليك أن تبقى فى الظل، وعندما نظرت إليه ولم أعلق بشىء قال وهو ينهى الحديث فى هذا الموضوع إنها نصيحة من صديق لا أكثر ولا أقل، وبالرغم عن كل شىء، قررت المضى فى إصدار الفجر.

جريدة الخليج العربى والضمير العربى، كان هذا هو الشعار الذى رفعناه ووضعناه على رأس جريدة «الفجر»، وبالرغم من ان الجريدة لم تكن قد صدرت بعد، فإن الشعار أحدث قلقا شديدا لدى بعض الجهات، اتهمتنا دوائر السفارة الإيرانية بأننا عملاء ليبيا والقذافى، ولم اهتم فى بادىء الأمر بما تشيعه عنى دوائر السفارة الإيرانية، إلا أننى بدأت أشعر بالقلق عندما زارنى بمكتبى بالجريدة شخص مصرى كان يعمل بالتدريس فى الخليج، وانتهز فرصة

نشوء الصحافة الخليجية في بدايتها المبكرة وانتحل لنفسه صفة الصحفى ، وكتب بعض المقالات فى تأييد بعض المشايخ ضد البعض الآخر ، ولكن أمره سرعان ما انكشف ، فطرد من دولة خليجية الى أخرى حتى استقر به المقام فى إمارة صغيرة قبل نكسة ١٩٦٧ ، واستطاع الحصول لنفسه على جواز سفر ، وسارت له أعمال تجارية واتصالات سياسية .

ولكن لأنه من النوع الذى لا يستر طويلا سرعان ما دب الخلاف بينه وبين الشيخ الذى أمر بطرده وتجريده من جواز السفر ، ولكن حانت له فرصة للعودة من جديد الى المنطقة بعد قيام دولة اتحاد الإمارات ، ويبدو انه سعى الى بعض المتحمسين للاتحاد ، ويبدو أنه أقنعهم بأنه قادر على توحيد كلمة الناس حول الاتحاد فى بعض الإمارات البعيدة ، وقد وصل الى أبوظبى ذات صباح ونزل فى فندق الهيلتون ، ثم سعى للتعرف على فى فندقى ، ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ، ولكنه كان من هذا النوع (الأونطجى) الذى لا تخطئه العين المجربة ، وعندما صافحنى انحنى كرقم ثمانية ، وجلس أمامى كتلميذ صغير بالرغم من أنه كان من جيلى ومن عمرى ، راح يتحدث دون أن يترك لى فرصة للمقاطعة أو التعليق .

كان حديثه عن كتبى التى قرأها من الجلدة الى الجلدة ، وعن مقالاتى التى يحفظها عن ظهر قلب ، ولكنى فى اللقاء الثانى ، اكتشفت انه لم يقرأ من كتبى إلا العناوين ، وان القراءة ليست من بين هواياته ، وان آخر كتاب فتحه كان منذ عشرة أعوام وقبل أن يهجر مهنة التدريس ويتفرغ لعمليات النصب والاحتيال ، وأذهلنى أنه يكذب لمجرد الكذب ، فهو لا يكذب لسبب

أو لهدف أو حتى لمصلحة ، ولكنه يكذب لمجرد الكذب ، وكأنه ماكينة لإنتاج الكذب ولا شيء آخر.

وكانت علاقاته واسعة بجميع المسئولين من جميع المستويات ، برجال القصر ، ورجال الأمن ، ورجال المال ، وكان يلقب كل من يلقاه بأستاذى ، ثم يسبه فى اللحظة نفسها التى يدير فيها ظهره له! وكان يفترى قصصا ما أنزل الله بها من سلطان على كل من يعرفهم خصوصا المرموقين منهم من ذوى النفوذ في عالم السياسة والمال ، فهذا لقيط والدليل ان اسمه عبدالله!! وهذا يعمل لحساب اليهود ، والآخر لص يبحث عنه الانتربول ، وكنت قد بدأت أنسحب من حياته بعد أسبوعين فقط من أول لقاء ، ولكنى فوجئت به ذات مساء يقتحم مكتبى فى الجريدة ومعه مقال طالبا نشره فى أول اعداد الجريدة ، وانتهيت من قراءة المقال ، وأبديت دهشتى للأفندى إياه ، فلم يكن للمقال سبب ، ولم تكن هناك مناسبة ، كان المقال بعنوان الخليج الفارسى ، وكان المقال كله عبارة عن حملة بذيئة ضد كل هؤلاء الذين وصفوا الخليج بأنه عربى ، فالخليج فى نظر الاستاذ فارسى وسيد الخليج هو الشاهنشاه ايريا مهر الجالس على عرش الطاووس فى طهران!

ورفضت نشر المقال بشكل قاطع وقلت للاستاذ الفاضل- الفاضل حتى الآن فى مكتبى- ان هذا الكلام لا يمكن نشره فى جريدة عربية ، ولكن الاستاذ الفاضل اغلق عينيه واطرق برأسه وقال فى برود شديد ولكن هذا المقال مطلوب نشره ، واستفزتنى كلمة مطلوب ، فسألته بحدة ، ومن الذى يطلب نشره؟ فأجاب وهويبتسم ابتسامة صفراء ، الرأى العام ، ثما قال : فكر على كل حال قبل أن ترفض المقال أو تأمر بالنشر ، ثم نهض وانصرف .

وكان واضحا أن الأخ اياه ليس وحده ، وأن هذا المقال كان بمثابة بالونة اختبار لمعرفة مدى التزامى بالشعار الذى رفعته على صدر الجريدة ، وأدركت أن المتاعب بدأت ، وأن الريح ستهب بما لا تشتهى السفن!

وخلال انهماكى فى التحضير لاصدار الفجر ، وصل الى الامارات صحفى مصرى من اياهم ، كان يتمتع فى شبابه بمواهب ممتازة وبأخلاق سيئة للغاية ، وكان سلوكه السيىء والمريب هو الذى عطله عن الوصول الى قمة العمل الصحفى ، فظل يتخبط فى القاع متنقلا من جريدة الى جريدة دون ان يتمكن من ان يترك خلفه أثرا على الاطلاق ، وبالرغم من العلاقة الفاترة التى كانت بيننا على الدوام ، فقد تلقانى بترحاب شديد ، فقد تصور أننى من اصحاب النفوذ فى الامارات ، وكان يجلس لحظة التقينا أول مرة فى فندق الخالدية مع شاب طويل القامة نحيف بشكل ملحوظ يشبه الهنود ، وسألت صديقى المصرى عن الشخص الذى يجلس معه ، فأجابنى بأنه يعمل فى التخابر لمصر وأنه يعمل لتغطية الأمر كمحرر فى صحف الكويت ، وعندما سألته عن جنسيته ، أجاب أنه يدعى أنه من اليمن ، وأن كان صديقى يشك فى ذلك! فأشحت بوجهى عن الشاب النحيل وانصرفت.

وفى اليوم التالى ، تقدم الشاب اياه منى وقدم نفسه : محمد زين المحرر بجريدة السياسة ، وكنت قد قرأت اسمه على صفحات السياسة وفى موضوعات فنية واجتماعية ، وقال لى محمد زين ونحن نجلس حول طاولة فى بهو الفندق ، لقد طلبت الى الصحفى المصرى بالأمس أن يقدمنى اليك ولكنه رفض ، ثم قال ، لقد قلت له أن احمد الجار الله كلفنى بأن أعرض عليك ان

تكتب عمودا يوميا للسياسة ، ولكنه تجاهل الموضوع ، وعندما جئت وصافحتنا بالأمس ، رفض ان يقدمنى اليك أو يقدمك الى ، وقلت لمحمد زين ، الأمر بسيط وواضح للغاية ، أنه لا يريد لنا أن نلتقى ، ولكن ها نحن التقينا بالرغم من كل شيء . فما هو عرض أحمد الجار الله بالضبط ؟ قال محمد زين على الفور ، أكتب لنا عمودا يوميا بنفس العنوان الذى كنت تكتب به في صباح الخير (هذا الرجل) واذا أردت أن تحدد أجرك . فأنا حاضر استمع اليك ، وإذا أردت أن تترك هذه المهمة لتتم بينك وبين أحمد الجار الله فلا بأس .

وقلت لمحمد زين : الأجر ليس هو المهم ، المهم عندى ان تنشروا اعلانات في الجريدة تعلنون فيها انضمامى الى اسرة التحرير ، وتذكرون للقراء أن مقالاتى فى الطريق اليهم ، وبعد ذلك سأكتب وبلا انقطاع ، أما تحديد الأجر ، فسأتركه لأحمد الجار الله وأنا واثق بأن احمد الجار الله لن يغبننى لأنه صحفي جيد ، والصحفى لا يغبن أخاه ولو كان فى اقصى الأرض .

وقال محمد زين : لم أتصور ان يتم الاتفاق بينى وبينك بهذه السهولة . لقد افهمنى المصرى اياه أنك ستشتمنى وقلت لمحمد زين : لقد قال لك عنى شيئا وقال لى عنك شيئا ، ومأساته أنه يكره الناس ويكذب فى كل وقت ، وصار محمد زين صديقا للعبد لله منذ ذلك الحين وأحيانا يشرد بعيدا عنى ، ثم لايلبث ان يعود وبراءة الاطفال فى عينيه!

وبدأت رحلة جديدة للعبد لله فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة ، وكان أول مقال لى فى جريدة السياسة عن عودتى للكتابة بعد غيبة طويلة . وكان

مقالى الثانى عن شاه ايران ، وكان قد سحب سفراءه من الخليج ، وأراد أن يظهر عضلاته فأجرى مناورات بحرية ، وصرح لأحمد الجار الله فى حديث له على صفحات السياسة (أن على الذين يلعبون بالنار أن يتحملوا نتائجها) وكان يهدد دول الخليج التى تجرأت وتجاسرت وقررت اضافة وصف العربى الى الخليج فى اجهزة الاعلام الرسمية ، وقلت فى مقالى بالحرف الواحد (ولا ادرى ما هو الاجراء الذى سيتخذه شاه ايران ضد مائة ألف دكان ومحل ومستودع فى انحاء العالم العربى من مكوجى الخليج العربى الى قهوة الخليج العربى الى جزار الخليج العربى ، وهل سيقوم بمناورات بحرية لكسر هذه الدكاكين وتحطيمها ، أم سيصدر أمرا للالتفاف حولها وتدميرها وأسر أصحابها).

ثم اختتمت المقال قائلا (وهب أن امى يرحمها الله كانت سيدة مجنونة ، وأنها كتبتنى فى شهادة الميلاد باسم محمود الخليج العربى ، فما الذى كان سيفعله شاه ايران بطائراته وغواصاته وقنابله العنقودية؟ وهل فى استطاعته ان يمحو ما اثبتته امى فى شهادة الميلاد؟ وأقول لشاه ايران بعد كل الذى جرى ، يا حضرة الشاهنشاه ربما يشفى الكلاب ويضرك!).

وفى البداية داخلنى الشك فى ان احمد الجار الله سيسمح بنشر المقال ، فقد كان هو نفسه الذى أجرى الحديث الشهير مع الشاه والذى هدد فيه الشاه دول الخليج ، ولكن عندما وقع بصرى فى اليوم التالى على المقال منشورا فى جريدة السياسة ، احترمت أحمد الجار الله الصحفى الذى ينشر رأيه ويسمح بنشر كل الاراء ولكن هذا المقال لم يمر بسهولة ، فرغم اننى كنت مقيما فى الامارات والمقال منشوزا فى الكويت. فقد شعرت بأننى تجاوزت الحدود المرسومة ، فقد

استدعانى عقب نشر المقال أحد المسئولين فى الدولة وعاتبنى عتابا رقيقا ، وقال لى : إذا أردت البقاء على هذه الارض ، فلابد ان تدرك موازين القوى فى المنطقة ، إن إيران تستطيع ان تسبب لنا اضرارا شديدة دون الدخول فى حرب ، ولو تلفت حولك فستجد ان كل شىء من ايران . . الخباز والبقال وبائع الخضر وتاجر اللحم وصياد السمك والخادم والفراش .

وقبل صدور «الفجر» بيوم واحد ، دس على النصاب المصرى الذى جاء ذكره فى بداية هذا الحديث خبرا فحواه ان هناك تعديلا وزاريا فى الدولة ، وأن الشيخ زايد سيصبح رئيسا لدولة الاتحاد ، والشيخ سلطان حاكم الشارقة نائبا للرئيس ، ولكنى شممت رائحة الفبركة فى الخبر ، فاتصلت بمسئول كبير فى الدولة ، وسألته رأيه فى الخبر الذى وصل الينا ، فقال إنها مجرد اكاذيب ، ولذلك صدم صديقى النصاب عندما طلعت الجريدة وعلى صدر صفحاتها الأولى مانشت كبير (وزارة جديدة فى الامارات) وتحت المانشت عنوان كبير (التعديل يستهدف تغيير السياسات وليس تغيير الاشخاص) وتخاطف القراء الجريدة ، فقد كانت جديدة فى اسلوبها وجديدة فى تبويبها ، وكان بها أخبار داخلية مثيرة لم يكشف عنها الستار بعد ، واستطيع ان ازعم انها كانت الطفرة الثانية بعد طفرة الاتحاد ، ولكن لأن «الفجر» كانت تابعة للقطاع الخاص ، ولأن صاحبها ورئيس تحريرها عبيد المزروعى كان وطنيا ومتحمسا ولديه احلام ، لذلك كله كانت «الفجر» تتمتع بهامش اكبر من الحرية وبمجال اوسع للعراك ، لذلك وبعد العدد الرابع ظهر بياع الجرايد لأول مرة فى الشارع وفى تاريخ الامارات .

******

لم تمر تجربة «الفجر» طويلا ، ولم يصدر منها إلا ستة عشر عددا بالتمام والكمال ، ونشرت لكتاب عرب كبار على رأسهم الشاعر الكبير نزار قبانى الذى شرفنى فى مكتبى فى «الفجر» والروائى الكبير الطيب صالح ، واستاذنا الفنان الراحل زكريا الحجاوى ، والفنان الراحل زكى طليمات ، وضمت عددا من الكفاءات الصحفية على رأسهم منيرعامر ومحمد العكش وعبدالفتاح الفيشاوى وهدى غيث واسامة عجاج وعبدالمنعم طاهر وابراهيم المطيرى ، ولكن الجريدة وضعت تحت ميكروسكوب ضخم ، وأحيطت سطورها بتفسيرات شتى ، فمقال زكريا الحجاوى بعنوان (برعى السعدنى وبهانة الحجاوى) فسروه على أن المقصود به هو انور وجيهان السادات ، ولم يكن زكريا الحجاوى يقصد شيئا من ذلك على الاطلاق .

وبالرغم من المشاكل والمتاعب ، فإن «الفجر» كان لها اصدقاء فى اجهزة الدولة ، فقد تلقينا فى العدد العاشر خطابا رسميا من السيد على شمو وكيل وزارة الاعلام بدولة الامارات في ذلك الحين ووزير الاعلام السودانى السابق يشيد فيه بدور جريدة الفجر فى تطوير صحافة الامارات ودفع مسيرتها خطوات واسعة الى الامام .

وفى العدد السادس عشر ، وفى اليوم الذى اجبرت فيه على ترك منصبى فى جريدة الفجر صدر فى جريدة الاتحاد ، الجريدة الرسمية للدولة مقال بقلم شردى «مدير التحرير يشيد فيه بجريدة الفجر ويؤكد فيه على ان الصحافة فى دولة الامارات كسبت مواقع جديدة بظهور جريدة الفجر التى قطعت فى اشهر قليلة خطوات واسعة يقطعها البعض فى عشر سنوات» .

ولقد تطورت الأمور بى وبالفجر الى طريق مسدود ، ففى العدد قبل الاخير ، نشرت الفجر قصة القبض على عشرات من المهندسين الاستشاريين الذين هبروا عدة بلايين من الدراهم بمساعدة بعض المسئولين فى وزارة الاشغال ، ونشرنا الاسماء كاملة ، وارقام المبالغ التى هبرت ، وكذلك اعترافات المتهمين- ولم تشر اية جريدة اخرى الى الخبر من قريب او بعيد ، وقد ضاعفنا الكمية المطبوعة ومع ذلك لم تستطع تلبية الطلبات التى انهالت علينا تطلب مزيدا من النسخ .

وفى العدد الأخير نشرنا قصة سفير دولة شرقية اسلامية كبرى أدخل فى حسابه الخاص مبلغا كبيرا تبرع به احد المشايخ لصالح الجالية الشرقية التى تنتمى الى جنسية السفير ، ولما انكشف الامر ، ذهب كبار رجال الجالية وكشفوا له أمر السفير وكانت فضيحة تولت وزارة الشئون الاجتماعية التحقيق فيها ، ونشرنا حديثا مع السفير ، واحاديث اخرى مع زعماء الجالية ، تبادل فيها الجميع الاتهامات ، ولكن موقف السفير كان ضعيفا لأنه اضاف الى رصيده الخاص مبلغا لم يكن له .

وفى العدد نفسه نشرنا خبر القبض على وكيل إحدى الوزارات اثناء وصوله الى مطار الدولة قادما من اوربا ، واحدث نشر الخبر ضجة كبرى ولكن قبل ان أرغم على ترك منصبى فى جريدة الفجر ، كان الرئيس السادات قد وصل الى ابو ظبى على رأس وفد كبير ، وكان ضمن الفندق فى المساء ابلغنى برغبة الرئيس السادات فى لقائى ، واكد على ضرورة الحضور الى دار الضيافة فى الحادية عشرة صباح الغد .

وبالفعل ذهبت فى الصباح الى دار الضيافة حسب موعدى مع عثمان ، ولكن مسئول الأمن المكلف بحراسة الوفد المصرى اثناء وجوده فى دولة الامارات رفض السماح لى بالدخول لأن اسمى ليس واردا فى كشف المسموح لهم بالدخول ، ولكن تحسين بشير المستشار الصحفى للرئيس السادات وقتئذ سمح لى بدخول القصر ثم وضعنى فى حجرة داخلية لم أخرج منها الا بعد ان غادر السادات ووفده القصر الى المطار فى طريقه الى البحرين .

وخيل الى ان الرئيس السادات رفض لقائى ، وأنها كانت محاولة من جانب عثمان باءت بالفشل ، ولكنى فى المساء تلقيت مكالمة تليفونية من البحرين ومن المستشار الصحفى تحسين بشير ، وكانت المكالمة تحمل رسالة شديدة الايجاز الرئيس السادات يطلب اليك الحضور الى الكويت غدا ، وسيستقبلك هناك ، ولم أفهم لماذا وافق الرئيس السادات على استقبالى فى الكويت ولم يوافق على استقبالى فى ابو ظبى ، ولكنى اكتشفت الأمر بعد أن وصلت الى الكويت والتقيت بعثمان هناك ، أن عثمان ابلغ الرئيس السادات انى سأكون عنده فى الصباح ، ولكنه نسى ابلاغ رجال الأمن ورجال الحاشية والسكرتير الصحفى للرئيس ، وظن الجميع عندما ذهبت الى القصر أننى أنا الذى أسعى من جانبى الى لقاء الرئيس دون اتفاق .

المهم أننى قضيت الليلة كلها فى جناح عثمان بفندق هيلتون بالكويت فى انتظار الأذن لنا بالمثول بين يدى الرئيس! وكان كلما استبد القلق بعثمان ، عاود الاتصال بقصر دسمان ، وكان الرد الذى يتلقاه دائما . الرئيس مشغول . وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، قالوا لنا ان الضيف خرج من عند الرئيس ، ولكن الرئيس مرهق ويريد ان تذهب اليه فى الصباح ، وهكذا

ذهبنا عثمان احمد عثمان وأنا لمقابلة الرئيس في قصر دسمان فى الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الاربعاء في نهاية شهر مارس من عام ١٩٧٦ .

ولكن قبل ان نذهب الى الرئيس ، يجدر بى أن أروى لكم قصة طريفة حدثت للعبد لله في الليلة السابقة على لقاء الرئيس ، فعندما تبدد الامل فى لقاء الرئيس في تلك الليلة . تركت عثمان ونزلت الى بهو فندق هيلتون لأجد كل الصحفيين المصريين المرافقين للرئيس ينتشرون في انحاء البهو ومعهم اخوة من الكويت وآخرون من المصريين المقيمين هناك ، ولمحنى السفير عمرو موسى ، فأقبل نحوى مرحبا مستفسرا عن المكان الذى كنت فيه . ، لأنه حسب تعبيره (داخ من اجل العثور على مكانى دون جدوى) وقال: إن نائب رئيس الوزراء اسماعيل فهمى يريدنى فى أمر هام ، ودهشت! ولم أكن قد تشرفت بمعرفة الدكتور اسماعيل فهمى ، ولم يحدث أن التقينا ولو عن طريق الصدفة فى أى وقت من الأوقات ولكن السفير عمرو موسى لم يمهلنى طويلا ، جرنى من يدى على الفور الى المصعد ، ومن المصعد الى جناح الدكتور اسماعيل فهمى وخرج الينا الدكتور يرتدى بيجامة عليها روب دى شامبر وينتعل شبشبا خفيفا فى قدميه ، ورحب بى ترحيبا شديدا كأننا اصدقاء منذ الف عام ، ثم اعتذر لى عن الغياب بضع دقائق لكى يدلى بحديث صحفى لاحدى الجرائد الكويتية ، ونصحنا بالاسترخاء وأن نأخذ راحتنا أنا والسفير عمرو موسى وأشارت أصابعه إلى زجاجة من الويسكى الفاخر ماركة «شيفاز ريجال» وكان ودودا اكثر من اللازم ففتح درجا واخرج منه كمية كبيرة من الفستق الحلبى الممتاز ، وقال وهو يهم بالانصراف ، لن اترككما طويلا ، سأغيب عنكما بضع دقائق

فأنا شديد الشوق للحديث معك ، وقد لا تعرف انك كنت فى بعض الاحيان سببا فى تصديع أذمغتنا على الدوام .

وكان الدكتور اسماعيل فهمى صادقا فيما وعد ، لم يغب عنا الا ربع ساعة ثم عاد ، وبدأ حديثه على الفور فاستعرض الأحوال فى مصر ولكن الحديث فى مجمله كان محوره هو شخصيا ، فهو الذى قام بمد الجسور بين مصر وامريكا ، وهو الذى فتح كنوز الولايات المتحدة امام المصريين وابدى اشمئزازه من التهم التى تنصب على رأسه من كل اتجاه بأنه عميل امريكى ، وقال اننى عميل فعلا ، ولكن لمصر ، وأنه لم يفعل الا فى حدود الاقتراح الذى كتب يوما ما (الجدع اللى بيشتغل معاكوا فى الصحافة) وفهمت بعد ذلك بأن الجدع المقصود هو محمد حسنين هيكل ولا جدع سواه ، وقلت يا سبحان الله لقد اصبح اسماعيل فهمى لشدة مسئولياته ومشغولياته لا يتذكر اسم محمد حسنين هيكل ، وكان منذ سنوات قليلة يتمنى ان يصافحه او ان يلقاه! ولكن هكذا الحياة كالساقية يوم فى العالى ويوم فى الواطى ، وعلى الذى فى الواطى ان يتحمل غدر الزمان ، ولكن على الذى فى العالى ايضا ان يتذكر دائما ان الزمان غدار .

ولكن أكثر ما أدهشنى فى حديث اسماعيل فهمى ، هو حملته الشديدة والضارية على شركائه فى حكم مصر . فسيد مرعى هو الحرباء التى تتلون بكل لون لكى تبقى دائما على السطح ، وممدوح سالم ضابط مباحث صعد بالتزوير والتلفيق الى قمة السلطة فى مصر ، وعثمان احمد عثمان مجرد مقاول جاهل لا يفهم شيئا ولا يحسن امرا ، ولكنه يشق طريقه الى القمة بالدولار واحيانا بالمارك .

وفى نهاية الحديث قال لى السيد اسماعيل فهمى ، لابد ان تعود الى مصر فورا وبلا ابطاء ، وعندما تصل الى مصر لا تقصد احدا الا انا ، واعطانى رقم تليفونه الخاص ، ورقم «التلكس» ايضا ، وقال اتصل بى قبل أن تعود لأرسل لك من يخرج بك من المطار ، وقال إننا جميعا في حاجة شديدة الى وجودك فى مصر هذه الايام ، وقال الرئيس يريدك الى جانبه ، فان لك قلما حادا ، ونحن على ابواب معركة مع العرب ، وسنفرد لك عمودا خاصا فى اية جريدة تختارها انت ، وسيكون اتصالك مباشرا بالرئيس «الرئيس يديلك الخط وانت تدى) .

واستوقفتنى هذه العبارة طويلا ، ونحن على أبواب معركة مع العرب ، الرئيس يدى وانت تدى! وأدركت مدى الخيبة التى تعيش فيها مصر ، وأن مصر لم تعد دولة واحدة ، وإنما عدة دول ، والحرب على أشدها بينهم على قدم وساق!

كان احساس اسماعيل فهمى بنفسه أضخم مما يجب وكان يشعر بحق أنه الحاكم الفعلى والوحيد ، وكان ذكيا بلا شك ، ومثقفا بالنسبة لشركائه فى المسئولية فى الحكم ، وكان لديه إحساس قوى بأنه الرجل الوحيد القادر على حل مشاكل مصروانقاذها مما هى فيه ، المهم أننى تذكرت حديث اسماعيل فهمى وأنا أخطو أولى خطواتى داخل قصر دسمان مع عثمان أحمد عثمان فى طريقى الى لقاء الرئيس السادات ولقد كان لقاء ولا كل لقاء مزيج من السخرية والمهزلة والمأساة .

موعد مع السادات

فــــى

الـطـريـق الـى

قـــصــــر دســـمـــــان

انتابتـى مشاعر غريبة ،

ولم يكن السـبب هو أننى فى

طريقى الى لقاء رئيس الدولة ، فأنا

قـابلت ملوكـا ورؤسـاء وقـادة ، ورجـالا

تاريخيين ، ومنذ فـجر شبابى التقيت بالبانديت

نهرو زعيم الهند العظيم وأحد الرجال الذين دخلوا

التـاريخ من أوسع أبوابه ، ولم أكن قد بلغت العشرين بعد

، وقابلت الملك محمد الخامس ملك المغرب ونزلت في ضيافته

بالرباط بعد عودته مباشرة من المنفى ، وقضيت فى حضرته عدة

ساعات أجريت خلالها حديثا معه نشرته جريدة الجمهورية القاهرية ، وسرحت مع الرئيس الجليل الحبيب بورقيبه بعد ان اصبح رئيسا لجمهورية بلاده وطفت معه تونس كلها ، من سوسة الى بنزرت ، ومن الكاف الى جزيرة مالطة ، ولم أكن قد بلغت الثامنة والعشرين بعد ، وكنت على صلة وثيقة بالرئيس والمواطن الأول والزعيم الراحل شكرى القوتلى ، وحضرت مؤتمر القمة الذى انعقد فى بيروت خلال العدوان الثلاثى على مصر ، وعشت اياما مع الملوك والرؤساء الذين حضروا مؤتمر القمة فى ذلك الوقت ، وقابلت الملك

حسين قبل ذلك فى عمان فى بداية عام ١٩٥٦ وكنت صديقا للزعيم السودانى الكبير محمد احمد محجوب ، وتشرفت بلقاء أغلب امراء وحكام الخليج ، وقابلت الرئيس حافظ الاسد وعرفت العقيد معمر القذافى وقابلت الرئيس صدام حسين ، كما اننى التقيت بالرئيس جمال عبدالناصر ثلاث مرات ، مرة فى منزله بمنشية البكرى عقب العدوان الثلاثى ، وذهبت مع الزميل سامى جوهر والبكباشى سيد ابراهيم ورئيس تحرير الجمهورية وكان هو انور السادات نفسه ، وذهبنا فى وفد لنقدم للرئيس عبدالناصر مجموعة من اعداد جريدة الجمهورية التى اصدرناها فى بيروت وقت العدوان ، والمرة الثانية كانت فى العام ١٩٦٧ ، وذهبت لمقابلة الرئيس مع وفود الصحفيين العرب الذين حضروا مؤتمر الصحافة فى القاهرة ، والمرة الثالثة كانت اثناء رحلته فى السودان ، وقد ذهبت اليه دون موعد ، ولم اعرف اننى فى طريقى الى مقابلة عبدالناصر الا بعد ان اصبحت امامه وجها لوجه .

وأصل الحكاية ان عددا من اصدقائى فى مجلس قيادة ثورة مايو بالسودان ، اذكر من بينهم خالد حسن والرائد زين العابدين والمأمون عوض ابو زيد . . وكنا نتناول طعام الغداء فى منزل مجاور للاستراحة التى ينزل فيها الرئيس عبدالناصر ، وبعد الغداء ، اقترحوا جميعا ان نذهب الى فندق جراند اوتيل وفى الطريق اليه توقفوا امام مبنى ودعونى الى الدخول ، وتصورت انهم فى طريقهم الى صديقى ، وفوجئت بهم يخرجون من قاعة ويدخلون فى قاعة حتى وصلوا الى ردهة ، وكانت دهشتى شديدة عندما رأيت الرئيس عبدالناصر يجلس فى صدر الردهة ، وكان يبدو عليه الارهاق ولون وجهه

يميل الى الاصفرار وجلسنا معه ربع الساعة ، وكانت هى المرة الاخيرة التى رأيته فيها قبُل ان يرحل الى رحاب الله .

لم يكن اضطراب مشاعرى إذن وأنا فى طريقى لمقابلة الرئيس السادات سببه أننى ذاهب لمقابلة رئيس الدولة ، ولكن اضطرابى كان سببه بالتأكيد أننى ذاهب لمقابلة أنور السادات ، فأنا أعرف الرئيس السادات منذ زمن طويل ، رأيته أول مرة فى بيت المرحوم زكريا الحجاوى ، وكان يسكن فى حارة ضيقة من حوارى الجيزة ، وذهبت اليه فى الصباح الباكر ، وفوجئت بزكريا يفتح الباب ويأمرنى بالانتظار لحظة فى مكانى ، ثم غاب لحظات داخل البيت قبل ان يعود ومعه صحن وسألنى : هل معك نقود؟ وقلت لزكريا ، وماذا تعنى بالنقود ، فالعشرة جنيهات نقود ، والخمسة قروش نقود ، وقال زكريا بحسم اسألك عن النوع الأخير ، قلت : نعم قال : اذن اذهب واشترى لنا فول مدمس وفجل وليمون وخبز وقليلا من الطرشى ، واحضرعلى عجل لنفطر معا ، ولاقدمك لشخص عظيم سيكون له شأن فى تاريخ البلد ، وفعلت ما أمرنى به زكريا الحجاوى .

وعلى مائدة الافطار قدمنى زكريا الحجاوى الى شاب يكبرنى بنحو عشر سنوات ، له جسم رياضى وسحْنة رجل من الجنوب ، وكان هذا أول لقاء مع أنور السادات ، ثم اصطحبنى زكريا الحجاوى بعد ذلك الى زيارة انور السادات ، وكان يسكن مع صديق له من الضباط الوطنيين اسمه حسن عزت ، ولم تكن الشقة التى يقيمان فيها الا سردابا فى بيت عبدالحميد عبدالحق باشا فى الشارع المسمى الآن بشارع صلاح سالم ، وفى منتصف المسافة بين

كوبرى عباس وميدان الجيزة ، ثم جلست مع أنور السادات بعد ذلك ، وسهرت معه امسيات طويلة فى كازينو شهريار ، وكان يعمل فى الكازينو شاب صاحب نخوة وشهم يتمتع بأخلاق ابن البلد الاصيل وكان يتغاضى عن ثمن الطلبات احيانا عندما يشعر أننا مفلسون. ولكن لان الحياة تعدل احيانا فهذا الشاب الان هو احد مليونيرات العصر ورجل اعمال يدير عدة فنادق ومطاعم ومؤسسات سياحية ضخمة.

وامتدت صلتى بأنور السادات بعد الثورة عندما عملت سكرتير التحرير مجلة التحرير ، وكان المرحوم احمد قاسم جودة هو رئيس التحرير ، وأنور السادات هو رئيس مجلس الادارة ، ثم اقتربت من أنور السادات اكثر عندما انتقلت للعمل كرئيس لقسم الشئون العربية بجريدة الجمهورية ، وكان أنور السادات هو رئيس التحرير ، وامتدت علاقتى به حتى بعد ان ترك جريدة الجمهورية وذهب لرئاسة مجلس الأمة ، وتركته انا الآخر الى مؤسسة روزاليوسف.

أذكر واقعة حدثت بينى وبين الرئيس السادات فى اوائل الستينات وهى تعطى انطباعا عن كيفية تفكير الرئيس السادات وكيفية تصرفه ، فقد حدث اننى كنت فى زيارة لليمن خلال الحرب بين اليمن الملكية واليمن الجمهورية وكنت ضمن وفد صحفى يتكون من ثلاثة : الاستاذ حسن فؤاد والاستاذ صبرى ابو المجد وأنا ، وفوجئنا ونحن فى مطار صنعاء بالمشير عبدالحكيم عامر ومعه أنور السادات يغادران على نفس الطائرة التى اقلتنا من القاهرة ، وعندما رآنى أنور السادات جذبنى من يدى ، وقال لى بلهجة ودود ، عفارم عليك

ياواد يا محمود اللى جيت هنا ، أنا مش هخليهم يسمحولك بمغادرة اليمن إلا أما تعرف لنا إيه الحكاية احنا غلب حمارنا مع الناس بتوع اليمن دول ، مش فاهمينهم حاول وأنت هنا تعرف ايه الناس دول ، بيضحكوا بينكتوا ، عندهم روح السخرية ، ماعندهمش ، ماحدش هيعرف يقعد مع الناس دول ويفهمهم الا واحد زيك أنت .

واستدعى مدير الشئون العامة للقوات المسلحة فى اليمن وكان برتبة عقيد واسمه حسان - على ما أذكر - وقال له لا تدع السعدنى يغادر اليمن حتى ينتهى مما كلفناه به ، وقال لى وهو يصافحنى مغادرا عندما تصل الى القاهرة ، اتصل بى على الفور ، فأنا فى شوق لأسمع منك نتيجة عملك الذى ستقوم به هنا .

وأذكر أننى قضيت فى اليمن شهرا فى رعاية خاصة ، ولم أتمكن خلال الشهر من مقابلة يمنى واحد ، أو الدخول فى بيت واحد من بيوت اليمن اللهم إلا بيت الشيخ على ناجى القوصى شيخ قبائل الحدا ، وعندما تركت اليمن لم أتصل بأنور السادات ولم يتصل بى ايضا . وعندما اجتمعت به فى مكتبه بعد ذلك بسنوات لم يذكر شيئا عن المهمة التى كلفنى بها فى اليمن ، ولم يبد عليه انه يذكر حرفا مما دار بيننا فى مطار صنعاء ! !

وأذكر أنه استدعانى فى العام ١٩٦٨ الى مقابلة عاجلة فى منزلة بشارع الهرم ، وعندما ذهبت اليه استقبلنى بود وراح يسألنى بصفتى مسئولا عن التنظيم الطليعى لقسم الجيزة عن سير المعركة الانتخابية ، ثم سألنى عن مرشحة بذاتها ، وأكدت له أن فرصتها فى النجاح ضئيلة للغاية ، وسكت ولم يعلق بشىء ، ولكنه سألنى فجأة ، مين مسئولك فى التنظيم يا محمود ، ولما

اجبته ، شعراوى جمعه ، قال على الفور بلهجته المعروفة ، دا راجل عظيم يا محمود ، وكان آخر لقاء بينى وبينه وهو نائب رئيس الجمهورية ، وزرته فى شهر رمضان وقضيت معه سهرة طويلة من العاشرة مساء حتى الفجر وتناولت معه طعام السحور ، ولم أكن وحدى الذى قضى معه السهرة ، ولكن كان معى الاستاذ فريد عبدالكريم امين الاتحاد الاشتراكى لمحافظة الجيزة وكانت المناسبة هى محاولة التوفيق بينهما ، وقد بذلت جهدا كبيرا فى سبيل ذلك ، وبدا لى فى نهاية السهرة ان الوفاق قد حل ، ولكنى كنت واهما لأنه اصر فى عام ١٩٧١ على اصدار حكم الاعدام على فريد عبدالكريم امام ما يسمى بمحكمة الثورة .

والحق أقول أن ما ارتكبه فريد عبدالكريم فى حق أنور السادات وحوكم وعلى فرض ان التهم صحيحة لا تستحق حكما اكثر من ثلاث سنوات ، فتهمته لا تخرج عن دائرة إهانة رئيس الجمهورية ، ولكنه اتهمه بالخيانة العظمى ، وحكمت المحكمة بالاعدام و (تعطف) الرئيس السادات وخفف الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

ولم التق بأنور السادات وهو رئيس الجمهورية ، وأغرب شىء أن النائب العام وجه الى سؤالا : لماذا لم تذهب لزيارة الرئيس السادات وهو رئيس الجمهورية؟ وهل صلتك بمراكز القوى لها دخل فى ذلك؟ وكانت إجابتى للنائب العام : ان الذى منعنى من زيارة رئيس الجمهورية هو شدة اشغالى بتثبيت دعائم حكمه باعتبارى مسئولا فى التنظيم الطبيعى وباعتباره الرئيس الأعلى للتنظيم .

تذكرت كل ذلك ، ولهذا ايضا اضطربت مشاعرى بشدة وأنا فى طريقى مع المهندس عثمان أحمد عثمان الى حيث ينتظرنا الرئيس السادات لاستقبالنا ، ولقد وقفنا على بابه بعض الوقت فقد كان لديه وفد من التليفزيون الكويتى برئاسة محمد السنعوسى للتحضير للمؤتمر الصحفى الذى كان سيعقده عقب لقائى به مباشرة ، ولقد بدت الدهشة على وجه محمد السنعوسى عندما رآنى اقف على باب السادات ، فقد كان يعلم انى طريده ، وقد رحب بى فوزى عبدالحافظ سكرتير السادات الخاص واحتضننى بقوة ولكنى اكتشفت بعد لحظة ان الاحضان لم تكن بسبب الشوق ، ولكن لتفتيشى . وقلت لفوزى عبدالحافظ - وهو صديق قديم - أنا لا أحمل سلاحا يا عم فوزى ، أنا أحمل قلما لا أكثر ولا أقل . وابتسم فوزى عبدالحافظ وطرق الباب عدة طرقات قبل أن يأذن لنا بالدخول ، أخيراً ، ها هو الرئيس السادات والعبد لله امامه وجها لوجه .

ودخلت الحجرة التى يجلس فيها الرئيس السادات أولا ، يتبعنى المهندس عثمان احمد عثمان ، كان السادات جالسا على مقعد فوتيه له مسند مستطيل ترتفع حافته ، وعندما القيت نظرة خاطفة عليه ، لم أشعر لحظة بأن هذا الجالس أمامى هو أنو السادات رئيس مصر ، ولكنه أنور السادات ضابط الجيش المفصول الذى رأيته أول مرة فى بيت زكريا الحجاوى ، بالرغم من أنه كان يحاول جاهدا أن يبدو كفرعون ، فرد ظهره تماما ووضع ساقا على ساق وتقلصت عضلات وجهه وراح يمضغ الهواء بين اضراسه فى حركة عصبية ظاهرة ، ولم أتوقع بالطبع ان ينهض الرئيس السادات واقفا عند لقائى ،

ولذلك اتجهت اليه مباشرة ، فمد يده فى حركة بطيئة وقلت بصوت عال وأنا اصافحه ، على الطلاق ما إنت واقف ياريس! «وبدت على شفتيه شبح ابتسامة سرعان ما اجهضها وكان مصدر عصبيته بلا شك هو هذا الموقف الذى وجد نفسه فيه فجأة فالمفروض أننى من اعدائه ، والأكيد أننى تطاولت عليه بالنكتة والشائعة ، وهى امور ثابتة فى محاضر التحقيق وفى اشرطة التسجيل ، وكان لابد ان يلقانى بتهجم وينهرنى بشدة ولكن لأنى محمود السعدنى ولأن بينى وبينه روايات وحكايات طويلة ، فكان لابد ان يضحك ، ومن هنا كانت عصبيته ، فهو يخشى ان ينفجر ضاحكا فجأة ، فينهار الموقف الدرامى .

وعندما جلست امامه ، القيت عليه نظرة فاحصة ، انه يبدو مرهقا للغاية ، وتحت عينيه طبقة شديدة من السواد ، وفى انحاء وجهه تجاعيد ظاهرة وكان لونه شاحبا ، وقبل ان يهم بالكلام بادرته قائلا : اللهم صلى على النبى يا ريس ، وشك زى القمر» ويشهد الله اننى كنت كاذبا فيما أقول» ولكنه ارتاح للاطراء ، وخفت حدة توتره ، وقال بلهجة عادية وبصوت خفيض : أنا مرهق يا واد ، وقلت على الفور ، إذا كان الارهاق يعمل فيك كده ياريس ، خليك مرهق على طول ، واستند بظهره على مسند الكرسى ، وارعش قدمه اليمنى التى تنام على ساقه اليسرى وقال وقد عاد الهدوء اليه ، «أنا بأبنى مصر ياوله» مصر بقت حاجة ثانية ياوله ، أنا عاوزك جنبى يا وله ، تعالى ابنى معايا ياوله . »

واستوقفتنى عبارة «تعالى جنبى» اذكر أن الأمير - قطز بطل معركة عين جالوت التى اباد فيها صنف التتار فقد حياته بسبب عبارة مثل هذه ، فقد حدث

بعد انتصاره فى المعركة أن طلب اليه الظاهر بيبرس احد قواده ان يفى له بوعده ، ويمنحه ولاية حلب ، ولكن السلطان قطز قال له : لا سيبك من حلب دى ، أنا عاوزك فى مصر جنبى ، فخاف الظاهر بيبرس من عبارة «عاوزك جنبى» وفسرها على انها حكم بسجنه فى القلعة ، فقد كا مقر السلطان والسجن متجاورين ويضمهما سور القلعة ، وفى الحال طعنه الظاهر بيبرس وقتله ، وجلس مكانه على عرش مصر ، ولكن السادات لم يكن قطز ، ولا انا الظاهر بيبرس ، فبلعت الكلمة وسكت ، وقبل أن أفيق من شطحتى البعيدة ، كان السادات يسألنى : «الواد الممثل ما جالكش وقال لك أنا عاوزك» وسألته : الواد الممثل مين يا فندم ، حسن صبرى الخولى وكان حسن صبرى الخولى يشغل منصب الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية فى ذلك الوقت . وقال السادات على الفور ، لأ ، لأ ، أنا أقصد الواد الممثل الثانى أخوك هو اسمه إيه يا وله ، قلت صلاح السعدنى ياريس أجاب : أيوه هو ده ، أنا قلت لممدوح سالم أبعت الواد الممثل يجيبه ، ونفيت للسادات ان يكون شقيقى صلاح السعدنى قد اتصل بى أو قابلنى منذ خروجى من مصر وبدت الدهشة على وجه السادات ، وهز رأسه هزة شديدة ونظر نظرة ذات معنى الى المهندس عثمان احمد عثمان وفهمت من الهزة والنظرة ان ممدوح سالم لم ينفذ الأمر ، ولكن السادات عاد فاعتدل من جديد وشد قامته وراح يمضغ الهواء بأضراسه ، وقال : لكن ياوله انت ساعة المعركة وقفت ضدى ، وأنا كنت فاهم إنك هتقف جنبى ، لكنك وقفت جنب الجماعة التانيين ، وتآمرت على .

وقلت للرئيس السادات فى بساطة شديدة ، هو كان فيه عركة ياريس؟ أنا ما عرفتش إن فيه خلاف الا فى التحقيق وبعدين سيادتك ما بعتليش ليه حد يقوللى إن فيه خلاف؟» وكان سؤالى وجيها ومنطقيا وواضحا وبسيطا ولذلك سارع الرئيس الى تغيير مسار الحديث ، وقال بلهجة واثقة وكأنه ينطق حكما لا نقض فيه وإبرام: ولكن انت كنت خايف منهم ياوله» وترددت لحظة فى الاجابة وقلت على الفور: فعلا ياريس أنا كنت خايف منهم ، فعقب على الفور قائلا: عندك حق ياوله ، أنا كمان كنت خايف.

والتقطت الخيط من السادات وأخذت راحتى تماما وقلت: طيب إذا كنت أنت رئيس الجمهورية وخايف ، أمال أنا اعمل ايه ياريس ، وعاد الرئيس السادات يقول: عندك حق ياوله. ببراءة ثم صمت قليلا وقال: ورحت ليبيا ياوله ، قلت: ايوه ياريس . عاد يقول ، وقابلت القذافى مرة؟ قلت: نعم ثلاث مرات ، وسألنى السادات فى دهشة ثلاث مرات ياوله؟ قلت: نعم ثلاث مرات ، وزرت ليبيا اكثر من مرة ، وأعلم ان بعض الموظفين نقلوا اليك أننى هاجمتك من إذاعة ليبيا وأنى كتبت ضدك فى جرائدها ، ولكننى ياريس اتحداهم جميعا ان يثبتوا بالدليل المادى صحة هذه المزاعم التى نقلوها اليك ، ولكنه شىء طبيعى هذا السلوك من جانبهم فأنا أعرف مدى حقارة هذا الموظف وأعرف مدى نذالته ، فنظر الى السادات نظرة فاحصة وقال:

مين هو ياوله؟ وذكرت له اسم أحد الموظفين الكبار الذين عملوا فترة فى سفارة مصر فى ليبيا ، وعندئذ سألنى السادات سؤالا غريبا ، هو قريبك ياوله؟ قلت للرئيس السادات مازحا «بالقطع مش قريبى ، وان كان هو يزعم ذلك

لكى ينتسب الى علية القوم ، وضحك السادات لأول مرة ضحكة صافية وقال والضحكة لا تزال ترن فى حلقه ، الله يخيبك ، ثم قطع الضحكة وعاد يسألنى فى لهجة اشبه بالتحقيق . . لكن انت كتبت فى جريدة السفير ياوله ، قلت : نعم ، وكتبت تسعين مقالا على وجه التحديد ، وهاجمت فيها كل شيء وأى شيء ، ولكنى لم أمس شعرة واحدة من رأسك .

وقال السادات وقد عاوده الهدوء براءة ياوله ، ثم حدق فى وجهى وخبط مسند الكرسى براحة يده وقال : بس أنت لسانك وسخ قوى ياوله وعاوز قطعه ، وعقب عثمان على حديث الرئيس ، وكانت المرة الأولى التى يفتح فيها فمه ، وكانت تبدو في لهجته روح المزاح ، ودا موش يستاهل قطع لسانه بس ، دا يستاهل قطع رقبته ، والتفت الى المهندس عثمان وقلت له زاجرا : اوعى تشتم يا عم عثمان أنا بأحذرك» الرئيس بس هو اللى بيشتم .

وضحك السادات ثم قال : أنت تعرف عثمان من زمان؟ واجبته بالإيجاب . ثم قلت : ولكنى أعرف سيادتك قبل منه ، لكن هو اللى جابنى لك النهاردة ، والأصول أنا اللى أجيبه ياريس . وعلى فكرة وهو جايبنى النهاردة وداخل القصر ، كان فاهم أن له نفوذا هنا ، وعند الباب واحنا داخلين بص للعساكر وقاللهم سيبوه ، دا معايا ، فسأله العسكرى ، انت مين؟ فقلت لهم سيبوه دا معايا ، فضربوا له سلام .

كانت نكتة بالطبع ، ولكن السادات لم يأخذها على هذا النحو فسألنى وهو شديد الدهشة ، انت مشهور هنا ياوله؟ فقلت : أنا مشهور هنا وفى العالم العربى كله ياريس ، قال : عجايب! مع انك بتستخدم العامية المصرية كثير

ياوله ، وقلت له : العامية المصرية هي لهجة العرب ياريس ، والهموم المصرية هي هموم عربية ، والإهتمامات المصرية هي اهتمامات عربية .

وهنا قال الرئيس السادات تعليقا لم أفهم ابعاده وقتئذ ولم أفطن الى معناه : ايوه لكن دوخونى يا وله ، وإحنا مش هندبح نفسنا عشانهم ، أنا عاوز انقذ مصر ياوله . وقلت للرئيس السادات دون أن أفهم ماذا كان يقصد بالضبط ، ، لقد كتبت مقالا بهذا المعنى بالأمس نشرته فى جريدة السياسة . وقال على الفور قرأته وانبسطت ، كان مقالا جيدا ، والنهاردة قرأت مقالات الناس اللى شتمينك ، ما انتش خايف منهم يا وله؟ وقلت له مازحا : دا رزق من عند الله ياريس ، أنا با أصحى كل يوم ياريس اطلب من الله ان يرزقنى بمن يشتمنى كى اتمكن من شتيمته ، واليوم رزقنى الله بثلاثة دفعة واحدة وهو رزق اشكر الله عليه .

وضحك الرئيس السادات عميقا وسألنى : «أنت بتشتغل فين دلوقت؟ فى جريدة السياسة بس؟ قلت للرئيس السادات : «أنا أكتب عمودا يوميا فى السياسة ، وأعمل فى نفس الوقت مديرا لتحرير الفجر فى ابو ظبى ، واتقاضى عن عملى فى الجريدتين خمسة عشر ضعف ما كنت اتقاضاه وانا رئيس لتحرير صباح الخير ، فقال السادات : «الفلوس مش كل حاجة يا وله» فقلت : « ما أنا كنت راضى بس سيادتك منعتنى من الكتابة وفصلتنى من المجلة وشغلتنى مقاول عند المهندس عثمان وقال عثمان معلقا ، أنت تطول تبقى مقاول عندى ، فقلت له ياسيدى أنا مش طايل ولا حاجة ، بس أنا مش مقاول يا عم عثمان ، أنا صحفى وكاتب ، ما أعرفش حاجة غير كدة .

وقال السادات: «أنا كنت هزجعك ياوله بس أنت ماعندكش صبر» وعلق عثمان قائلا: الريس قلبه كبير. ونظرت نحو عثمان، فوجدته يجلس على حافة الكرسى ويتعمد الظهور فى صورة رجل الحاشية المنضبط المطيع، وكنت أعلم ان علاقة عثمان بالسادات ليست على هذا النحو، كان هو الوحيد بين رجال الحاشية الذين يمكن ان تطلق عليه وصف صديق السادات، وكانت العلاقة بينهما علاقة الند للند، بل ان عثمان كان فى واقع الأمر هو مستشاره الحقيقى ومعلمه، وعلى درب عثمان كان يسير السادات وليس على درب السادات كان يسير عثمان، ولأن السادات كان عصاميا ارتفع من السفح الى القمة فإنه بالضرورة كان شديد الاعجاب بهذا النموذج الآخر الذى حقق المعجزة وارتفع من القاع الى القمة دون ان يستخدم سلاحا او كتائب عسكرية، ولكنه ارتفع بسلاح آخر، هو فى الحقيقة افضل وابتر من كل سلاح، وهو سلاح المال، ولعل هذه النقطة بالتحديد كان لها تأثير السحر فى عقل وقلب السادات، ولذلك كان فى ايامه الأخيرة لا يجتمع ولا يقابل ولا يستمع الا للمهندس عثمان، لقد كانت فترة صمت مضت ونحن جلوس، السادات وعثمان وأنا قطعها السادات قائلا، وفى كل السنين دى ماشفتش امك ياوله؟ وهزنى السؤال بعنف وشعرت بأننى على وشك البكاء.

لحظة وسألنى الرئيس السادات عن احوال الوالدة، غلبنى التأثر ولزمت الصمت واكتفيت بالنظر اليه وكانت نظرة ذات مغزى، وقلت له: إن الحكومة ياريس هى التى فصلتنى من عملى وحاصرتنى فلا انشر ولا أذيع، ولا ترى أعمالى النور على خشبة المسرح، ورد الرئيس مشيت ليه ياولد؟ ما أنت لو

كنت انتظرت شوية كنت (غفرتلك) قلت : جنون بقى ياريس ، فرد معاتبا : إنت فعلا مجنون ياوله ، وقلت ضاحكاً : مجنون وابن مجنونة ياريس وقال الرئيس السادات خلاص ياوله إحنا من النهاردة صافى يالبن ، والله مافى نفسى حاجة من ناحيتك ابدا يا واد يا محمود ، وارجع وعاوزك جنبى بس قول هاتيجى إمتى؟ وتدخل المهندس عثمان أحمد عثمان فى الحديث وقال : أنا اتفقت معاه ورتبت كل حاجة يا ريس . وقال الرئيس على خيرة الله ، وتدخلت فى الحديث وقلت للرئيس السادات : أنا مفصول يا ريس وبقرار جمهورى ، واذا عدت الى مصر فلا بد أن اعود الى عملى ، وقاطعنى السادات قائلا : دى كلها مسائل هايفة هنحلها على الفور .

ولا أدرى لماذا تصورت ان الرئيس السادات سيصدر قرارا فوريا بالغاء قراره السابق ، ولكنه لم يفعل شيئا ، ثم انحرف بالحديث الى وجهة أخرى وراح يتحدث عن مسئولياته الثقيلة وعن ارهاقه فى العمل وعن محاولاته لاعادة مصر الى الطريق الطبيعى ، وكرر عبارة الطريق الطبيعى أكثر من مرة! ثم قال كأنه يحدث نفسه : خربوها الله يخرب بيوتهم ، ولم أفهم ماذا يعنى الرئيس السادات بهؤلاء الذين خربوها (الله يخرب بيوتهم) .

ثم راح يتحدث عن رحلته الاخيرة فى البلاد العربية وأعلن عن ضيقه الشديد بموقف العرب ، وقال : أنا مابقتش استحمل خلاص ، أنا روحى بقت فى مناخيرى ، اذا ماسمعوش كلامى هم اللى هايندموا .

ولاذ بالصمت فترة قبل ان يقول : خلاص يا واد يا محمود إحنا اتفقنا تعالى مصر ان كنت عاوز وهتلاقى كل شىء سهل .

كان هذا ايذانا بانتهاء المقابلة ، فى هذه المرة نهض واقفا وصافحنى بود فاحتضنته وقبلته ، وخرجت مع المهندس عثمان ، وخرج الرئيس بعدنا مباشرة الى المؤتمر الصحفى ، وبينما استخدم الرئيس الاسانسير الى الدور الارضى فى قصر دسمان ، استخدمنا الدرج المهندس عثمان وانا . التفت المهندس عثمان نحوى ونحن نهبط الى الدور الارضى وقال ، شوف بقى الريس قلبه كبير ازاى؟ وقلت لعثمان مازحا : بس اياك يفضل قلبه كبير على طول .

وقبل ان نصل الى نهاية الدرج ، حدثت واقعة مضحكة ومحزنة ايضا فقد لمحت صحفيا كان زميلا لى فى زمن مضى ، كانت علاقتى به حسنة وبينى وبينه مودة ، فناديت عليه لاصافحه لكنه عندما رآنى تسمر فى مكانه لحظة ثم لاذ بالفرار ، وكان منظره مضحكا وهو يجرى مسرعا وصوتى يلاحقه حتى اختفى داخل القاعة المخصصة للمؤتمر .

ولقد كان مع الرئيس السادات وفد صحفى كبير ، بعضهم صافحنى بفتور وبعضهم ابتسم لى ابتسامة باهتة ، الوحيد الذى صافحنى بحرارة وتحدث معى بود وزارنى فى مكتبى عندما كان فى ابو ظبى ، هو عبدالستار الطويلة .

كنا قد وصلنا ـ المهندس عثمان وأنا ـ الى باب القاعة الذى سيعقد فيها المؤتمر حيث فوجئت بالسيد اسماعيل فهمى يقف كالنمر المفترس وهو يحدق بنظرات ذات مغزى الى المهندس عثمان احمد عثمان ، ولم أفهم فى البداية سر هذه النظرات الملتهبة حتى بادر عثمان : أنا ماليش ذنب هو اللى مسك فيه واجبرنى على مقابلة الريس ، وأردت أن أخلص المهندس عثمان من هذا المطب فقلت : فعلا أنا اللى رحت للمهندس عثمان وأنا اللى صممت على مقابلة الريس ، فقال اسماعيل فهمى قلتلك (ماتروحش) فقلت : ما هو ده الريس بتاعنا ومش

عيب الواحد يروح له. وعندئذ هز رأسه وكظم غيظه وقال: طيب، طيب، ثم تركنى عثمان على باب القاعة ودخل مع اسماعيل فهمى الى المؤتمر، ونشرت خبر لقائى بالرئيس السادات بالصفحة الأولى من جريدة السياسة، ولم أنشر تفاصيل المقابلة أو شيئا مما جرى فيها، ولكنى حكيت ما دار فيها بالتفصيل فى جلساتى الخاصة، وحكيته بالصوت والصورة اى اننى كنت أقوم بتقليد الرئيس السادات اثناء المقابلة، ويبدو ان هذه الحكايات ذاعت وانتشرت فى الكويت، لذلك أوعزت السفارة المصرية الى أحد الموظفين وهو مصرى وهارب من مصر من حكم نفقة فكتب بعفو عنى وأنه وعدنى بالنظر فى هذا الامر كما ادعى الموظف الهايف اياه، لما سمح السادات بمقابلتى، وما كان أغناه عن اضاعة هذا الوقت الثمين مع مواطن سيعده فى آخر الأمر بالنظر فى أمره، المهم ان هذا الشخص نفسه سعى بعد ذلك للتعرف على واكتشفت انه رجل طيب ومغلوب على امره، واعترف لى بأن السفارة دفعته الي هذا الموقف.

وعندما عدت الى دولة الامارات بعد لقائى بالسادات فى الكويت استدعانى احد المسئولين واستمع منى إلى تفاصيل ما دار فى اللقاء، وبعد ذلك بأسبوع واحد وجدت نفسى بلا عمل فقد افتعلوا خلافا معى في جريدة الفجر، واستدعانى مسئول كبير فى الدولة وقال لى تستطيع أن تذهب الى اى مكان فى العالم ونحن حاضرون. وشكرت المسئول على موقفه الطيب وقلت له اننى مازلت قادرا واستطيع العمل في اي مكان، وطلبت اليه طلبا واحدا هو ان يسمح لأولادى بالبقاء فى الامارات حتى ينتهوا من امتحاناتهم، ووافق المسئول على الفور وقال لى بود شديد هذه بلادك وهنا دارك، واولادك

سيبقون هنا حتى ينتهوا من امتحاناتهم ، وسأعتبرهم ضيوفا على شخصيا حتى يغادروا الى مصر .

وفى المساء زارنى الاستاذ على شمو وزير الاعلام السودانى السابق وكان يعمل وقتئذ مستشارا للاعلام فى دولة الامارات وسألنى بعد أن انتهينا من احتساء الشاى عن موعد سفرى ، وعندما قلت له أننى لم أحدد موعد سفرى بعد ، قال : أتمنى أن تحدد هذا الموعد فى مدة اقصاها اسبوع ، ولما استفسرت منه عن السبب قال : لأننى أتمنى أن اكون فى وداعك ، وأضاف وأنا مسافر بعد أسبوع إلى الخارج وفهمت ما يعنيه على شمو فقلت له : إذن سأفر بعد اسبوع ، وبالفعل سافرت الى الكويت بعد اسبوع ، وتركت أولادى فى الامارات ، وأخذت مكافأتى عن العمل لمدة عام واحد وليس لمدة عامين كما حدد العقد ، ومع ذلك فأنا اشهد لعبيد المزروعى بأنه على خلق ، وترك لى سيارته الجديدة استخدمها حتى غادرت البلاد ، وعندما اجتمعت به وأنا فى طريقى الى المطار ، قلت له : إننى لم اخطىء يا أخ عبيد فى حقك ، لقد اتفقت معى ومنذ البداية على خط الجريدة وعلى شعارها المرفوع ومهما حدث فلن يكون بينى وبينك خلاف لأنى اعلم بأنه لا دخل لك فيما حدث . ورد عبيد : الحمد لله إنك تعرف هذا يا أخ محمود وكان هذا آخر لقاء بينى وبين عبيد المزروعى .

فى الاسبوع الثانى صدرت جريدة الفجر وبدون اى تغيير ، إلا ان الشعار الذى كان مرفوعا على رأسها (جريدة الخليج العربى) كان قد اختفى تماما ولم يظهر لى اى اثر بعد ذلك . وحدث شىء آخر غريب . . فقد كانت كل السفارات العربية والاجنبية الا السفارة الايرانية الشاهنشاهية تشترك فى

المجلة ، وفى اليوم التالى لابعادى عن الجريدة اشتركت السفارة الايرانية بمائة وخمسين نسخة للتعبير عن فرحتها للانقلاب الذى حدث فى الجريدة .

وتولى أمر (الفجر) بعدى شاب مصرى هو أسامة عجاج وهو واحد من اولئك الذين سافروا الى الخليج مع بداية ظهور النفط ، واشتغل بالصحافة عندما كانت الصحف مجرد نشرات حكومية مطبوعة طباعة سيئة وليس فيها أى أثر للفن الصحفى ، ولم يكن لدى احد من هؤلاء خبرة بهذا العمل من قبل ، ومع ذلك وبمرور الزمن تمكن هؤلاء من اكتساب خبرة لا بأس بها وأصبحوا من أعمدة هذه المهنة هناك . واستطاعوا برغم الظروف الرهيبة والطقس شديد الحرارة وعدم وجود قراء بالحجم المطلوب ، استطاعوا برغم كل شىء النهوض بهذه المهنة ، والوصول بها الى افاق عريضة .

ومن الظواهر التى هزتنى بعنف وجود عدة مواهب فذة لم تأخذ حظها فى البداية ، ولم أصنع لها شيئا الا ان فتحت لها الباب ووضعتها على اول الطريق ، من بين اصحاب هذه المواهب الاديب الفلسطينى اسامة فوزى والفنان المصرى محمد العكش والصحفى هندى غيث . . واعترف لكم الآن بأنى استفدت من جريدة الفجر فائدة كبيرة ، وأنها كانت تجربة هامة فى حياتى ، ومن خلالها استطعت انى اتعرف على الخليج من نافذة حية وساخنة ، وأدركت خلالها ان الخليج ليس فقط كما يتصور البعض هو ارض النفط والفرصة السانحة والثراء العاجل ، ولكنه ايضا ارض الرمال المتحركة والمشاكل العديدة والمطامع الخفية . وعندما طارت الطائرة الى الكويت القيت نظرة على مدينة ابو ظبى وتمنيت ان أعود اليها مرة أخرى ، وقد استجاب الله لدعائى ، وعدت وبدعوة من الامارات .

الحزب الثورى !

خرجت
من مطار
الكويت فى الساعة
الثانية ظهرا الى بيت احمد
الجار الله ، كانت صدفة غريبة
لأنى وجدت نفسى ضيفا على مادبة
غداء اقامها احمدالجار الله فى مرله على
شرف السفير الايرانى . الذى كان قد ترك
منصبه كسفير لبلاده فى الكويت . وفى طريقه الى
طهران . وكان معه مستشار السفارة الايرانية ويدعى
محمود . وهو يتقن العربية وعلى علم كبير بادابها وفنونها .

ويبدو ايضا ان المستشار محمود كان يعلم عنى اشياء من خلال التقارير التى كانت ترد اليه من دولة الامارات . ولذلك راح يسألنى عن سبب تركى العمل فى جريدة الفجر ، واكتشفت ان لديه معلومات وفيرة عن الجريدة وما كان ينشر على صفحاتها .

ولقد لفت نظرى انه عندما جاء ذكر «ابو نواس» اثناء الحديث وقلت انه كان شاعرا ، عربيا ، باللسان وفارسيا بالقلب . وذكرت بيت شعر له سخر فيه من العرب وهو : (قل لمن يبكى على رسم درس واقفا . .) اذكر ان المستشار محمود اكمل البيت على الفور (ماضر لو كان قد جلس) .

وجدت فى الكويت جوا يشغلنى عن الجو الذى كان فى الامارات. ففى الكويت دولة قوية ومجتمع اكثر انفتاحا. وصحافة حرة الى حد كبير، وكان الجار الله نوعا مختلفا من الصحفيين الذين عرفتهم فى الخليج. كان عاشقا للمهنة ومخلصا لها. وصل بالمهنة من ادنى درجات السلم الى اعلاها بمزاج الهاوى وبصنعة المحترف.

عندما اتفقت على العمل معه فى جريدة السياسة اصررت على كتابة عقد لمدة سنة، وقال الجار الله انه لا يكتب عقدا مع احد، واضاف: ولكنى سأكتب عقدا معك اذا اصررت على ذلك. وقلت لأحمد الجار الله. أنا لا اخشى سوء تصرف يحدث من جانبك، ولكنى اخشى امورا قد تحدث خارجة عن ارادتك. ولكن إذا ضمنت لى عاما على الاقل. فسأقبل العمل معك بدون عقود. وقال احمد الجار الله: اعتبرنى مسئولا عنك مادمت فى المنفى.

وقبلت العمل مع احمد الجار الله معتمدا على هذا الوعد، وان كنت بينى وبين نفسى لم اكن واثقا بأن هذا الوعد سيأخذ طريقه الى حيز التطبيق، خصوصا اذا حدثت امور اقوى منى.. ومن احمد الجار الله.

ولقد سبق للعبد لله ان سمع كلاما مثل هذا من آخرين. احدهم هو مدعى بطولة ويسارية وكفاح ونضال. ويدير جريدة مفتوحة على الجهات الاربع الاصلية. قال لى الكلام نفسه، ولكن عند التنفيذ، تبخرت الوعود، ورفض ان يدفع لى اجر الشهر الاخير، وقال: ان جريدتنا فى قلعة القومية والوطنية ومن يترك مكانه فى القلعة. لا يجب له ان يطالبنا بحقوق.

ولكن الأمر مع احمد الجار الله كان يختلف. عندما تطورت الظروف وحكمت بخروجى من الكويت. وكان ذلك فى اليوم الأخير من رمضان فى

عام ١٩٦٧ ، وكانت عائلتي قد وصلت الى الكويت قبل ذلك بثلاثة اسابيع فقط ، وذهبت الى احمد الجار الله منفعلا متوجسا وفى خاطرى ان معركة ستنشب بيننا لا محالة . . حالة نفسية لم استطع التخلص منها فى تعاملى مع الآخرين باعتبار ان من لدغته حية يفر من الحبل . . وقلت لأحمد الجار الله وأنا منفعل ، لقد ان الاوان لتنفيذ ما اتفقنا عليه . . وبهدوء شديد رد احمدالجار الله : حاضرين . ولكن كلمة حاضرين تقال احيانا ولا يكون لها اى معنى . . ولذلك اصررت على ان نذهب الى منزل الاستاذ احمد بهاء الدين ليكون حاضرا لحظة تخليص الحقوق .

شرحت للاستاذ بهاء فى عصبية قصة الاتفاق بينى وبين الجار الله وانهيت حديثى قائلا :

ان لى الآن اجر ستة اشهر فى عنق احمد الجار الله . ورد الجار الله بهدوء شديد . لا ليس لك ستة اشهر . بل لك سبعة اشهر . لان من حقك اجازة قدرها شهر وسأدفعه لك نقدا .

ونزلت كلمات احمد الجار الله كالدش البارد على رأس العبد لله . . وبالرغم من ذلك لم استطع السيطرة على عصبيتى الزائدة ، فقلت فى حدة شديدة . . تستطيع خصم ثمن السيارة التى استعملها ، لأننى سآخذها معى الى العراق . وقال احمد الجار الله وهويعبث بحبات مسبحة في يده . هذه السيارة هدية منى اليك ، وايضا ارجو ان تقبل اثاث المنزل الذى تسكن فيه كهدية متواضعة . عندئذ احسست بشلل فى لسانى ولم استطع الكلام ، هذه المعاملة لم القها من قبل ، أغلب الذين عملت معهم قبل ذلك استغلوا ظروف هجرتى

من بلدى، ولم اكن وحدى الذى وقع فى هذا المطب، ولكنى رأيت فى بيروت زعيما سياسيا مصريا كان هاربا من مصر مثل حالي وكان يعمل محررا فى احدى الجرائد وبمرتب خمسمائة ليرة شهرية. وهو مبلغ يقل قليلا عن اجر فراش فى جريدة. ومن خلال هذا النموذج ونماذج اخرى كثيرة. ادركت المعنى الحقيقى للمثل القائل : (من خرج من داره اتقل مقداره).

وفى صباح اليوم التالى كنت مستعدا للسفر الى العراق شحنت أولادى فى السبارة الملاكى. وشحنت عفشى فى السيارة النقل. ومررت على احمد الجارالله فى مكتبه. فرحب بى ترحيباً شديدا وسلمنى كل مستحقاتى وفوقها الف دينار كويتى. وقال : هذاالمبلغ لمصاريف الطريق، وسلمنى تذكرة سفر الى لندن بالطائرة من بغداد. وكلف احد رجاله بالسفر معى حتى بغداد وقال وهو يودعنى. لو احتجت الى شيء ستجدنى حاضرا وبأمرك.

كان موقف الجار الله بمثابة نسمة طرية هبت على صيف حياتى فى المهجر، وغادرت الكويت وانا اتمنى ان تتاح لى الظروف بالعودة اليها والعمل مع احمد الحار الله . والحق أقول ان تجربتى الصحفية فى الكويت كانت حافلة وغنية. قمت خلالها - الى جانب كتابة عمود يومى - بالاشراف على ملحق اسبوعى لجريدة السياسة. ويشهد الجميع بأنه كان انجح ملحق اسبوعى ظهر فى الكويت. وكنت حريصا على استكتاب كبار الكتاب، فالنقد الادبى كتبه الدكتور على الراعى. والنقد الفنى كتبه الاستاذان سعد اردش واحمد عبدالحليم، وأعدت الى الاضواء الفنان القديم حسن حاكم. وكان مقيما فى الكويت قبل وصولى اليها بعشرة اعوام. . دون ان يشعر به أحد. . وتولى

رسم حلقات الولد الشقى فى السجن فبهرت كل من وقع بصره عليها . وخصصت الصفحة الأولى من الملحق لأحاديث اجريتها بنفسى مع رجال لهم شأن . لهم وزن على المستوى القومى ، وشخصيات مثل الاستاذ احمد بهاء الدين . . والشيخ محمود شاكر ، والشيخ محمود خليل الحصرى ، والفنان صلاح جاهين . والشاعرنزار قبانى ، والفنان الكويتى صقر الرشود ، والمطرب والفنان البحرينى محمد زويد ، وعاوننى فى الملحق مواهب من جنسيات عربية شتى ، منهم الكاتب الاستاذ عبداللطيف الدعيج . والاستاذ حسين العتيبى ، والاستاذ محمد زين ، والاستاذ عبدالقادر كراجة ، والاستاذ رجاء العشماوى ، وعشت اياما حافلة فى الكويت واختزنت ذكريات عزيزة من عملى فى السياسة . وكانت اياما من اسعد ايامى فى المنفى .

ولكن هناك واقعة حدثت اعتقد انه من الواجب سردها الان . . ففى الليلة الاخيرة كنت قد دعوت عددا من الاصدقاء لتناول العشاء فى منزلى . وكنت قد وجهت الدعوة لهم قبل ان يتضح لى ان هذا العشاء سيكون العشاء الأخير فى الكويت . وعند خروجى من منزلى عصرا لأوكد عليهم ضرورة الحضور . طلبت الى زوجتى احضار بعض ادوات المائدة لكى تكفى الضيوف . كانت زوجتى قد حزمت الامتعة كلها استعدادا للرحيل . وقلت لزوجتى سأحضر معى ما يكفى لضيفين فقط . قالت : والباقون؟ قلت : لن يحضر منهم احد اذا عرفوا اننى سأغادر الكويت فى الصباح . وماتوقعته حدث بالفعل . شرحت للضيوف ما وقع لى بالضبط وابلغتهم اننى مسافر غدا الى العراق . فاعتذروا جميعا . . كل منهم بسبب ولم يحضر العشاء الاخير الا الاستاذ احمد بهاء

الدين والسيدة حرمه، وبعد ان انتهى العشاء حضر بدون دعوة وبدون ان نتوقع حضوره. . الاستاذ احمد الجار الله والسيدة حرمه، وكانت لمسة من الجار الله حفرت في نفسي بشدة. . ونقلت العلاقة بيني وبين الجار الله من زميل الى صديق.

وعندما بدأت رحلتي الى العراق، كانت الشمس تميل الى المغيب. . كان الطريق خاليا الا من عربات نقل قادمة من اوربا عبر تركيا . وكان منظر الشمس المس الباهتة والصحراء المجدبة التي تحيط بالطريق يلقي على الرحلة جوا كئيبا موحشا، والحق اقول انني لم اكن اعرف اين ستكون محطتي القادمة. . مسافر معي عائلة ومتاع، ولكن ليس الى وجهة محددة او محطة معلومة. ولم تكن مصر هي وجهتي بالطبع ولكن كنت افكر في الذهاب الى بيروت. . واشحن العائلة والاثاث والسيارة في الباخرة من اللاذقية، على ان اذهب انا الى لندن كفترة راحة بين الجولات التي انهزمت فيها كلها بالنقط. وان كنت مازلت واقفا على قدمي وراغبا في القتال. ولم يكن هذا قرارا، ولكنه كان مجرد افكار دارت في رأسي وانا أنهب الطريق الى البصرة.

المصيبة ان العام الدراسي كان قد بدأ. وكان اولادي الخمسة في المرحلتين الاعدادية والثانوية، وكنت قد تقدمت بأوراقهم الى مدارس الكويت قبل قرار الرحيل. والان والاولاد معي في السيارة واوراقهم معي في الحقيبة. والسيارة تنهب بي الطريق الى البصرة.

والظلام حل، والعتمة اخفت كل شيء، لم يعد يبدو امام عيني الا زفت الشارع، وزفت الاحوال التي تحيط بي، وزفت المستقبل الغامض، كأنني

جزيرة من المشاكل والمتاعب يحيط بها الزفت من كل جانب. تمنيت فى تلك اللحظة ان تعود عقارب الساعة الى الوراء لأتشبث بالأرض التى خلقت عليها فلا أغادرها الى اى مكان. وراودتنى فكرة رهيبة. لو ان سيارة من سيارات النقل المتوحشة التى تهدر على الطريق صدمتنى واراحتنى من هذا الحال المؤلم الغريب، وانتزعتنى شوارع البصرة من هواجسى وافكارى. وقررت المبيت فى البصرة.

*****

اذن هذه هى البصرة.. مدينة جميلة تشبه الى حد كبير مدينة حلوان فى بدايات عصر عبد الناصر.. ولم أكن قد رأيت البصرة من قبل وإن كنت قد قرأت عنها كثيرا.. انها مزيج من القديم والحديث. القديم يجرها الى الماضى، الى مجتمع الطفيليين والحركات السرية والعنف واختلاط المبادىء والمذاهب والفكر بالسياسة، ولا أدرى لماذا كان البصرة بالذات هى موطن كل هذه الحركات الاسلامية العنيفة والغريبة؟ ربما كان السبب هو قربها من بلاد فارس حيث اختلط الاسلام بالمجوسية والشعوذة وبالحقد على الحضارة الجديدة الباذغة التى دكت من الاساس حضارة قديمة متهرئة والبصرة تنام على صدر شط العرب وعلى مرمى حجر تستطيع ان ترى نخيل فارس.

وبين فارس والبصرة أرض مسدودة وأفكار موصولة ومدسوسة. لم يكن بين البصرة والكويت الا مسافة ساعة بالسيارة، ولكن ما ابعد الفارق بين هنا وهناك، زفت الشوارع فى الكويت يشبه زفت الشوارع فى لندن، وزفت الشوارع فى البصرة يشبه زفت الشوارع فى القاهرة، ولكن الاسعار فى

البصرة هى ربع الاسعار فى الكويت، والحياة هنا منظمة وان كانت سنوات الفقر قد تركت بصمات اصابعها على وجه الزمن وفى حسم الحياة.

واحسست براحة شديدة فى البصرة. فقد خيل الى اننى عدت الى الجيزة، ولم أكن وحدى فى رحلتنا الى بغداد، كان معى زميل صحفى وعائلته، وسبق لنا العمل معا فى بداية حياتنا فى جرائد ميتة فى القاهرة، وفى جرائد منتشرة. كان دائم الضجر قبل الحظ وفى حالة ضياع دائم.. لم يعرف طعم الاستقرار الا بعد الزواج، ولكن لسوء حظه اضطر الى مغادرة مصر بعد الزواج بفترة قصيرة.. وعاش مشتتا بين بيروت وعمان وبغداد والكويت.

وكان معنا ايضا فى الرحلة، مصرى ثالث وكان وحيدا ورفض المبيت فى البصرة، وواصل السفر الى بغداد فى الليل، وكانت له علاقات ببعض اصحاب النفوذ فى بغداد، وربما اثر السفر وحده حتى لا يتحمل مسئولية وجودنا معه هناك! وكان الدكتور انيس نصر الدين وهذا اسمه.. نموذجا للمثقف المصرى الارزقى الذى يعرف كيف يكسب اقصى مايستطيع ويخسر اقل ما يمكن. وكنت قد تعرفت عليه فى نهاية الاربعينيات. وكان ماركسيا متعصبا وقتئذ، يرى ان الحل الوحيد هى سيطرة الطبقة العاملة وقيام دكتاتورية البروليتاريا، ولكنه فجأة وبعد الحملة الشديدة بين الشيوعيين، حمل حملة شعواء عليهم هو الآخر. وادعى ان احد اقاربه يعمل فى جهاز المباحث اكد له ان كل الشيوعيين يعملون مخبرين فى الجهاز!

وفجأة اصبح من اقطاب حزب الفلاح المصرى الذى انشأه عدد من المثقفين المصريين اصحاب الميول الغربية، وكان على رأسهم الدكتور احمد حسين

والدكتور عباس عمار والاستاذ فؤا دجلال والدكتور سعيد قدرى، وصارت له جولات وندوات، واصبح نجما من نجوم المجتمع المصرى، وبعد قيام الثورة قفز الى سفينتها بلا تردد، واشترك فى اصدار قوانين لها وفى وضع نظريات (نابعة من تراثنا) وروح لافكار (لا شرقية ولا غربية) واصبح احد منظرى الثورة وفلاسفتها العظام. وشغل مناصب دبلوماسية فى الخارج. وعمل فترة فى جهاز المخابرات، وظل متربعا على دكة الثورة حتى اطيح بمجموعة مايو، ولم يعد له ذلك الهيلمان الكبير، فسافر الى الخليج وفوجئت بوجوده هناك فى عام ١٩٧٦.

واكتشفت انه يعيش وحيدا هناك تاركا اسرته وراءه فى القاهرة وكان يزعم لمن يعرفهم بأنه مضطهد فى مصر وانه مطارد ومراقب من الاجهزة المصرية، فى الوقت الذى كان فيه على علاقة حسنة بكل رجال السفارة المصرية وخصوصا رجال الاجهزة... وعندما طلبت منه ان يكتب مقالا فى ملحق السياسة، اعتذر بأن الوقت لم يحن بعد للظهور، وأنه يفضل العمل الان تحت الارض، وانه سيظهر فى الوقت المناسب والمكان المناسب، ولفت نظرى انه كان دائم السؤال عن ثمن الدينار فى سوق العملة. وكان مواظبا على تحويل مبلغ معين كل شهر عن طريق القنوات غير الشرعية. وفى اول كل شهر كان يقيم مأدبة عشاء فى منزله لبعض الموظفين المصريين المطحونين الذين لا علاقة لهم بالسياسة. وفى هذه الحفلات كان الاستاذ يفيض فى الحديث عن دوره فى الثورة وعن جهوده فى الوقوف امام زحف التيار الساداتى الذى يكاد يهلك البلاد والعباد.

وكان دائم التلميح عن صلاته الشديدة بالثوار الذين يعملون داخل مصر، وعن دوره فى تنشيط المعارضة ضد نظام العدالة الذى يحكم فى القاهرة. واحيانا كان يضرب المائدة بقبضة يده محرضا الموجودين على ضرورة التمسك بالثورة حتى النصر، وكان بين الحين والحين يختلس النظر لصورة عبدالناصر المعلقة فوق الجدران ويزفر زفرة حارة ويغمغم بكلمات غير مفهومة. ولذلك لم ادهش عندما اصر الاستاذ على ضرورة مفارقتنا قبل منتصف الليل ليسافر وحده الى بغداد، فهو فى رحلة مكاسب جديدة.

وتصورت انى لن اراه بعد ذلك، لكن الظروف شاءت ان التقى به وأن اشترك معه فى عمل كان له اكبر الأثر فى حياتى. وربما كان هو العمل الوحيد الذى علمنى فى الحياة اشياء رهيبة. فتح عيونى على حقائق جديدة. ومحا من نفسى اوهاما كنت اؤمن بها وخزعبلات كنت شديد التعلق بها. وكشف لى هذا العمل الغريب عن حقيقة رهيبة.. بأن السياسة تجارة، وانها اروج تجارة فى عصر الانحطاط الذى نعيشه الآن.. ولكن هذا حديث آخر سيأتى ذكره فيما بعد.

المهم قضينا الليل فى البصرة. وفى الصباح الباكر بدأنا الرحلة الى بغداد، وكانت الرحلة شاقة ومرهقة، فلم يكن الطريق الدولى قد انشىء بعد.. ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى اقطع فيها العراق برا، فقد هالنى مدى الاهمال الذى لحق بالارض الزراعية نتيجة عهود الملكية والاقطاع التى مضت.. هل هذه هى ارض السواد كما اطلق عليها العرب.. الاوائل؟!

لقد تحولت الارض الى ارض الصغار بفضل إهمال ملاك الأرض الكبار. وزحف الصحراء على الاراضى الزراعية بالرغم من وجود دجلة والفرات.

وأكتشفت وأنا على الطريق، كم هم طيبون أهل العراق وعرب، فقد تعطلت السيارة بالقرب من مدينة العمارة، وتطوع الفلاحون لاصلاح العطب، وقدموا لنا الشاى ونوعا من انواع البسكويت، ورفضوا بإباء ما حاولنا ان نقدمه لهم من نقود، وصاح أحدهم عندما عرف أننا من مصر (الله يرحمك يا أبو خالد) وهو الأسم الحركى لجمال عبدالناصر.

وعندما دخلنا بغداد دهشت ان تكون هذه هى عاصمة العرب الثانية بعد دمشق، ومقر الخلافة العباسية فى عصورها الزاهية. كانت فسيحة وممتدة وهادئة وتشبه الى حد كبير مدينة القاهرة فى فترة العشرينيات والثلاثينيات. كانت معظم بيوتها فيللات تحيط بها الحدائق، وكان شارع الرشيد هو شارع الرئيسى. ويشبه الى حد كبير شارع محمد على بالقاهرة.

ونزلت فى أحد الفنادق فى شارع السعدون وقابلت مسئولاً عراقيا من وزارة الاعلام. وعندما سألنى عن وجهتى، قلت له ساخرا: إننى فى طريقى الى بلد عربى مجاور يوجد به بعض اقاربى لعلى استطيع ان استقر مع اولادى هناك، تصور المسئول العراقى اننى اقصد سوريا، وسألنى انت رايح سوريا؟ فقلت مازجا: لا، أنا أقصد اسرائيل، فقد اصبحت هى الاخرى بلدا عربيا بعد فك الاشتباك وفك الاحتكاك، وأصبح بعضنا مع اسرائيل سمنا على عسل، وقال لى المسئول: ابحث لنفسك عن بيت والحق عيالك بالمدارس، وانتظر معنا هنا حتى يأذن الله لك بالعودة الى بلادك. وقبلت عرضه بامتنان، وانتقلت الى منزل فى حى المنصور أرقى أحياء بغداد، وكان منزلا فسيحا وقديماتحيط به حديقة مترامية الأطراف. كان البيت مكونا من دورين ولكن لم

أستخدم الا الدور الأرضى. فلم يكن لدى اثاث يكفى لاستخدام الدورين معا. . وكان ايجار البيت ٣٥ دينارا، وكيلو اللحم البلدى الممتاز بنصف دينار، وهى أسعار تقترب من أسعار القاهرة فى حقبة الخمسينيات. وتم تعيينى بوزارة الاعلام العراقية براتب قدره مائتا دينار فى الشهر. . وهو مبلغ اقل من المبلغ الذى اتفاضاه فى القاهرة منذ ست سنوات. ولكنه كان كافيا على أية حال لاطعام العائلة ودفع أجرة المسكن وشراء وقود السيارة. . ولم يكن لى عمل فى وزارة الاعلام. ولكن عوضنى عن هذا الفراغ مجموعة الاصدقاء المصريين الذين كانوا يقيمون فى بغداد، وكان عبدالرحمن الخميسى هو اقربهم الى قلبى والى نفسى.

*****

عرفت الخميسى فى بداية الخمسينيات. وكان وقتئذ من المع كتّاب مصر والعالم العربى. وكان قد أعاد صياغة الف ليلة وليلة بأسلوب عصرى ونشرها على حلقات فى جريدة (المصرى) وأحدث نشرها دويا كبيرا فى كل الأوساط. وكان له برنامج إذاعى حقق نجاحا واسعا. قدم من خلاله قصص حياة كبار الفنانين. وكان يعده بنفسه ويخرجه ويشترك فيه بالتمثيل. وكان يكسب كثيرا وينفق كثيرا. وعندما تعرفت به فى قهوة محمد عبدالله. كنت شابا صغيرا وصحفيا مبتدئا. وكاتبا مجهولا، أكتب قصصا قصيرة وأخشى عرضها او نشرها فلم تكن لدى ثقة فيما أكتبه، وكنت أعتقد أن ما أكتبه لا يصلح للنشر. وكانا لخميسى أحد الذين شجعونى فى بداية حياتى. وعندما فشلت مسرحيتى الأولى (فيضان النبع) حرضنى على كتابة المسرحية الثانية، وكانت بعنوان

(عزبة بنايوتى) وقام الخميسى بإخراجها وقام ببطولتها . . واشترك فيها عدد من صغار الفنانين الذين أصبح لهم شأن كبير فيما بعد أذكر منهم : عادل امام وصلاح السعدنى ومحسنة توفيق وفاتن الشوباشى وفاطمة عمارة وحلمى هلالى وآخرين . . وتوثقت صلتى بالخميسى ، ولم افارقة فى فترة الستينات .

وعندما خرجت من السجن فى عام ١٩٧٣ . لم يكن الخميسى فى مصر . كان قد فر منها قبل خروجى من السجن بقليل واختار بيروت وأقام فيها مدة ثم غادرها الى بغداد بعد أن هجاها بقصيدة من عيون الشعر العربى .

وعندما رأيت الخميسى فى بغداد . كانت أحواله فيها مضطربة ولم يكن يقيم فى بغداد بصفة مستمرة ، ولكنه كان يقضى فى بغداد اياما . ويقضى فى موسكو شهورا ، وفى آخر مرةوقع بصرى فيها على الخميسى كان فى عام ١٩٧٧ . وكنت قد عدت الى منزلى فى حى المنصور بعد سهرة حافلة عند أحد الاصدقاء . وكانت الساعة تقترب من الثالثة بعد منتصف الليل ، وعندما اقتربت من الشخص اكتشفت انه الخميسى ، وكان قد وصل الى بغداد قادما من الكويت ، وعندما حضر الى منزلى ولم يجد سيارتى فى مكانها . علم أننى فى الخارج ولم يشأ ان يزعج أحداً ، فانتظرنى على الدكة حتى أعود وكان الوقت صيفا والجو رائعا ، ولكنى لاحظت إجهادا شديدا على وجه الخميسى ومزارة شديدة فى نفسه . وجلسنا معا نستذكر ايامنا الماضية فى شوارع القاهرة وحوارى الجيزة . ثم قمت بتوصيله الى المطار فى الصباح الباكر . وعندما سألته ونحن على ابواب المطار : طيب ومشاريعك ايه فى المستقبل يا خميسى؟ قال بأسى شديد : «والله يا بنى ما أنا عارف» .

وقلت للخميسى مازحا: الانسان يواجه الصياعة فى بداية حياته وفى فترة الشباب، ولكن هذه هى أول مرة أرى فيها رجلا يواجه الصياعة بعد أن عبر الستين، وقال الخميسى وهو يقطع خطوته الأولى داخل المطار : حنعمل ايه بقى . مكتوب علينا الشقى واثر اختفاء الخميسى من بغداد على نفسية العبد لله تأثيرا شديدا، لم يكن لى صديق حقيقى بين المصريين الاهو وكنت أرى فيه حفنة من تراب مصر وجزءا من طينها وقبسا من روحها . وهو بكل ايجابياته وسلبياته جزء من تاريخ مصر فى الفترة الممتدة من الاربعينيات وحتى اليوم .

بعد أيام من سفر الخميسى . تلقيت مكالمة تليفونية من لندن، وكان المتحدث هو الدكتور مصطفى الفقى، وهو دبلوماسى ومثقف وصديق . وكان يعمل فى السفارة المصرية فى لندن . وكان له دور توطيد العلاقة بينى وبين الشيخ احمد السويدى . فقد كان زميلا له خلال فترة الدراسة بجامعة القاهرة .

وشدنى الى مصطفى الفقى نشاطه ودراسته الواسعة فى تاريخ مصر الحديث، واهتمامه على نحو خاص بالحركة الوطنية المصرية خلال الفترة التى سبقت وعاصرت وأعقبت ثورة ١٩١٩ ودور اقباط مصر فى الحركة الوطنية على وجه التحديد . وأختار مصطفى الفقى مكرم عبيد باشا سكريتر عام الوفد موضوعا لرسالة الدكتوراه التى نالها بامتياز مع مرتبة الشرف . وسألت مصطفى ضاحكا «إنت فاهم أنك هاتفلت منى» . ثم سألنى عن احوالى وعن الظروف التى اضطرتنى ايل مغادرة الكويت . وسألنى مصطفى عن الموعد الذى سأصل فيه الى لندن . فلما أجبته بأننى لا أعرف الموعد بالتحديد . قال : أرجو أن اراك قبل أن اغادر بريطانيا . فأنا منقول منها الى القاهرة .

وشكرت مصطفى الفقى على اهتمامه بأمرى وسؤاله عنى. ونزلت مكالمته بردا وسلاما على قلب العبد لله. وانشغلت بالكتابة فى الصحف العراقية، واكتشفت أننى صرت مشهورا فى بغداد عدة مقالات قليلة. فشعب العراق شعب يقرأ ويفهم ما يقرأه. وهو على رأى الاستاذ احمد بهاء الدين شعب من الصعب ان يحترف انسان فيه الكتابة. لأن القارىء العادى فى العراق اكثر ثقافة من بعض الكتاب.

وأصل الحكاية ان الاستاذ احمد بهاء الدين كان معى فى السيارة وفى الطريق الى منزلى توقفت فى شارع ١٤ رمضان لشراء بعض الاشياء. واثناء انشغالى بعملية الشراء قلت لبعض الذين على مقربة منى من الاخوة العراقيين. اذهبوا وسلموا على عمكم بهاء فى السيارة. وعندما عدت وجدت بهاء فى مناقشة صاخبة مع الثلاثة. كان كل منهم يعرض وجهة نظره فى مجلة العربى التى كان بهاء يرأس تحريرها فى تلك الايام. ولم نستطع التخلص منهم الا بصعوبة وبوعد منا على ان نلتقى قريبا. وسألنى بهاء من هم هؤلاء؟ فقلت لبهاء احدهم جزار والآخر بقال والثالث مكوجى. وقال بهاء قولته السابقة.. من الصعب ان يكون الانسان كاتبا هنا! ولكنى لم استطع الكتابة فترة طويلة فى بغداد فسرعان ما توالت الاحداث سريعة ومتلاحقة.

*****

طار الرئيس السادات فى مبادرته الشهيرة الى القدس. وانتفض العالم العربى كله ثائرا ضد الزيارة. كانت بغداد فى تلك الفترة قلب العالم العربى وقبلته.. ولزمت دارى حائرا لا ادرى ماذا افعل؟ وخلصنى من حيرتى زيارة

قام بها لمنزلي الدكتور الأرزقي ومعه شخص كان هاربا من مصر مثل حالي ولاجئا في المغرب . وكان قد عمل فترة رئيسا للخدم في بيت عبدالناصر . كان الرجل والحق يقال ذكيا ومنظما هادئ الطبع . كان يحمل عرضا محددا، وهو ضرورة وجود حزب جديد في الخارج لمواجهة تحركات السادات المعادية للعروبة، ووجدت في هذا الاقتراح حلا لحيرتي، وانهمكت في الاعداد لعقد أول اجتماع لحزب الجديد. وفي الاجتماع وزع رئيس الحزب المهام والمسئوليات. واكتشفت أنني مسئول عن الاعلام. كان هناك مسئول للثقافة ومسئول للتعليم وأمين صندوق .

غير أني لاحظت بعد فترة ان الذين اجتمعوا ليلة اعلان الحزب، بدأوا يختفون واحدا بعد الآخر. فتصورت في البداية أنهم ربما فقدوا الاهتمام. أو فقدوا الرغبة في النضال، ولكنني اكتشفت بعد فترة طويلةأنهم كانوا أذكى مني، وأنهم اكتشفوا بعد فترة وجيزة حقيقة الحزب الثوري وأنه مجرد دكان للاسترزاق واكل العيش!! ولم تمض اسابيع قليلةحتى انتهى الحزب الى مجموعة عائلية صغيرة مكونة من رئيس الحزب الذي كان رئيسا للخدم في بيت عبدالناصر. ولكن امانة الصندوق ظلت دائما في حوزة الاستاذ الأرزقي!!

وكان رئيس الحزب الثوري منهمكا في اصدار نشرات، وأحيانا كان يعقد ندوات ومؤتمرات في أكبر فنادق أوروبا. وبدت اثار النعمة على رئيس الحزب، فسكن القصور في أرقى احياء العواصم الاوربية. وأصابه اسهال في الادلاء بأحاديث صحفية عن برنامجه لحكم مصر في المستقبل، وكان ينشر

صـورة مع الأحـاديث فى أوضـاع مـخـتلفـة . . مرة وهو يضع يده تحت ذقنه كالشاعر احمد شوقى . ومرة وهو يهز وسطه كالمنتشر أحمد عدوية . ولكنه فى كل أحاديثه كان يؤكد على سنوات الحرية والعزة والرخاء التى تنتظر الشعب المصرى تحت حكمه السعيد!!

وذات يوم فى شهر اغسطس فى عام ١٩٧٨ دعيت لحضور مؤتمر الحزب الكبير الذى انعقد فى باريس . . وحضرته القواعد الجماهيرية وهى سبع قواعد بالتحديد . . بعض الافراد المطحونين الذين ربما استهواهم السفر الى اوروبا على حساب الحزب الثورى . . ولم تحضر المؤتمر السيدة حرم رئيس الحزب والآنسة خادمته باعتباره حزبيا حمشا لا يسمح للحزبيات بحضور مؤتمر للحزب يعقد فى باريس! وفى باريس رفضت النزول فى الفندق الكبير الذى كان معدا لنزول اعضاء الحزب، ونزلت فى فندق صغير بالحى اللاتينى . ورفضت حضور المؤتمر .

وفوجئت فى اليوم التالى برئيس الحزب يحجز غرفة مجاورة بالفندق الذى انزل فيه . وخمنت أنه استشعر خطرا من وراء الحركة التى قمت بها . وجاءنى بعد أيام ومعه رجل آخر كدت أشعر نحوه باحترام . ولم يكن يعيش مثلنا فى المهجر . ولكنه كان يقيم فى القاهرة ويناضل من داخلها . وسألنى عن السر فى عدم حضورى مؤتمر الحزب؟ فبسطت له الاسباب التى دعتنى الى مقاطعة المؤتمروقلت له بصراحة شديدة وامام رئيس الحزب . أننى استشعر فى قرارة نفسى ان هذا الحزب هو مجرد ديكور لعمليات اخرى مجهولة . وأموال الحزب ليست معروفة المصدر . وعمليات الانفاق سر بين امين الصندوق ورئيس

الحزب، كما انه ليس للحزب نظرية معروفة أو اتجاه محدد. كما أن عائلة رئيس الحزب تشتغل بتجارة الملابس والذهب.

وقال الرجل الفاضل الذى كان يحاورنى ان هناك سلبيات كثيرة فى الحزب، وأنه سيعمل على القضاء على هذه السلبيات. ووعدنى بإنجاز هذه المهمة فى فترة لا تتجاوز الاشهر الستة.

وقلت له سأنتظر الأشهر الستة خارج الحزب. فاذا استطاع القضاء على السلبيات الموجودة. سأكون حاضرا ومستعدا، واذا فشل، فليذهب كل منا الى حال سبيله.

وتركت باريس وسافرت الى لندن. وهناك التقيت بصديق قديم عرض على اصدار مجلة مصرية معارضة. واقترح صديقى ان يكون اسمها (٢٣ يوليو) ووافقت صديقى على الفكرة وقلت له ان دورى سيقتصر على اعداد المواد وبتجهيزها للنشر وسأقضى معكم مدة اسابيع حتى تقف المجلة على اقدامها. ثم اعود بعدها الى اولادى فى بغداد. . ورجانى صديقى ان ابقى فى لندن ثلاثة اشهر. ثم يكون لى الحرية بعد ذلك الذهاب الى اى مكان. وعندما سألته عن التمويل قال: سنأخذ ما يكفينا من ليبيا. . وقلت للصديق: لن تأخذوا مليما واحدا من ليبيا ونظر صديقى نحوى بدهشة وبإشفاق فقد ظن أننى مجنون أو موتور!

الأصدقاء.. الأعداء!

عندما اتصل صديقى بطرابلس، اهتمت كل الدوائر، لم يكن صديقى مواطناً عادياً، ولكنه كان يحظى بمكانة خاصة فى اماكن كبيرة فى العالم العربى. وأكثر خصوصية فى طرابلس.. وكان يتصور لحظة اتصاله بطرابلس طالبا عونا ماديا لاصدار مجلة ٢٣ يوليو ستفتح على الفور جميع خزائن الأرض! لم يكن على دراية بألاعيب السياسة وخفاياها. وكنت على عكسه تماما ادرك ان مجلة بهذا الاسم ستحارب بشدة من كل الجهات. وأن الحرب ضدنا ستكون اكثر سخونة من النظم اصحاب الكتب والشعارات.

ولقد اثبتت التجربة انى كنت على حق واثبتت ايضا ان صديقى كان يعيش فى وهم.. المهم ان طرابلس اهتمت بالاتصال التليفونى الذى اجراه صديقى معها. وفى اليوم التالى طار احد المسئولين الى جنيف بطائرة خاصة.. ومن هناك اجرى اتصالا سريا بصديقى. واستفسر عنه عما يطلبه. وأكد له فى بداية الحديث ان لديه اوامر من جهات عليا بأن يضع نفسه تحت امر صديقى ورهن مشيئته.

وعرض صديقى الأمر على المسئول الليبى، ويبدو أن ما سمعه المسئول من صديقى كان اخر شىء يتوقعه. . فى البداية نزل الخبز عليه كالصاعقة. ثم بعد ذلك راح يسأل عن بعض التفاصيل. . من الذى سيرأس تحرير المجلة؟ من الذى شارك فى التحرير؟

وعندما علم المسئول القادم من طرابلس ان العبد لله سيكون رئيسا للتحرير. طلب مهلة لكى يعود الى الجهات العليا قبل ان يعد بأى شىء. . ولم تمض ساعة حتى عاود المسئول القادم من طرابلس الاتصال بصديقى. . وفى هذه المرة أبدى اعتذار طرابلس عن تمويل مثل هذه المجلة. . لأنهم يعتقدون فى طرابلس ان رئيس التحرير ـ العبد الله ـ ليس ناصريا ولكنه يعمل فى مخابرات حزب البعث. . وفى نهاية المكالمة نصح المسئول القادم من طرابلس صديقى بأن يتمهل بالنسبة لهذا المشروع.

لماذا؟ لأن اشياء كثيرة قد تغيرت على خريطة العمل السياسى فى العالم العربى وأغلق صديقى الخط التليفونى بينه وبين المسئول الليبى، ورفض بعد ذلك ان يرد على المكالمات التليفونية التى راحت تطارده من هناك. . ولم أحاول من جانبى أن أنفى أو أؤكد لصديقى اتهامات المسئول الليبى. ولكنى اقترحت عليه أن يتصل بهم من جديد ويبلغهم أنه استغنى عن خدماتى. وأنه سيقبل رئيس التحرير الذى سترشحه طرابلس. ولكن الرجل رفض ان يعاود الاتصال بهم. وكنت اتمنى ان يفعل حتى يكتشف انهم سيرفضون تمويل مجلة باسم ٢٣ يوليو. فهذا التاريخ بالنسبة لهم ينبغى ان يبقى فى متحف التاريخ، وعلى كل من يريد ان يكافح. فعلى طريق الفاتح من سبتمبر، فهو الطريق

الوحيد لتحرير فلسطين من النهر الى البحر، وهو السبيل الوحيد الى الوحدة العربية والى الثورة العالمية، والى اعادة العرب الى العصر الباهر القديم!!

وسألت صديقى والهم باديا عليه . وماذا نعد؟ فأجاب فى يأس شديد: لاشىء. وسنؤجل الموضوع الى أجل غير مسمى... قلت له: ولكن هناك أبواب أخرى تستطيع أن نلجأ اليها . . ورد صديقى بنبرة ذات مغزى . . بغداد تقصد؟ وبهت صديقى حين قلت له إن موقف بغداد من مجلة اسمها (٢٣ يوليو) سيكون هو نفسه موقف طرابلس. وقال صديقى بهدوء: ومن هناك غير طرابلس وبغداد؟ فقلت هناك عرب أخرون ويمكنهم تمويل المجلة دعنى أجرب حظى وستكون معى فى الصورة على الدوام.

وقع اختيارى على صديق طيب من رجالات الخليج تمتد صلتى به الى ايام بعيدة مضت. تعرفت اليه فى القاهرة عندما كان طالبا، وكان فقيرا ومستنيرا، يحمل عروبته فى جيبه بدل كيس النقود، وبعد أن تفجر النفط فى بلاده. صار ثريا وألمعيا ولكنه ظل بسيطا وأبقى على صلاته القديمة . . وكان فخورا بأصدقائه من الكمسارية والمكوجية وباعة السمك الذين عرفهم فى القاهرة تلك الايام.

اتصلت بالرجل فرحب بى، ولم يستغرق الاتفاق معى على تمويل المجلة اكثر من جلسة واحدة. لكنه اشترط شرطا واحدا، ألا يذكر اسمه على الاطلاق، لا فى جلسات خاصة ولا على صفحات المجلة. وأعتقد أننا حافظنا على عهدنا والتزامنا به حتى الآن . . وعندما سافر الرجل الى الامارات التى يعيش على أرضها. لم ننتظر أكثر من اسبوع، بعده تم تحويل المبلغ الذى اتفق عليه الى بنوك لندن. وكان المبلغ المتفق عليه هو ربع مليون جنيه استرلينى.

والحق أقول إننى أنا الذى اقترحت المبلغ وحددته . . وتصورت لحظتها أننى سأكون موضع اهتمام خاص من ملكة بريطانيا باعتبارى أحد المستثمرين الكبار الذين سينهضون بالاقتصاد البريطاني الى عنان السماء! لم أكن على دراية بأسعار لندن . وكنت حتى تلك اللحظة أعيش فى جو مصر وفى أسعارها . حتى البلد الذى استقرت عائتى فيه ـ العراق ـ كانت اسعاره تنافس أسعار مصر فى الستينيات .

المهم أن رأس المال وصل وبدأنا الاستعداد لاصدار ٢٣ يوليو . اتصلنا ببعض الكتاب داخل مصر ، ولبى النداء اساتذة كبار منهم الكاتب الكبير محمد عودة والكاتب صلاح عيسى . وجاءنا الرسام جورج من باريس . وأتصل بنا الرسام صلاح الليثى وكان فى لندن للعلاج ، وأتصل بنا نبيل السلمى من ألمانيا ، وجاء فهمى حسين من بيروت ولحق به بكر الشرقاوى ، وحضر جمال اسماعيل من أبو ظبى . وجاء أمين الغفارى من مصر وانضم الى كتيبة ٢٣ يوليو ، واستكملت الكتيبة عدتها بقدوم الكاتب المسرحى الفريد فرج من منفاه بالجزائر .

اشترينا ماكينات الطبع واستأجرنا المكان فى حى مزدحم بالعرب ، هو حى ايرلس كورت . .

ولكن قبل مجيء أحد من الزملاء ، انهمكت وحدى بمساعدة بعض ابناء المهنة الذين كانوا يعملون فى لندن بأصدار العدد الصفر ، واتصلت بالفريق سعد الدين الشاذلى لينشر مذكراته عن حرب اكتوبر فى المجلة ، ولكنه اعتذر لأنه باع حق النشر لمجلة تصدر فى باريس . ومع ذلك صدر العدد الصفر

يحمل مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلى . طبعا اعتمدت على ما جمعته من أحاديث سعد الشاذلى فى الصحف المصرية بعد المعركة وكان لا يزال رئيسا للأركان ونشرت إعلانا عن مذكرات على صبرى التى ستنشر قريبا . ولم تكن هناك مذكرات لعلى صبرى . . ولكننا اعتمدنا على اقواله فى التحقيق فى قضية ١٥ مايو .

ولكن يبدو أن صديقى الذى كان يقف خلف المجلة لم ترق له هذه المذكرات . فقد كان يعتبر نفسه ناصريا ، ولكن لا علاقة له بمجموعة ١٥ مايو . واكتشفت ان الأمور بين الناصريين وصلت الى حد مؤسف ، وان الخلافات بين الفرق الناصرية ، هى نفسها الخلافات بين الفرق الشيوعية . وأدركت أن ما أصاب الحركة الشيوعية فى الماضى . سيصيب الحركة الناصرية فى قادم الأيام .

المهم أنى انتصرت فى هذا الموقف ونشرت مذكرات على صبرى بعد ذلك ، لا لسبب الا لعجز صديقى عن تدبير مادة أخرى تحل محل مذكرات على صبرى ، وهذا العجز سيتكرر كثيرا بعد ذلك لدرجة أنى استعنت بصور عبدالناصر لنشرها فى عدد شهر يوليو من جرائد تصدر فى الخليج ، وكان صديقى قد وعدنا بصور لعبدالناصر لم تنشر بعد ، ولكنه اعتذر فى اخر لحظة وحتى لا ينكشف أمره باعتبار أن هذه الصور لا توجد عند أحد غيره .

على أية حال لقد بدأت ملامح ٢٣ يوليو تتضح وكنت قد رسمت سياسة لها وهى تقضى بعدم مهاجمة أى نظام عربى ، وأن نكون بمعزل عن الخلافات التى تشق الصف العربى وأدت بالنظم العربية الى حد المواجهة الساخنة فى بعض الأحيان . . ولما كنت مقيما مع عائلتى فى بغداد ، كان لا بد أن أذهب

إلى بغداد لنطلعها على ما نعده فى الخفاء ولكنى قبل السفر الى هناك، علمت من بعض الاصدقاء هناك ان حملة شرسة يشنها ضدى وضد المجلة بعض المصريين المقيمين هناك والذين احترفوا السياسة كوظيفة، أشاعوا ان المجلة تمولها ليبيا، وأدعوا أنى حصلت على عشرة ملايين جنيه تحت الحساب. . ولم يكن لهذه الاوهام المبالغ فيها بالطبع الا هدف واحد هو تنفير الكتاب من العبد لله. فكيف أحصل على هذه النقود كلها ثم أطلب من الاخرين ان يتعاونوا معى بأجر رمزى؟ وأحيانا بلا أجر على الاطلاق. .

فوجئت ايضا بحملة يشنها الحزب الشيوعى المصرى الذى يتخذ من باريس قاعدة لنشاطه، وأشاع الشيوعيون أننى أعمل لحساب البعث العراقى. وأننى حصلت على ملايين الجنيهات للهجوم على الحزب الشيوعى، وقالوا ايضا ان المجلة ستبدأ ناصرية وتنتهى ساداتية وعلى طريق الكامب. وكانت النتيجة أن أبواق الاشاعات المسعورة من القاهرة تتهمنى بالعمالة للنظام الليبى وحزب البعث العراقى، وكان سرورى بهذا الاتهام لا حد له، انه يعنى أن أجهزة القاهرة لم تعثر على الممول الحقيقى للمجلة وأنها تتخبط فى الظلام. ولم يكن فى وسعى امام سيل الاشاعات المنهمر من كل جانب الا أن أرفع يدى الى السماء وأقول: اللهم احمنى من أصدقائى أما اعدائى فأنا بهم كفيل!

وفى الطائرة التى أقلتنى الى بغداد سرح فكرى فى الماضى البعيد الى العام ١٩٥٥ وحتى قيام الوحدة. ففى تلك الأيام كنت مسئولا عن الشئون العربية فى جريدة الجمهورية القاهرية وكنت أنتقل كثيرا بين بيروت ودمشق والقدس وعمان. ولكن الظروف حالت بينى وبين زيارة بغداد. كان نورى السعيد

يحكم بغداد بطريقة غبية، وكان يغلق أبوابها في وجه كل من يكتب كلمة واحدة ضد حكومته، وكان الطرد من نصيب كل سياسي معارض وكل صحفي عراقي مشاكس. كانت حدود العراق مغلقة مع سوريا مفتوحة مع غيرها من الجيران. وبحكم عملي الصحفي توثقت الصلة بيني وبين معظم الأحزاب التي كانت تمارس نشاطا في الشرق العربي، ولكن صلتي كانت اوثق بالحزب الشيوعي العراقي وبحزب البعث الذي كان يشارك في حكم دمشق. وكان الحزب الشيوعي العراقي يكافح تحت الأرض في بغداد.. بينما قيادته تقيم في دمشق. كان هناك عبدالقادر اسماعيل وعامر عبدالله وعزيز الشريف والدكتور صفاء، وكانوا على اتصال بحكومة عبدالناصر في القاهرة، وظل شهر العسل قائما بينهما حتى قيام الوحدة، وفي نهاية عام ١٩٥٧، حين تبين لهم أن الوحدة ستقوم بيننا وبين سوريا على حساب الشيوعي السوري. أعلنوا العداء لعبدالناصر والوحدة وعارضوا قيامها، واضطر خالد بكداش الى مغادرة دمشق قبل انعقاد الجلسة التاريخية للمجلس النيلي السوري الذي اقر خلالها الوحدة ووافق على قيامها..

وقد كتب للعبد لله أن يشهد اللقاء التاريخي الذي تم بين أكرم الحوراني رئيس المجلس النيلي السوري وبين خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعي وعضوا المجلس النيابي.. وقال خالد بكداش لأكرم الحوراني.. اننا نعارض الوحدة ولا نوافق على قيامها الا بشروط. وقال اكرم الحوراني: وما هي هذه الشروط؟ ورد بكداش اننا نشترط قيام وحدة فيدرالية وأن يكون لسوريا وضع خاص فلا حل للأحزاب ولا وجود للحزب الواحد ولا حل للحزب الشيوعي

على نحو خاص، وقال أكرم الحورانى بهدوء شديد. . أنك عضو بالمجلس النيابى، وأمامنا فى المساء جلسة تاريخية. وواجبك أن تعارض الوحدة فى المجلس وأن تحدد شروطك، ومن جانبنا سنتيح لك الفرصة كاملة لتقول ما عندك. وسنضع تحت أمرك كل اجهزة الاعلام المتوافرة لدينا. . وسكت خالد بكداش وقال: أذن. . نلتقى فى المجلس هذا المساء.

*****

كنت فى تلك الأيام شابا قليل الخبرة متحمسا دون دراية حقيقية بأساليب الطرق الملتوية للسياسة العربية، ولذلك سألت أكرم الحورانى بعد انصراف خالد بكداش. كيف تسمح له بمعارضة الوحدة فى المجلس النيابى وتضع تحت يده اجهزة الاعلام وفى وقت شديد الحساسية عظيم الخطر كالذى نحن فيه الآن؟ وضحك أكرم الحورانى وقال: أنها نصيحة لن يعمل بها خالد بكداش. فهو أذكى من أن يمتثل لنصيحتى، ولما بدت علامات البلاهة وعدم الفهم على وجه العبد لله مضى أكرم الحورانى يشرح قوله.

قال الحورانى: أعتقد أن خالد بكداش لن يحضر جلسة الليلة، لأنه اذا حضر سيضطر للصمت، وقد يفسر الصمت على أنه موافقة. ، قلت: ولكنه يستطيع أن يعارض ولن يمنعه أحد فى المجلس. ورد أكرم الحورانى: بالطبع لن يمنعه أحد داخل المجلس، ولكن الملايين المحتشدة خارج المجلس ستقتحم المجلس النيابى وستقوم بسحل خالد بكداش وكل من يعارض الوحدة. وهو يعلم ذلك تماما، لذلك أرجح أنه لن يشارك فى جلسة الليلة. وصدق حدس الحورانى، فلم يحضر خالد بكداش فى الجلسة. . ووافق المجلس بالاجماع

على قيام الوحدة بينما كانت الملايين تملأ الشوارع ترقص وتغنى للوحدة وتهتف بسقوط نورى السعيد.

وفى صباح اليوم التالى اتصل بى عامر عبدالله وطلب منى ضرورة أن أمر عليه فى المساء لأمر هام، ورجانى عدم التخلف لأنها مسألة حياة أو موت. . وعندما طرقت الباب على عامر عبدالله لم يكن وحده. وكان معه بالاضافة الى عزيز الشريف وعبدالقادر اسماعيل عدد اخر من الرفاق حضروا جميعا من بغداد للاشتراك فى اجتماعات اللجنة المركزية.

وكان واضحا ان هؤلاء الذين عبروا الحدود سرا من العراق الى سوريا هم قادة الميدان، وأنهم يقودون العمل السياسى اليومى للحزب الشيوعى فى بغداد، ولكن فى الحدود التى رسمتها القيادة الحقيقية التى تعيش فى دمشق، وكان واضحا أثار الفروق العميقة بين قادة الخنادق وقادة الفنادق! ولم أكن وحدى أنا الآخر. كان معى زميل صحفى من القاهرة أصر على الذهاب معى. وقضى الليل كله يشترك فى النقاش أحيانا ويدير دفته أحيانا. وكان رأى اللجنة المركزية أن عبدالناصر بتحالفه مع حزب البعث وبضربه للحزب الشيوعى انما ينفذ مخططا استعماريا، وكان لهذه الأسطوانة من الكلام وقع آخر غير وقعها الآن.

المهم أن صديقى الصحفى المصرى كان يتكلم أحيانا فى صف عبدالناصر وأحيانا الى جانب الحزب الشيوعى العراقى. . وعندما انتهت الجلسة التاريخية كما وصفها أحد قادة الميدان القادمين سرا من بغداد. كان الفجر على الأبواب وكان الأرهاق قد نال منا جميعا. . ومع ذلك وقف صديقى الصحفى المصرى

يتحدث بصوت عال عند الباب عن الفرق بين الثورة والدولة وعن وجوب الالتحام بين الفصائل الثورية مع تقدير الظروف الموضوعية وفهم طبيعة المرحلة، وملاحظة الفروق الدقيقة بين ما هو استراتيجى وما هو تكتيكى وما هو ديناميكى وما هو استاتيكى!

ويبدو أن عامر عبدالله كان على خبرة بسلوك هذا النوع من الرفاق خصوصا بعد سهرة طويلة حول مائدة حافلة بالمأكولات والمشروبات، فسحبنى من يدى الى ركن بعيد وقال: عندنا رسالة هامة لك ونريد ان تقوم بتوصيلها لعبدالناصر. وسألته عن قيمة الرسالة وأهميتها. قال إنها رسالة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي الى القيادة المصرية. وقلت لعامر عبدالله: ومادامت الرسالة على هذا النحو من الأهمية. فلماذا لا تسلمها الى السفير محمود رياض؟ ورد عامر عبدالله: لقد وقع اختيارنا عليك لأننا لا نرغب فى سلوك قنوات رسمية وتقليدية" وأخجل الرد تواضعى، فتسلمت الرسالة من عامر عبدالله وانصرفت.

أغرب شىء ان هذه الواقعة حدثت عند الفجر وأننى أتجهت بعدها مع صديقي الصحفى الى الفندق ولم استيقظ من نومى الا فى الثانية عشرة ظهرا، ولكنى اكتشفت ان خبر الرسالة وصل الى عبدالحميد السراج وإلى السفير محمود رياض. واثبتت دمشق أنها - شأنها شأن كل العواصم العربية - ليس فيها اسرار!

وفى اليوم التالى وصلتنى برقية من القاهرة تدعونى للعودة. وتكررت الرسائل حتى أنتهت آخر الأمر ببرقية من كلمتين: عد فورا، ولم اربط بين

البرقيات الواردة من القاهرة وبين الرسالة التى تسلمتها من الحزب الشيوعى العراقى . . ظننت ان الأمر مجرد محاولة من بعض المنافسين فى الجريدة لأن إقامتى فى دمشق طالت ، ولذلك لم أحفل كثيرا بهذه البرقيات وعدت فى الوقت الذى وجدته مناسبا .

ولكنى إكتشفت خطأ حساباتى وأن الأمر أكبر مما أتصور وأخطر . فما أن سلمت الرسالة للرئيس السابق أنور السادات باعتباره رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية . حتى صدر قرار بفصلى من جريدة الجمهورية . وبعد أسابيع قليلة كنت مربوطا بسلسلة حديدية ومستقلا قطارا بائسا قطع الرحلة بين القاهرة والواحات فى ثلاثين ساعة . . وقضيت عامين معتقلا فى سجن المحاريق . . وعلمت بعد ذلك أن الرسالة التى سلمنى اياها عامر عبدالله كانت تحمل انذارا للرئيس عبدالناصر ، واذا تم حل الحزب الشيوعى السورى بعد قيام الوحدة . . فان الشيوعيين العرب سيكافحون فى المستقبل ، ولكن ضد عبدالناصر وضد القومية العربية .

ما أتعس السياسة العربية حين تفقد المعلومات وحين تتخذ القرارات على أوهام وتخمينات . لقد تصور الحزب الشيوعى العراقى - لأننى أعمل محررا فى جريدة الجمهورية - أننى عين عبدالناصر ومندوبه فى دمشق ، وتصور عبدالناصر أننى شيوعى أعمل على المستوى العربى ، والا فلماذا اختارنى الشيوعيون بالذات لأكون رسولهم على عبد الناصر ؟

وبين تصور الشيوعيين وتخمينات جهاز عبد الناصر قضيت عامين فى سجن الواحات ، وترددت على سجون أخرى كثيرة من معتقل الفيوم الى

سجن القلعة . . وعندما التقيت بعامر عبدالله بعد ذلك بعشرين عاما فى بغداد وعلى مائدة غداء اقيمت على شرف أحمد حمروش . قال لى عامر عبدالله وكان قد صار وزيرا للدولة فى عهد الرئيس البكر : إننا مدينون لك بعامين قضيتهما فى سجون مصر .

تذكرت ذلك كله والطائرة التى تقلنى الى بغداد تحلق على ارتفاع شاهق . وتذكرت كيف باءت كل محاولاتى لدخول بغداد بالفشل . حتى عندما قامت الثورة وانفرد عبدالكريم قاسم بالأمر ، حاولت دخول بغداد دون جدوى . . ظلت أبوابها موصودة فى وجهى حتى بعد ذهاب نورى السعيد . . ولم أدخل بغداد الا بعد سقوط عبدالكريم قاسم ولفترة قصيرة لم تستمر الا أياما قليلة . . وانقطعت صلتى بعد ذلك ببغداد . حتى ذهبت اليها فى رحلة ضياع لم أكن أدرى لها نهاية . . ولكن هأنذا ذاهب الى بغداد وقد اختلفت الأمور فيها كثيرا عن ذى قبل . فعائلتى كلها تقيم هناك ، وأنا بصدد اصدار مجلة فى لندن . ولا أعرف ماذا يخبئه القدر للعبد لله هناك . بالرغم من وجود أصدقاء كثيرين لى فى الحزب وفى السلطة ، وهى صداقات وصلات تضرب فى بطن الزمن الى ربع قرن أو اكثر . فقد بدأت صلتى بحزب البعث فى الخمسينيات قبل الوحدة ، وتعرفت فى دمشق على مفكر الحزب ميشيل عفلق وعلى تاليران العرب صلاح البيطار . ولكن الذى بهرنى من الاعماق وشدنى اليه تماما هو أكرم الحورانى وأطلقت اسمه على ابنى اكرم . أما زكى الأرسوزى فقد كنت أتردد عليه فى مقهى فى دمشق . وكان يجلس فيها أغلب أوقات فراغه . . وكان دائم الشكوى من الزمان ومن الناس . وكان يبدو بائسا الى اقصى حد ، ويبدو أن جالته

النفسية التى تبحث عن تقهقره وتقدم رفاقه هى التى لونت نظرته المتشائمة للحياة والناس.

وتوطدت الصداقة بينى وبين عبدالله الريماوى والدكتور منيف الرزاز، كما أننى كنت على صلة وثيقة بعبدالفتاح الزلط وعبدالغنى قنوت وكان بعض هؤلاء قد فر من دمشق ويعيش فى بغداد ويحتل مراكز رئيسية.

ولكن فى اليوم التالى لوصولى الى بغداد. اكتشفت ان الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن، وأن عقدى كموظف بوزارة الأعلام براتب شهرى قدره مائتا دينار قد تم الغاؤه بجرة قلم. وأن مرتبى لم يصرف لعائلتى منذ شهرين. بينما كان وزير الاعلام وقتئذ هو نقيب الصحفيين العرب.. وأدركت أن هذا الذى حدث هو أولى ثمرات مجلة ٢٣ يوليو التى لم تصدر بعد، ولكن.. على كل من يقبض على جمرة النار ان يتحمل لسعاتها.

*****

انتهت أزمتى فى العراق سريعا، ولم اشأ التدقيق فى قرار الفصل وأسبابه، ولذلك ارتضيت التفسير الذى قدمه أحد المسئولين.. ولكن حز فى نفسى أن قرار الفصل صدر بتوقيع نقيب الصحفيين العرب وكان وقتها وزيرا للاعلام.. المهم اننى قبلت المنصب الذى عرضوه على كمحرر بجريدة الثورة.. ورفعوا مرتبى الى مائتين وخمسة وعشرين دينارا وكان مائتى دينار فى وزارة الاعلام.. وفى نفس الوقت نشرت، أخبار اليوم، مقالا لأحد الارزقية أكد فيه أننى أحصل على ملايين الدنانير من حكومة العراق.

ولم أضيِّع وقتا طويلا فى بغداد اتصلت بالزملاء الصحفيين الذين كانوا قد تركوا مصر، واستجاب على الفور فتحى خليل الذى قدر له بعد ذلك أن

يموت بعيدا عن مسقط الرأس والخلان . ووافق سعد زغلول على التعاون معنا ، وأبدى أحد الزملاء ترددا ووعد بأن يتعاون معنا بعد ان يتأكد من عدم وجود علاقة بيننا وبين الأسطول السادس الأمريكى! وعرضت منصب رئيس مجلس الادارة على الأخ رئيس الحزب الشورى إياه ، ولكنه رفض بشدة . ورفض حتى مناقشة الفكرة . وسألنى زميل آخر عما اذا كنت قد حصلت على تمويل ، فلما اجبته بالايجاب قال : طلب ما تقسم معايا . . وقلت للزميل إياه : لقد حصلنا على تمويل لاصدار مجلة . . فتعال معنا وتول رئاسة تحرير المجلة وتول انفاق ما حصلنا عليه ، وتقاسم معنا ما تقضى به الاقدار . فان قضت علينا باطلاق الرصاص ، فليكن نصيبك رصاصة فى قدمك او رصاصة فى ذراعك ، وأن قضت علينا بملايين الجنيهات فليكن نصيبك منها نصيب الأسد . ولم يقتنع صديقى بمنطقى ولم يقبل العرض الذى قدمته ، وتفرغ بعد ذلك للتشنيع على المجلة قبل أن ترى النور .

غادرت بغداد بعد عشرة أيام فى طريقى الى دمشق . واستقبلنى فى المطار مندوب من الاعلام . وخصصوا للعبد لله سيارة القصر الجمهورى . ومع ذلك فتشونى تفتيشا دقيقا للغاية فى المطار . لم يكن هناك سبب الا أننى قادم من بغداد! واستقبلنى الوزير أحمد الاسكندر بحفاوة ورحب بصدور المجلة وأبدى استعداده للمساعدة . ولكنه اعتذر عن تمويل المجلة . وقال إن أحوالنا فى سوريا ليست على ما يرام .

واستقبلنى عبدالله الأحمر وسجلوا لى حديثا فى تليفزيون دمشق ، ولم يسمح لى قطب تليفزيون بغداد! وانطلقت من دمشق الى دولة الامارات

ووافقت وزارة الاعلام على الاشتراك فى المجلة وكانت هى الدولة العربية الوحيدة التى دفعت الاشتراك.

ووعدت وزارة الأعلام فى قطر بالاشتراك. ولكن الاشتراك لم يصل حتى هذه اللحظة. وعدت بعد جولتى فى الخليج الى بغداد.. ودفعوا للمجلة ثلاثين الف دينار تحت الحساب. وكان الاتفاق يقضى بتوزيع خمسة الاف نسخة تباع بسعر ربع دينار وتتقاضى عنها مؤسسة التوزيع نسبة أربعين فى المائة. وتخصم السلفة التى حصلنا عليها من نصيبنا فى التوزيع.

وطرت الى الجزائر واجتمعت بالفريق سعد الدين الشاذلى الذى وعد بكتابة بعض المقالات فى المجلة. وسهرت ليلة مع الزعيم الفلسطينى ابواياد ووعدنى بالوقوف الى جانب المجلة. وحضر اللقاء الاستاذ الفريد فرج. وكان ابوأياد متحمسا بمشرع مجلة ٢٣ يوليو، ولكن يبدو أنه فى غمرة انشغاله بعظائم الأمور. لم يتمكن من ترجمة حماسه الى أفعال وعندما ذكرناه بما وعد وطاردناه بالمكالمات التليفونية أرسل الينا اشتراك منظمة التحرير وكان عشرة الاف دولار جاء بها الاستاذ بكر الشرقاوى من بيروت!

وكان المبلغ الذى وفر لدينا لشراء ماكينات صف الحروف وتأجير مقر المجلة فى ٢٦ واريك رود فى حى ايرلس كورت فى لندن

وعندما صدر العدد الأول من المجلة، كان كل ما تبقى معنا من رصيد المجلة ستين ألف جنيه استرلينى فقط لا غير. ولابد أن أذكر هنا أن الفضل فى اصدار العدد الأول يرجع الى الزميل مودى حكيم. فقد اضطررنا الى طبع

العدد الأول فى مطبعته . وتقاضى ثمانية الاف جنيه استرلينى مقابل طبع عشرين الف نسخة من المجلة . وتحمل عواقب هذا العمل الذى يثير جنون البعض فى مصر . بالرغم من أنه كان يعمل مندوبا لمجلة روزاليوسف فى لندن .

ولابد أن اذكر هنا موقف الزميل الاستاذ المرحوم الاستاذ حسن فؤاد وهو الذى تولى رئاسة تحرير مجلة صباح الخير بعد القبض على فى قضية ما يسمى مراكز القوى . ثم استقال من رئاسة التحرير بعد زيارة السادات للقدس . . وعندما التقيت به فى لندن وعرضت عليه المشروع وكان لا يزال مجرد فكرة ، أبدى حماسا شديدا ، وتطوع فوضع تصميم غلاف المجلة كما ظهرت به واتصلنا بخطاط مصرى ليكتب اسم ٢٣ يوليو ، ويبدو أنه كان يؤمن بكل حرف تكتبه جرائد القاهرة عنا ، ولذلك طالبنا بعدة ألوف من الجنيهات . ولما رفضنا الدفع بالطبع عرض علينا استخدامه كوسيط فى شراء العقارات التى نفكر ان نشتريها فى لندن ! وانتهى به الحال الى عدم الحصول على أجر الخطوط التى كتبها للمجلة .

واكتشفت بعد صدور العدد الأول من المجلة أن المجلة ممنوعة من دخول اقطار عربية كنت أضعها فى خانة الاصدقاء ، لقد منعت المجلة من دخول ليبيا والجزائر ولبنان . وكان تفسير الجزائر لهذا الموقف أنها تمنع دخول الصحف العربية التى تصدر فى أوربا ، ولم نسمع شيئا من ليبيا الا الرفض . بينما كانت اذاعة طرابلس تذيع كل ما ننشره عن نظام الرئيس السادات وتذكر اسم المجلة فى كل النشرات ! أما عن سبب منعها فى لبنان ، فقد كان مضحكا للغاية ومنسجما مع الاحوال العامة على مستوى الامة والتى تدعو الى الرثاء . .

فقد حدث ان غضبت حكومة لبنان من موقف صحف القاهرة التى انحازت الى عملية السلام وزيارة السادات للقدس. فصدر قرار من وزارة الاعلام اللبنانية بمنع الصحف المصرية من دخول لبنان. ولما كانت مجلة ٢٣ يوليو مصرية.. فقد شملها قرار المنع.. وعبثا حاولنا اقناع الرقيب اللبنانى بأن مجلة ٢٣ يوليو مصرية أى نعم ولكنها معارضة.. ويبدو انه كان فاهما اكثر منا ما ينبغى منعه من دخول لبنان.

المهم أننا وجدنا إقبالا شديدا من القراء فى كل مكان وصلت اليه المجلة. وبلغ توزيعها فى الكويت اربعة الاف نسخة وفى سوريا خمسة الاف نسخة وفى العراق عشرة الاف نسخة زادت بعد ذلك وبناء على نصيحة مؤسسة التوزيع الى خمسة عشر الف نسخة. وطلبت اليمن الشمالية مائة نسخة فاعتذرنا لأن تكلفة الشحن اكثر من ثمن البيع. ووزعنا فى تونس خمسمائة نسخة وفى المغرب الفى نسخة.. ومثلها فى الاردن، وعندما سمحت السعودية للمجلة بالتوزيع فى مدنها. بدأنا بألف نسخة ووصلنا الى ثمانية الاف نسخة بعد ثلاثة اسابيع وكان توزيعها فى اوروبا فى الشتاء يصل إلى ألف نسخة وفى الصيف يتضاعف الى الفى نسخة، اكثرها كان يباع فى لندن: ولسوء الحظ لم نستطع الوصول بالمجلة الى موريتانيا والصومال وجمهورية الصحراء.

والحق أقول ان المجلة تعرضت للتوقف بعد العدد التاسع ولكن فتح أبواب السعودية أمام المجلة أتاح لنا الاستمرار. لأن متعهدا عربيا دفع لنا مقدما خمسين الف جنيه استرلينى مقابل الكميات المطلوبة. وتعرضت المجلة مرة

أخرى للتوقف فى العدد السابع عشر، واتصلنا بأحد العرب المقيمين فى لندن، فدبر لنا لقاء مع سفير عربى وفى نفس الوقت يشتغل بالتجارة ويعتبر واحدا من أغنى اغنياء العصر واستقبلنا الرجل فى قصره وناقش معنا أحوال المجلة. وسألنا عما اذا كان الفريق سعد الشاذلى يقف وراء المجلة. فأجبناه بأنه ينشر فيها مقالاته.

*****

المهم أن الرجل أبدى استعداده للمساعدة. وقال إنه سيتصل بنا خلال أيام. وفى اليوم التالى اتصل بنا أحد العرب، وكان يشغل منصبا اقتصاديا عربيا فى لندن. وحذرنا من المندوب الذى سيرسله لنا السفير الذى وعد بالمساعدة. وقال إن مندوب السفير - حسب علمه - يعمل موظفا فى المخابرات البريطانية. ومع ذلك انتظرنا مندوب السفير. ولكنه لم يظهر قط. كما أن السفير لم يتصل فى أى وقت. ويبدو أنه كان مكلفا بالحصول منا على بعض المعلومات بشأن علاقة الفريق سعد الشاذلى بالمجلة.

وساءت أحوالنا المالية الى درجة كبيرة. واضطرنا الى الاستغناء عن بعض الموظفين وبعض العاملين فى التحرير وصارحت من تبقى من المحررين بحقيقة الأوضاع فى المجلة.

واقترحت تخفيض المرتبات وأشهد أنها كانت هزيلة.. ووجدت ترحيبا من الجميع ولابد ان أذكر هنا شاباً مصريا اشتغل بالصحافة فى القاهرة بعد دخولى السجن، ولم يكن قد سبق لى رؤيته أو التعرف عليه. ولكن عندما طلبت من الاستاذ محمد عودة ان يرشح لى بعض الصحفيين الشبان.. رشح

لى اسمين ، عبدالعال الباقورى وعاصم حنفى . ولكن فجأة ذهب الباقورى الى الامارات وعمل فى احدى الصحف هناك ، وفجأة ايضا وجدت عاصم حنفى أمامى فى لندن . . لم يكن معه اقامة ولم يكن معه نقود . . ولم يكن له هدف الا الاشتراك فى تحرير «٢٣ يوليو» ، وكان على دراية جيدة بالعمل الصحفى وصاحب طريقة وله اسلوب وقد اعتمدت عليه كثيرا بالرغم من حنونه وتصرفاته المزعجة ، فقد كان من هذا النوع المثالى الذى لا يرى فى الحياة الا اللون الابيض واللون الأسود . وصار بالرغم من كل ذلك أحد أعمدة «٢٣ يوليو» وكان أول من وافق على تخفيض مرتبه . واقترح أن يعمل المحررون جميعا فى صحف أخرى ويتقاضون أجورا وفى نفس الوقت يعملون فى (٢٣ يوليو) بالمجان . . ولكن هذا الاقتراح لم ير النور لأسباب كثيرة . ثم فجأة لاحت لنا بارقة أمل وسط ليل المشاكل الطويل .

اتصل بى مهندس مصرى يشتغل بالسياسة . وكان يقيم فى بغداد لسنوات طويلة ويدير شركة كهرباء . وحقق ارباحا بلغت عدة ملايين من الدولارات . وقال لى على الهاتف : سنتعاون معا ، وسنضمن للمجلة الاستمرار .

وهتفت : يافرج الله . ولكن ما حدث بعد ذلك كان أغرب من الخيال !

المعارضة.. والحانوتى.. والاشتراكى!

أخيرا جاء المنقذ الذى سينتشل «٢٣ يوليو» من المأزق الخطير الذى تواجهه ، جاء المهندس الذى ينحدر من أسرة كانت ثرية وعفية ومفترية، واشترك أغلب أفرادها فى وزارات عصر الملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق! وتولى أحدهم منصبا كبيرا فى العهد الملكى. ولكن أغرب شىء ان أفراد الجيل التالى للأسرة اعتنقوا الماركسية وكانوا روادها فى الأربعينات. وكان الباب الذى تسربت منه الشيوعية هو باب الخدم. كانت المربيات من انجلترا، والطباخ من فرنسا، ومدير البيت من سويسرا.

[illegible] غادر مصر بعد [illegible] شركة كهرباء فى عاصمة عربية، واستطاع ان يحقق أرباحا بلغت خمسة ملايين دولار فى عدة سنوات، قبل أن يدب الخلاف بين الحزب الذى ينتمى اليه المهندس والحزب الذى يحكم القطر العربى اياه..

وعندما دب الخلاف، ترك المهندس معدات الشركة ومكاتبها وهرب من هناك، وأقام فى أوربا فترة وأعلن فى بيان رسمى سياسى هام ان مشكلة مصر

والوطن العربى لن تحل إلا بـ«التنوير» وأكد على ضرورة تنوير الناس قبل أى تغيير، وأصدر نشرة باسم التنوير، وعقد مؤتمرا صحفيا فى باريس لشرح أهداف التنوير! ولا أدرى لماذا احتار التنوير اسما للتنظيم الجديد، ويبدو أنه كان تكريما لشركة النور التى كان يملكها خارج مصر، والتى حققت له كل هذه الأرباح!

المهم جاء المهندس المصرى إياه. واستمع إلينا أكثر من ساعة نشرح له المشاكل التى تواجه المجلة، والضائقة المالية التى تعانى منها. وكنا ننفق على العدد عشرين ألف جنيه فى المتوسط بين الطباعة والشحن وإيجار المكاتب وأجور العمال والمحررين! وبعد ان استمع الينا باهتمام اقترح لحل أزمة المجلة أن يشرف هو شخصيا على عشر صفحات من المجلة، ليشرح فيها أهداف التنوير. ولينشر فيها رأى التنوير فى الأحداث التى تجرى حولنا!!

وعندما سألناه عن مقدار مساهمته المالية فى المجلة. قال ببساطة، انه لم يفكر فى هذا الموضوع، ولكن مساهمته ستقتصر على الناحية التنويرية فقط لا غير. نظرت للمهندس الذى كان يجلس امامى على مائدة صغيرة فى بهو فندق انتركونتننتال فى لندن، وهممت بالقيام بحركة معروفة يقوم بها اخواننا الاسكندرانية فى مثل هذه المواقف، ولكنى فضلت الانصراف فجأة. دون أن أكلف نفسى عناء مصافحة المهندس إياه.

فى خلال هذه الفترة التى تعرضت فيها المجلة للمشاكل، خرجت علينا جريدة «اليسار العربى» التى يصدرها الحزب الشيوعى المصرى فى باريس بمقال عن الحركة الوطنية المصرية فى الخارج، وخصت مجلة «٢٣ يوليو» بعدة

سطور: «لقد انزلقت مجلة (٢٣ يوليو) الى نفس مستوى المطبوعات التى تصدرها وكالة المخابرات الأمريكية، وأن الهجوم على الحزب الشيوعى المصرى طليعة نضال الطبقة العاملة والجماهير الكادحة، هو علامة على الأزمة التى تعانى منها الفصائل الوطنية التى تناضل من خندق الأعداء!» ويعلم الله أننى لم أكن راغبا فى دخول معركة ضد الحزب الشيوعى المصرى، ولكنى اضطررت الى الرد على مجلة «اليسار العربى» وقلت بالحرف الواحد: «إن اليسار العربى» تعرضت لنا أخيرا وتنازلت ونشرت اسم مجلة «٢٣ يوليو» وهى حسنة نذكرها لها وللحزب الشيوعى، لأنها مجلة مبروكة تطبع خمسة آلاف نسخة. بينما المرتجع منها عشرة آلاف نسخة على وجه التحديد، وسألت الله أن ينجينا من غضبتها لأنها من وزن لا نقدر عليه، لأنها كالصخرة ونحن مجرد خزف، وويل للخزف إن وقع على الصخر، وويل له إن وقع الصخر عليه».. ! ويبدو ان هذه الكلمات القليلة كانت كافية لاقناع الحزب الشيوعى المصرى بعدم التفكير فى التعرض لنا مرة أخرى!

حدث شيء غريب فى تلك الفترة، فقد انعقد فى تلك الاثناء مؤتمر للصحفيين المصريين الذين يعيشون فى المنفى، وانعقد المؤتمر فى باريس. وتقدم أحد هؤلاء الذين يعيشون خارج مصر ببحث عن الصحف الوطنية التى تناضل خارج الحدود. وكان البحث طويلا استغرق ستين صفحة من الحجم الكبير، ولكن مجلة «٢٣ يوليو» لم تستغرق إلا سطرين اثنين بالتمام والكمال، أما البحث كله فقد كان عن مجلة «اليسار العربى» التى جاء ذكرها فى السطور السابقة!! واكتشفت اننا مازلنا نعيش فى عصر «الاستعمار على يد سعد ولا الجلاء على يد عدلى».

ولقد حدثت فى هذا المؤتمر الصحفى واقعة طريفة سأذكرها لكم بالتفصيل . فقد حدث اثناء الجلسة الختامية لوضع البيان النهائى أن أعترض الأستاذ محمود أمين العالم على قصر المساعدة على الصحفيين المصريين المعارضين واعترض على ان تكون المساعدة وقفا على حكومة العراق وحدها . واقترح العالم ان تكون المساعدة والدعم للصحفيين العرب المعارضين جميعا ، وأن يكون الدعم من جانب الدول العربية كلها .

ورد سعد قاسم حمودى نقيب الصحفيين العرب ، بأنه لا مانع لديه من هذا التعديل ، ولكن بشرط أن يتلقى خطابات رسمية من الحكومات العربية التى ترغب فى دعم الصحفيين المعارضين ، وقال إنه لم يتلق ردا بخصوص هذا الدعم إلا من حكومة العراق ، وأصر محمود أمين العالم ، واعتذر سيد قاسم حمودى لأن اتحاد الصحفيين العرب جهة رسمية ولا تستطيع أن تعد بما لا تستطيع .

وسألت العالم فجأة ، ومن هم الصحفيون العرب الذين تقصدهم وتصر على دعمهم؟ فقال العالم ، من كل البلاد العربية . ولما طالبته بالتحديد . قال من سوريا والعراق وليبيا . وقلت له وقد حبكت النكتة مع العبدلله ، وهل هؤلاء فى حاجة الى الدعم . انهم فى حاجة الى حانوتى لو فكروا! مجرد تفكير فى ان ينضموا الى صفوف المعارضين! وانفجر الجميع ضاحكين ، وكان أكثرهم ضحكا صابر فلحوط نقيب الصحفيين السوريين ، وسعد قاسم نقيب الصحفيين العراقيين!

ولكن هذه النكتة كانت سببا فى انهاء المناقشة ، وفى صدور بيان اتحاد الصحفيين العرب بدعم الصحفيين المصريين المعارضين! وهى ان كانت نكتة

فجرت ضحك الموجودين، فهى أيضا حقيقة مرة للأسف. فليس على الساحة العربية إلا مصر التى تمنح لأبنائها هامشا عريضا للمعارضة. وحكومة مصر فى كل عهودى لم تستخدم المسدسات فى الحوار صد من يخالفها الرأى.

وأذكر أن أحد الذين كانت لهم صلة بالمجلة اتصل ببوليس اسكوتلنديارد وأبلغهم أن هناك خطة وضعتها الحكومة المصرية لقتلنا. واهتمت الشرطة البريطانية بالأمر، واتصلت بالسفير المصرى الذى أكد لهم أن مصر لا تفكر فى عمل مثل هذا، كما أ مثل هذا العمل ليس فى طبيعة حكومة مصر. ولما كنت خارج بريطانيا فى ذلك الوقت، فقد ذهبت لمقابلة ضباط اسكوتلنديارد حسب طلبهم. وسألونى سؤالا مجددا «هل تخاف من عملية اغتيال تقوم بها حكومة مصر ضدك؟». ودهشوا حين أكدت لهم أن حكومة مصر لا تقتل معارضيها، وأنها قد تفصلهم من أعمالهم، وقد تفصل بعض أقاربهم، ولكنها - أبدا ومستحيل - أن تلجأ الى قتلهم. وقلت للضابط الانجليزى: لو أننى من مواطنى ثلاثة نظم عربية بالتحديد لكان الأمر يختلف، فلو أننى مواطن من النظام (السورى) فبالتأكيد سنقتل قبل صدور العدد الأول. ولو أننى من مواطنى النظام (العراقى) فالذى لاشك فيه أننى سأقتل قبل صدور العدد الثالث، ولو أننى كنت من مواطنى النظام (الليبى) فسأموت بعد صدور العدد الألف..

وسألنى الضابط الانجليزى.. هل تقصد أن أجهزة النظام الأخير صبورة الى هذا الحد؟ وأجبته بالعكس بل أنهم أكثر عجلة، ولكنهم جهلاء لا يعرفون الانجليزية، وسيستغرق بحثهم عن عنوان المجلة سنين طويلة، وقد نموت ميتة طبيعية قبل أن يعثروا علينا، وضحك الضابط الانجليزى ولم يعلق بشىء!

المهم أ المجلة ظلت تصدر وان تأخرت أحيانا عن موعد الصدور، ثم بدأنا نتعرض لعملية استنزاف رهيبة تولى تخطيطها بعض الجهات. واضطررنا الى اغلاق المطبعة التى انشأناها لخدمة المجلة، فقد تحولت الى قناة تسربت منها ميزانية المجلة بلا رحمة!

******

وعندما ضاقت الحلقة حولنا تماما! كان لابد من رحلة الى بغداد. والى بغداد بالذات، لأنها كانت أكبر سوق لتوزيع المجلة، واذا كانت كل النسخ تنفد بالفعل كما يؤكد رجال مؤسسة التوزيع فى بغداد. فلابد أن يكون لنا مبلغ محترم فى ذمة المؤسسة. والى بغداد بالذات فقد كانت اسرتى تعيش هناك وأولادى يتعلمون فى جامعة بغداد.

وحملت نفسى وطرت الى بغداد. وهناك استمعت الى رأى الجميع فى المجلة. ولم يزد هذا الرأى على أربع كلمات بالتحديد «ليس فيها نفس قومى».

سمعت هذه الكلمات من الأستاذ طارق عزيز ومن وزير الاعلام ومن بائع الصحف فى الطريق!! وحاولت أن أعرف ماهو النفس القومى الذى يقصدونه؟ لقد كانت المجلة ضد الصلح مع اسرائيل، ومع الوحدة العربية، ومع الثورة الفلسطينية، ومع عودة مصر الى العالم العربى، فما هو النفس العربى المقصود إذن؟ وطلبت منهم أخيرا أن يرسلوا لنا المادة التى تحمل هذا النفس العربى وطلبت الاطلاع على كشف التوزيع، ولكنهم اكتفوا فى المؤسسة بابلاغى بأن الأمور على مايرام، وأن التوزيع يغطى كل المناطق، وأن

المعلومات المتوافرة لديهم تؤكد أن المجلة تختفى بعد طرحها فى الأسواق بساعات. وعندما طلبت سلفة جديدة. صرفوا لنا سلفة تحت حساب الاعلانات والتوزيع. واقترح على بعض الموظفين فى المؤسسة أن نزيد الكمية الموزعة فى العراق، ولكن كيف لنا أن نستجيب الى هذا الطلب، وواقع الأحوال كما يقولون «العين بصيرة واليد قصيرة»؟ والحمدلله لأننى لم أستجب لهذه النصيحة وإلا فمن يدرى؟ ربما كنت الآن أقضى أياما فى المنفى هاربا من أصحاب الديون!

*****

أحيانا تقع للعبدلله أحداث أشبه بالمعجزات. ذات مرة كنت فى طنجة عائدا من رحلة فى الجزائر زمن الثورة. . واصطحبنى الى المطار ثلاثة من الفدائيين الجزائريين لم استطع معرفة اسم أحد منهم فقد كانوا يتسمون بأسماء حركية، وبعد أن صافحونى مودعين وعادوا من حيث جاءوا. اكتشفت أن مواعيد الطائرات المسافرة الى مدريد قد تغيرت. وأن أول طائرة ستكون بعد ٤٨ ساعة!!

هنا اسقط فى يدى. فلم يكن معى نقود ولا متاع، لم يكن معى الا تذكرة طائرة الى مدريد، ولم أكن أعرف أحدا فى طنجة فقد كانت لاتزال دولية. ولكنى بالرغم من المأزق الخطير تصرفت بسرعة. ركبت عربة أجرة الى أفخم فندق فى المدينة وهو فندق «المنزه» وطلبت حجرة على البحر ولكنهم اعتذروا. لعدم وجود حجرات على البحر، فحجزت لنفسى جناحا فاخرا ولا المرحوم أوناسيس! وغادرت الفندق قاصدا قصر بن جلون وهو حاكم طنجة، وكانت

المسافة من الفندق حتى القصر لا تقل عن خمسة أميال، قطعتها على الأقدام تحت المطر الذى كان ينهمر فوق الرءوس كالسيل! وكنت على علاقة «وثيقة» بالحاكم بن جلون، فقد رأيته فى مكتب السادات عندما كان رئيسا لتحرير الجمهورية وصافحته، وكانت هذه هى كل العلاقة بينى وبين بن جلون!

المهم أننى عندما وصلت قصر بن جلون سألت الحارس أن يقوم بإبلاغ رغبتى فى مقابلة الحاكم، ولكن الحارس الذى كان يغالب النعاس فى هذا الوقت المبكر من الصباح. قال فى غير اهتمام: الحاكم مش موجود، سافر الى مصر!! وقلت يا بركة السيد البدوى، «رحنا فى داهية واللى كان أهو كان»!

قطعت طريقى الى الفندق ورأسى يكاد ينفجر من القلق والضيق. وأخيرا استقر رأى العبدلله على الاتصال هاتفيا بالسيد عبدالمنعم النجار الملحق العسكرى المصرى فى مدريد. كان هو أحد المسئولين عن امداد الثورة الجزائرية بالسلاح. وهو الذى دبر أمر دخولى جزائر الثورة عن طريق طنجة وتطوان ووجدة، ثم الى الجبال المحيطة بتلمسان، وكان رفيقى فى الرحلة جزائريا هاربا من خدمة الشرطة الفرنسية وجاء الى الجزائر لينضم للثوار. كان يدعى ابراهيم حرش ولا أعرف أين هو الآن!

وعندما اهتديت الى هذا الحل كنت قد فقدت الطريق الى الفندق فرحت اسأل كل فترة أى عابر سبيل عن المكان الذى ينبغى أن أقطعه الى فندق المنزه الفاخر المطل على المضيق! ولقيت عابر سبيل اكتشفت انه مواطن تونسى اسمه الشعبينى، وكان يعمل منتجا للبرامج الاذاعية وللأفلام التسجيلية. واكتشفت ان معه مصريا اسمه كمال بركات كان يعمل بالاذاعة التونسية، كان لقائى

بالرجلين محض صدفة ، واكتشفت بعد اللقاء أننى أمعنت فى الطريق المضاد للطريق الذى كان يجب على أن أسلكه . ولولا هذا الخطأ لما حدث اللقاء الذى حل مشاكلى كلها وبضربة حظ نادرة!

وقضيت يومين مع الصديقين بركات والشعبينى فى طنجة هما بالفعل من أجمل أيام العمر . ثم التقينا بعد ذلك فى مدريد والتقيت بالأخ بركات بعد ذلك فى القاهرة . أما الأخ الشعبينى فلم أره قط .

وفى حياتى تتكرر مثل هذه القصص كثيرا . وقد تكررت معى فى تلك الأيام التى شعرت فيها بالضيق ، والمشاكل تحيط بنا وبالمجلة من كل جانب! دق جرس التليفون فى مكتبى بالجريدة ، واذا بصوت صديق قديم وهو الدكتور شمس الدين الفاسى انقطعت الصلة بيننا خمسة عشر عاما طويلة . وطلب إلى أن أزوره فاعتذرت له بزحمة العمل وانشغال البال ، وطلبت إليه أن يتفضل بزيارتى فى المجلة ، خطر فى بالى أن صديقى الدكتور شمس ربما يعانى من ظروف صعبة ، فقد عرفته فى أيام الشباب وكان يقيم بالقاهرة ممنوعا من العودة الى بلاده . كانت ظروفه صعبة وأحواله المالية أصعب . واقترحت على شريكى فى المجلة أن ندبر للرجل مبلغا من المال فوافق على الفور ، وأعددنا بالفعل مبلغ خمسمائة جنيه فى ظرف وانتظرت وصول الصديق الذى باعدت بينى وبينه الظروف . . وجاء شمس الفاسى ومعه شخص آخر . وجلسا معى قرابة الساعة نتحدث عن ذكريات الزمن الذى مضى .

******

فكم من أيام سهرناها مع حتى الصباح ، نستمع الى حكايات العم زكريا الحجاوى . والى نوادر الصديق عباس الأسوانى ، والى قفشات العم

عبدالحميد قطامش! وبعد أن أجهدنا الذاكرة فى نبش تفاصيل الماضى. استأذن صديقى فى الانصراف، وانتحيت به جانبا اسأله اذا كان فى حاجة الى مساعدة. فرد بأن أحواله على مايرام، وأن الأمور تغيرت عن ذى قبل. وودعت صديقى على أمل أن نلتقى فيما بعد. ولم تنقطع الاتصالات التليفونية بينى وبين الصديق، الى أن جاء يوم بعث بسيارته لتقلنى الى حيث يقيم، ويالها من مفاجأة عندما فاتحنى الصديق برغبته فى مساعدة المجلة، وقال لى ونحن نجلس فى حديقة قصره الفسيح على مشارف لندن، ماهى مشاكلكم على وجه التحديد؟ وأجبته بأن المشكلة الحقيقية هى تدبير أجور المحررين والعمال أول كل شهر. ورد على الفور: سأتكفل بهذه المرتبات لمدة خمسة شهور. وقد صدق الرجل الطيب فيما وعد به، وظلت العلاقة بيننا على مايرام حتى أفسدها «أولاد الحلال»!! ولم تتصل العلاقة بيننا إلا بعد ذلك بأعوام. واعتذر لى عن سوء الفهم الذى وقع فيه. واعتذرت له أنا الآخر وعادت أواصر الصداقة بيننا كما كانت منذ أن تعارفنا منذ خمسة وثلاثين عاما أو يزيد!

والحق أقول أن ميزانية «٢٣ يوليو» جاءت كلها عبر قنوات رسمية، فرأسمالها جاء من بنك «يونايتد» فى احدى دول الخليج الى بنك «يونايتد» فى لندن، ومن هناك تم تحويله الى بنك «مدلاند» فى «بارك لين» ولايزال فى رصيد المجلة مبلغ صغير لم نستطع التصرف فيه حتى الآن. لأن ذلك يستلزم امضاء الشريكين!! وكان هذا الرأسمال ربع مليون جنيه.. لايزيد!

أما روايات أجهزة الرئيس السادات عن الملايين التى هبطت علينا والعمارات التى اشتريناها. فلم تكن إلا مجرد خيالات رجال الحاشية!

ولكن هناك كلمة أخرى يجب أن تقال، فبالاضافة الى قلة الموارد وألاعيب النظم الحليفة وغدر الأصدقاء، إلا أننى أتحمل جزءا كبيرا من المسئولية عن النهاية المؤسفة التى انتهت إليها المجلة. فلقد تبين للعبدلله أننى أكثر سذاجة من مهبول فى مولد سيدى حمزة. فلقد تصورت أننى لحظة اصدار «٢٣ يوليو» سيسارع الكل الى المساعدة. ثم اتضح لى أننا أمة واحدة فى الاذاعة وقبائل شتى فى الواقع! وأن كل ما يهم الأجهزة العربية حقا هو فضح نظم عربية أخرى تناصبها العداء! ثم ثقتى المفرطة فى الناس، وهى عاهة لا استطيع التخلص منها، ثم عدم درايتى بالصحافة كتجارة، لأننى على طول ما عشت لم اشتغل بالصحافة إلا من باب الكتابة والتحرير.. أما الادارة فلم يكن لى بها خبرة. وهو اعتراف لابد من تسجيله حتى لا يتصور البعض أننى ألقى باللوم على كل شىء إلا شخص العبدلله!

المهم.. انه بعد أن توقف دعم الصديق بدأت الأمور تتجه بنا الى الطريق المسدود. واشتدت ضراوة الحملة ضدنا فى القاهرة. وارسلوا الى لندن زميلا صحفيا انتقل الى رحمة الله، وسعى بنشاط ليهدم المعبد فوق رءوسنا. ومع ذلك كتبنا كلمة رثاء للفقيد بعد أن لحق بالرفيق الأعلى.

وفى الأسبوع قبل الأخير، طرت الى بغداد لتحصيل مالنا من نقود كنا قد أصدرنا أكثر من أربعين عددا من المجلة. واذا كنا نبيع خمسة عشر ألف نسخة كل أسبوع فمعنى ذلك أن نصيبنا من عملية التوزيع هو ٢٥٠٠ دينار فى الأسبوع، ومع الاعلانات سيكون نصيبنا ثلاثة آلاف دينار فى الاسبوع، وبعد خصم السلفة يكون لنا أربعون ألف دينار، تساوى فى تلك الأيام ٨٠ ألف

جنيه استرليني، ولكنى فوجئت وأنا أجلس أمام موظف مؤسسة التوزيع بأن توزيع المجلة لم يزد فى أى يوم من الأيام على أربعة آلاف نسخة. أربعة آلاف نسخة فى العدد الأول، وأربعة آلاف نسخة فى العدد الأخير، وأربعة آلاف نسخة بين العددين الأول والأخير.

وسألت موظف التوزيع. هل هم عساكر الذين يشترون المجلة؟ لماذا ليس ثلاثة آلاف نسخة وتسعمائة؟ ولماذا ليس أربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعين؟ لماذا أربعة آلاف فى كل أسبوع؟

ورد الموظف فى هدوء: هذا هو كشف التوزيع! أما الأعلانات فقد نشرت- هكذا قال الموظف- بدون اذن نشر!! وعلى ذلك فهو لا يستطيع دفعها. وبالقلم والورقة تبين أن المجلة مدينة لمؤسسة التوزيع فى بغداد بمبلغ عشرين ألف جنيه انجليزى.

وطلبت شريكى بالتليفون من مكتب موظف التوزيع فى بغداد، وطلبت إليه أن يتوقف عن ارسال المجلة الى بغداد!

أعجب شىء أننى عندما سألت الموظف عن الأعداد التى لم تصادف حظا فى سوق البيع رد فى هدوء.. لقد تخلصنا منها.. وعندما صرخت فى ذهول.. وهل هذا معقول؟ قال بهدوء أشد. أرجوك صدقنى هذه مسألة ثقة!!

حاولت القيام بمحاولة أخيرة سافرت الى الكويت بعد أن زالت الأسباب التى كانت تحول بينى وبين الذهاب الى هناك.. والتقيت بالشيخ جابر العلى

وزير الاعلام وقتئذ والشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية ! وكان الرد الذى سمعته من الجميع، هذه لعبة خطرة يا محمود. ونحن لا نستطيع دعم مجلة يصدرها صحفى عربى مشق ضد حكومة بلده، لأن كل نظام عربى يستطيع أن يدعم مجلة ضد نظام آخر. ولو حدث هذا الشيء فستكون كارثة على الجميع.

وعدت الى لندن بخفى حنين. وكتبت صحف القاهرة أننى عدت محملا بالملايين من الكويت، ولكنى استأثرت بها واشتريت بالمبالغ التى نهبتها ثلاث شقق فاخرة بالقرب من اكسفورد ستريت في لندن! ولزمت شقتى الصغيرة فلم أكن أغادرها إلا نادرا. وعزفت عن الذهاب الى مكتبى فى المجلة فقد حدث الانهيار ولم يكن فى استطاعة أحد أن يوقفه، وهزنى بشدة موقف صديق فنان انتقل الى رحمة الله. هو الذى عرض العمل معنا. واشتغل معنا بحماس. ولدى خطابات بخط يده. هذا الصديق الفنان عندما عاد الى القاهرة كتب فى «روزاليوسف» اننى سرقت رسومه وكتبت التعليق تحتها وأنه مع الرئيس السادات وضد أعدائه على طول الخط!!

وهناك شيء آخر أقلقنى بشدة. هو مصير الصديق أمين الغفارى، والزميل عاصم حنفى والسبب أنهما هربا من مصر الى «٢٣ يوليو» والآن وقد توقف «٢٣ يوليو» فأين المفر إذن؟ وقد تصرفت معهما كما ينبغى على الصديق ازاء الصديق ودبرت عملا فيما بعد لعاصم حنفى فى جريدة «السياسة» الكويتية، وشق أمين الغفارى طريقه فيما بعد، وصار من معالم لندن، وأكاد أقول أن لندن بدونه تختلف كثيرا عن لندن به!!

الآن آن للولد الشقى أن يستريح . لقد كانت فترة صدور المجلة فترة رهيبة وقلقة وعاصفة . وحملت حالى وعدت الى اسرتى فى بغداد . كنت أسكن فى بيت قديم متهالك . وينام معظم أفراد أسرتى على الأرض ، والحاضر بشع والمستقبل أشد بشاعة ، ولذلك قررت الرحيل من بغداد ، وازدادت حالتى سوءا عندما ترك الصديق نصيف عواد العمل فى جريدة الثورة ، وكان العمل معه متعة ، وصداقته شرفا عظيما . وحل محل نقيب الصحفيين العرب سعد قاسم حمدى ، ووجدتها فرصة للانتقام منه ردا على فصلى من وزارة الاعلام . وامسكت بورقة صغيرة ودونت عليها كلمات قليلة . . الاستاذ رئيس تحرير الثورة الغراء . أرجو قبول استقالتى من العمل معك فى جريدة الثورة . . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام . .

وأحسست براحة عميقة ، إذ سنحت لى الظروف برد الصفعة وعندما اتممت الاستعداد للرحيل من بغداد تلقيت مكالمة هاتفية من مكتب الرئيس صدام حسين . يستدعينى الى لقاء .

تذكرت وأنا فى طريقى الى مكتب صدام حسين تلك الأيام البعيدة التى رأيته فيها أول مرة ، عندما كان يجلس معنا صامتا فى مقهى صغير بحى الدقى فى القاهرة . ولم يحدث مرة واحدة أن تحدثت معه خلال تلك الأيام فى فجر شبابه . وكنا قد تجاوزنا هذا الفجر منذ مدة طويلة ووصلنا ربما الى قيلولة الشباب ! وكنت أدخل فى معارك كلامية أحيانا مع الأديب العراقى شفيق الكمالى ، ومع الشاعر العراقى عدنان الراوى . ولم يقع بصرى على صدام حسين بعد ذلك إلا فى مكتبه بالقصر الجمهورى ، وهو نائب رئيس .

وكان سبب لقائى به أننى واجهت مشكلة فى إلحاق ابنتى «هبة» بمدارس بغداد. وطلب منى موظف بالمنطقة التعليمية أن أحضر شهادة ميلادها الأصلية. فلما اعتذرت له بأن الشهادة الأصلية فى القاهرة، وأنا لا استطيع الذهاب الى القاهرة، أصر على رأيه، وقرر عدم قبول «هبة» حتى وصول الشهادة الأصلية الى بغداد.

وشكوت حالى الى بعض الأصدقاء العراقيين فاقترح أحدهم ان اتصل بصدام حسين فى التليفون. وقلت لهؤلاء الأصدقاء، وكيف اتصل به وليس لدى رقم تليفونه؟ كما أنه ليس صديقا للعبدلله لكى يرد على التليفون! وناولنى أحد هؤلاء الأصدقاء جريدة يومية وفيها نداء من صدام حسين الى المواطنين العراقيين والعرب أيضا بالاتصال به تليفونيا اذا اعترضتهم مشاكل من أى نوع.

وطلبت رقم صدام حسين وأنا لا أصدق أنه سيرد بالفعل. وجاوبنى صوت على الطرف الآخر للخط. نعم، وتصورت أنه سكرتير صدام حسين يتلقى المكالمات وينظم الاجتماعات كما هى الحال فى كل مكاتب الرؤساء فى انحاء الأرض. وقلت لصاحب الصوت. أنا فلان صحافى مصرى وأعيش فى بغداد ولدى مشكلة وأريد عرضها على نائب الرئيس. ورد الصوت أهلا محمود، حاضرين ماذا تريد. قلت مرة أخرى لصاحب الصوت، أنا فلان الفلانى وأعيش الآن فى بغداد ولدى مشكلة تخص احدى بناتى وأريد عرض الأمر على نائب الرئيس صدام حسين. وقال صاحب الصوت: أنا صدام حسين يا محمود، وهتفت: مش معقول. وقال ليه مش معقول؟ وقلت:

عفوا سيادة النائب، أخشى أن أكون قد أزعجتك خصوصا والوقت ليس مناسبا الآن. ورد في هدوء، بل كل الأوقات مناسبة لحل مشاكل المواطنين يا محمود. وحدد لي موعدا لمقابلته في اليوم التالي. وسألني وأنا أجلس أمامه على المقعد المواجه لمكتبه عن أحوالي في بغداد، وأجبته بأن كل شيء على مايرام. وسألني عن أخبار مصر. فقلت: لا أعرف عنها شيئا إلا ما أقرأه في الجرائد. ثم عرضت عليه المشكلة، فقال: إن الروتين هو اعدى اعداء الثورة. وقال: ان بعض مؤسساتنا تسير على لوائح وضعها النظام التركي، وخص بالذكر مصلحة الكمارك. وقال: إن لائحة الكمارك وضعها الأتراك منذ قرابة قرن من الرمان.

وأمسك صدام حسين بورقة وكتب عليها عدة سطور الى محمد محجوب وزير التربية، وقال أذهب الى محجوب وكل شيء سيكون على مايرام. وذهبت الى الوزير محجوب في اليوم التالي، وقرأ ورقة صدام حسين، وقال في هدوء، لقد فات الوقت الآن. وسنقبل «هبة» في العام الدراسي القادم، ولم أفاتح صدام حسين في هذا الأمر بعد ذلك ولكني استخدمت نفوذ صديق عربي آخر هو الدكتور محيي الدين صابر رئيس هيئة اليونسكو العربية، ووزير التربية السوداني السابق. وقد بحث عني في بغداد عندما كان في زيارة خاطفة لها، ولم يعثر على العبدلله إلا وهو في طريقه الى تونس، والتقيت به في المطار. وكان في وداعه الوزير محجوب، وشكوت للدكتور محيي الدين صابر فقال للوزير محجوب أمامي. اذا أردت أن تصنع لي معروفا فاصنعه للسعدني. ووعد محجوب خيرا. ولكنه لم يقبل «هبة» إلا في العام الدراسي التالي.

المهم أن هذه المقابلة كانت هى الأولى مع نائب الرئيس صدام حسين، وكان هذا هو اللقاء الثانى وبناء على استدعاء من مكتب نائب الرئيس. ولكن قبل هذا الاستدعاء كانت قد حدثت اشارة بالغة الأهمية. فقد حدث ان كتبت مقالا ردا على ادعاءات المستشار أنور حبيب الذى كان يشغل منصب المدعى الاشتراكى فى عهد الرئيس أنور السادات. وكان سيادة المستشار قد اتهمنى مع عشرات من الكتاب والصحافيين بالخيانة العظمى. وكتبت مقالى بعنوان «من الخائن العظيم محمود السعدنى الى المدعى الاشتراكى» وقلت للسيد المستشار:

انت «مدعى» أى نعم، ولكن اشتراكى لا! لأن الاشتراكية ماتت منذ زمن بعيد، وأنت أحد أسباب موتها. وأغلب الظن أنك «مدعى مشتراكى» وربما لأنك مشترك فى النادى الاهلى. ومشترك فى دفتر التليفونات. ومشترك فى جمعية بخمسة جنيهات وستقبض الأول!! وقلت أيضا: لقد اتهمتنا يا سيادة المستشار بأننا نقبض نظير خيانتنا بالدينار والدولار، ولكن يبدو انك لا تعرف فى سوق العملة لأن هذه العملات أصبحت كالشيخ عاشور الذى فقد الثقة والاعتبار فى برلمان سيادتكم، أما نحن خبراء سوق العملة، فنتعامل نظير خيانتنا بعملات جديدة لها سمعة ولها قيمة، وهى الين اليابانى والمارك الألمانى والشلن الروديسى والبيريتا تبع جزيرة ماكاو!

وختمت مقالى قائلا: وقد لا تصدق يا سيادة المستشار: اننى بالرغم من ذلك أعيش على الكفاف فى بغداد، ولا استطيع علاج ابنتى المشلولة هالة. ليس لأننى فقير استغفر الله، ولكن لأننى بخيل، أضع الملايين الآن تحت

البلاطة لأنفق منها فى يوم أسود قريب. وهو يوم أسود وصفه عمنا ابن عروس فى ديوانه فقال:

لابد من يوم معلوم.. ترتد فيه المظالم

أبيض على كل مظلوم.. أسود على كل ظالم

*****

كان خلاصة مقالى عن المدعى الاشتراكى، وقد نشر المقال على صفحة كاملة فى جريدة الجمهورية البغدادية، وفى الصباح. والجريدة لم يكن قد مضى على صدورها اكثر من ثلاث ساعات، رن جرس التليفون فى منزلى، وكان المتحدث هو الصحافى الكبير حميد سعيد رئيس تحرير الجمهورية، وحميد سعيد كان شاعرا قبل ان يصبح رئيسا للتحرير، ولأنه شاعر فنان فقد تفاهمنا بسرعة، وبالرغم من أنه كان حزبيا ملتزما، فإنه كان شيئا آخر يختلف! واكتشفت انه قارىء ممتاز للعبدلله منذ الستينيات وحتى الآن. وكان هو من بين القلائل الذين تعاملت معهم وامتدت صداقتى بهم حتى هذه اللحظة. والسبب هو أوجه الشبه الكثيرة التى بينه وبين العبدلله، فهو بالرغم من منصبه الرفيع، وبالرغم من اشتغاله فترة من حياته بالسلك السياسى، وبالرغم من اقامته فى اوربا فترة طويلة من الزمان، فإنه ظل متمسكا بعادته كمواطن من مواطنى «الحلة» ولم يقطع علاقته قط بهؤلاء الفقراء الذين تربوا معه فى حوارى الحلة الضيقة وأزقتها المظلمة!

وقال لى حميد سعيد من خلال أسلاك التليفون، ان السيد نائب الرئيس قرأ مقالك ويبعث اليك بتحياته. وهو يسأله عن أحوال هالة المريضة ويريد ان

يطمئن على انها بخير . وشكرت الزميل حميد سعيد، وأكدت عليه ضرورة ابلاغ شكرى وتحياتى الى السيد نائب الرئيس، وطمأنته الى ان حالة هالة جيدة وانها بخير والحمدلله!

ولم تمر سوى أيام قلائل حتى استدعانى نصيف عواد فى مكتبه، وقال ان نائب الرئيس قرر علاج هالة هذا العام على نفقة رئاسة الجمهورية، وحاولت ان اعتذر على اساس ان هالة شفيت تقريبا والحمدلله. وما تبقى من مراحل العلاج صار هينا واستطيع مواجهة نفقاته . .

ولكن نصيف عواد قال: انه أمر نائب الرئيس ولابد من تنفيذه! وبالفعل سافرت مع هالة الى لندن، ودخلت مستشفى الجامعة فى «توتنهام كورت رود» وقضت شهرا على سرير المستشفى. وأجرت عملية كانت لسوء الحظ بمثابة نكسة. فقد ذهبت الى لندن وهى تمشى على قدميها، وعادت الى بغداد تتوكأ على عكازين!

ولكن صدام حسين لم يكف عن السؤال عن أحوال هالة طوال اقامتها فى لندن. وكان صباح سلمان سكرتيره الصحفى هو الذى يتولى عملية السؤال والاطمئنان على هالة. والحق أقول إن اهتمام نائب الرئيس بمشكلة هالة، بالرغم من المشاكل الكثيرة التى تشغله. أثر كثيرا فى العبدلله. ومن أجل صدام حسين تحملت كل المتاعب التى سببها لى بعض صغار الموظفين الذين احترفوا السياسة عن طريق الخطأ. والذين كانوا عبئا على صدام حسين بدلا من أن يكونوا عونا له، جبار، وقتال، وباصى. والدهش وأبوسعد. وآخرون على الشاكلة نفسها ومن النوع نفسه، هؤلاء الذين تصوروا فى لحظة ان

اللاجىء السياسى هو أسير وقع فى أيديهم. وتصوروا أيضا- وهو الخطأ الأكبر ان مصير الأمة العربية قد دان لهم وأصبح رهن مشيئتهم!

وما أكبر صدام حسين، عندما أصبحت امامه وجها لوجه فى مكتبه بالقصر الجمهورى عندما سألنى: وليه يا محمود ماجيتنى وقلت لى؟ وقلت للرئيس صدام: تكفيك يا سيادة الرئيس همومك، وكل ما هنالك أننى أردت أن أبعد عنك همومى، وقال الرئيس صدام: إن هموم الناس هى مسئوليتى يا محمود، وهمومك جزء من هموم الناس، وأنا مسئول عن همومك وهموم الآخرين.

وأمعنت النظر فى وجه صدام حسين! انه نموذج من الزعماء العرب الذين ظهروا فى هذا القرن العشرين، وهو رجل جاء الى الحياة ليحكم. ولو لم يكن رئيس دولة لكان زعيما للعشيرة التى ينتمى اليها. واذا كان للقيادة صفات فكل الصفات متوافرة فيه.

وهو ليس مدينا لحزب البعث بوجوده، ولكن حزب البعث مدين بوجوده لصدام حسين، وأنا لا أبالغ ولكنها حقائق عاصرناها فى الماضى القريب. فعندما لمع اسم صدام حسين فى حزب البعث لم يكن الحزب أكثر من فلول. وكان منقسما على نفسه، وكان القسم الأكبر يقوده على صالح السعدى. ويسيطر على خزانة الحزب وعلى مطبعته! ولكن صدام حسين استطاع تصفية القسم المنشق.. واستطاع السيطرة على مطبعة الحزب، أما خزانة الحزب فوجدها خالية كقلب المؤمن المطمئن!

ولم تكد تمر سنوات قليلة حتى استطاع صدام حسين ان يعيد الروح الى جثة الحزب، واستطاع ان يدفع بالحزب الى مقدمة الأحزاب العراقية، ولم يلبث أن

وصل بالحزب الى الحكم. ومع هذا لم يتركوه يهدأ لحظة . . تآمر ضده بعض الرفاق فى عام ١٩٧٤ . ثم تآمر عليه بعض الرفاق عشية اختياره رئيسا للجمهورية. ولعل هذا هو الذى دفعه فى نهاية الأمر ليعلن فى تصريح شهير أنه رئيس للعراق وليس رئيسا لحزب البعث. وان البعثى الجيد هو كل عراقى كفء. وكل بعثي غير كفء هو عراقي غير جيد. لقد كانت صرخة بطل ضايقته سيوف «الرفاق» اكثر مما ضايقته سيوف العدو!

السياسة.. والكهرباء!!

كان

لقائي بالرئيس

صدام حسين الذى

استمر ساعة من الزمن.

لقاء بين زعيم عربى يؤمن

بالعروبة وبقدر ظروف العرب.

وبين صحفى عربى هارب من حكومته

ولاجىء الى العراق. ولذلك كان حريصا أشد

الحرص على معرفة السبب الذى دفعنى الى التفكير

فى الرحيل من بغداد. وعندما سقت اليه اسبابا غير

حقيقية، رفض تصديقها وأصر على السبب، فلما صارحته بأن

بعض (الموظفين) قد أحالوا حياتى فى العراق الى جحيم، أجابنى فى

هدوء هذا الصنف من البشر موجود هنا فى العراق، وفى كل مكان على الأرض العربية، وهذا يثبت ويؤكد على أننا أمة واحدة، لأن الظروف متشابهة، والبشر فى ظل الظروف المتشابهة يصنعون الشىء نفسه ويسلكون السلوك نفسه، ثم سألنى الرئيس صدام: أليس لهذا النوع من البشر وجود فى مصر يا محمود؟ فلما أجبته بأنهم موجودون وأكثر من الهم على القلب. قال: ولماذا تريد العراق أفضل من مصر؟ أنهما بلد واحد، والناس هنا والناس هناك شعب واحد، وما كنت تجده فى القاهرة، ستجده حتما فى بغداد.

وسدد نحوى نظرة عميقة وقال: من هنا والى ان تغادر بغداد الى بلادك، عليك أن تقاتل هؤلاء الناس، تصرف كمواطن هنا، وحارب هذه النماذج، وقاتل ضدها بضراوة، اننى لن استطيع أن أحمى كل مواطن من خطر هؤلاء الصغار، وأنا أدعو المواطنين دائما الى مواجهة الشر والوقوف فى وجه الأشرار، ان الشعوب العظيمة، هى التى لا تقبل الضيم ولا توافق على الظلم، ولا تقبل الظلم من جانب مثل هؤلاء الموظفين، وروى لى صدام حسين عن أيامه التى عاشها فى القاهرة، وكيف كانت علاقته حسنة بالجميع، حتى القهوجى والبواب، وكيف أنه وهو نائب رئيس العراق، واثناء عودته من مؤتمر القمة فى المغرب وهو فى طريقه الى بغداد، توقف فى القاهرة وذهب الى المقهى الذى كان يجلس عليه، وذهب الى البيت الذى كان يسكن فيه، وسأل عن البواب وأكتشف انه مات. وقال الرئيس صدام. وبينما كانت علاقاتى بالجميع طيبة، كانت علاقتى سيئة، فى الوقت نفسه، بالموظفين المصريين الذين كانوا يشتغلون بالسياسة فى مواعيد العمل. وهؤلاء يستخدمون الروتين فى العمل السياسى، ولا ينظرون الى أبعد من موقع أقدامهم، ويتصورون بعد أن جاءت بهم الصدفة الى هذه المواقع، انهم عملاء ملهمون اختارتهم العناية الآلهية لقيادة البشر. وقال: ان هذا الصنف كان موجودا فى مصر، وهو موجود لدينا الآن بكثرة، ولكن فترة الحرب الحالية ستكشفهم لنا، واعتقد اننا بعد الحرب سنطهر أنفسنا من هذا الصنف جميعه.

وضغط صدام حسين على زر صغير فوق المكتب، ودخل رجل من رجال الحاشية. وقال له صدام فى كلمات قليلة وبنبرة حاسمة: ابحث للرفيق

السعدنى عن بيت، وأثث البيت اش لون تأثث لصدام حسين؟ وقلت للرئيس: لا يا ريس، أنا مش عاوز بالشكل ده. فالتفت نحوى وقال: محمود، أنا والله عايش فى بيت كلش متواضع. وقلت له ضاحكا، من أجل هذا اعترض. لأننى الآن أعيش فى بيت كلش متواضع، وتريدنى الآن أن انتقل الى بيت كلش متواضع. وضحك الرئبس صدام، واشار للرجل بالانصراف، فانصرف، وقال لى وأنا أغادر مكتبه، اذا حدث أى شىء خطأ، فأرجو أن تخبرنى به فى الحال، وعندما هممت بمغادرة القصر الجمهورى، رأيت رجل الحاشية الذى طلب اليه صدام البحث عن بيت، يستوقفنى ويرجونى أن أعطيه مهلة للبحث عن البيت اللائق، وحدد المهلة المطلوبة بعشرة أيام لاتزيد. وقلت للرجل ونحن وقوف على باب القصر الجمهورى، عندك مهلة لمدة شهر اذا أردت. فقال أشكرك قبل أن ينصرف.

فى الأيام التالية التى أعقبت لقائى بالرئيس صدام، عاد الموظفون الذين يشتغلون بالسياسة ويعششون فيما يسمى بمكتب مصر، يترددون على فى منزلى، وكلهم يسأل عن سبب المقابلة، وما دار فيها من حديث. وبالطبع لم أذكر لهم حرفا مما دار فى الجلسة، واقتصرت على القول بأنها كانت للتحية لا أكثر ولا أقل. ولما يئسوا من الحصول على كلمة واحدة من العبدالله، انقطعوا عن الزيارة، وإن كانوا لم ينقطعوا عن العمل ضد العبد لله.

لقد كان لقائى بالرئيس صدام فى أواخر شهر آب (أغسطس»، وموظف الحاشية رجانى أن أمهله عشرة أيام لاغير، لكن أمر الرئيس صدام حسين لم ينفذ إلا فى شهر كانون ثان (يناير) مع ان الرئيس حسين حاكم مقتدر وأوامره تنفذ فى الحال.

ولقد هممت بمغادرة العراق ذات يوم من أيام شهر نوفمبر ، عندما اكتشفت ان هؤلاء الموظفين الذين يشتغلون بالسياسة هم أقوى في كل مكان ، ولكن صديقا في القيادة العراقية نصحني ألا أفعل ذلك ، وقال ، ان الرئيس صدام حسين سيسأل عن أحوالك بعد فترة ، وعندئذ سيقول له هؤلاء الموظفون ، أنهم أعدوا لك قصرا كقصر فرعون ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وانك رفضت الاقامة في العراق ، طالبا قصر كقصر هارون الرشيد

المهم ان البيت الذى استأجره كان لائقا بالفعل وقد أثثوه تأثيثا فخما ، ووفروا للعبدلله حجرة مكتب ، ولم أحصل على هذا الشرف مدة اقامتي السابقة في بغداد . ولكن المتاعب تضاعفت واستمرت بعد ذلك ، وضيق الموظفون الذين يعملون بالسياسة الحصار حولي ، واشتد ... معهم بعض المستوزرين الذين هاجمت اسلوب عملهم وانتقدته .

وضاقت بي الأحوال في بغداد الى درجة أني لازمت ... لا أغادره لاى سبب من الأسباب ، ولكن كان يسرى عني صلتي ببعض اللاجئين السياسيين السوريين الذين يقيمون في بغداد ، وللحقيقة فإن الفريق أمين حافظ رئيس سوريا الأسبق واللاجيء في العراق منذ ستة عشر عاما ، كان خير رفيق وخير صديق . كنت الجأ اليه دائما ، وكان هو عند حسن الظن به على الدوام . كان بيته مفتوحا للجميع ، ورجال حرسه في خدمة الكل . الى جانب أمين الحافظ ، كان هناك الدكتور عارف الكيالي ، وهو ضابط سورى سابق دخل السجن بعد سقوط أمين حافظ ، وفر من دمشق الى بغداد ، واشتغل هناك بالعمل السياسي وبالدراسة في الوقت نفس ، وعمل فترة في السلك الدبلوماسي ، ثم حصل

على الدكتوراة وصار أستادا بالجامعة. وكان عربيا بحق ومثقفا يحمل هـ
الأمة على رأسه. وكان هناك الدكتور غسان حداد الذى كان عضوا فى مج
قيادة الثورة فى دمشق ذات يوم، والذى حصل على الدكتوراة من ألما
واشتغل بالتخطيط. وكان هناك أيضا العراقى الطيب العجوز عم أبوسع
وهو فلاح من الفالوجه أقام فى بغداد، ولكنه ظل يعيش بالجو نفسه الذى
يعيش فيه فى قريته على شاطىء نهر دجلة، وكان هناك العراقى الشهم الط
أبودينا وأسرته، كان هناك الشاعر الفنان حميد سعيد، والكاتب السيا
نصيف عواد، والصديق أمير الحلو. وهؤلاء جميعا كانوا سببا فى تلوين ا
بلون أخضر جميل، وربما بسبب هؤلاء تحملت كل الحركات الصغيرة ال
ارتكبها هؤلاء الموظفون الذين يشتغلون بالسياسة.

وعندما أحكم هؤلاء الموظفون الحصار حول العبدلله، وتحالف مع
رئيس الحزب الثورى المصرى إياه، الذى كان يقود حزبا من ثلاثة أشخاص
ويصدر نشرة ثورية، وينشر فى الصحف العربية تصريحات نارية عن الثو
والتحرير والوحدة اللى ما يغلبها غلاب، بينما هو فى واقع الأمر كان يشت
بالتجارة، ويعمل لحساب كل الجهات إلا مصر.

وانتهزت فرصة انعقاد مؤتمر عالمى فى بغداد، وحضور وفد مصرى
القاهرة برئاسة الدكتور يحيى الجمل نائب رئيس حزب التجمع المصر
وقتذاك.

والتقيت بالدكتور يحيى الجمل فى منزله، وشرحت له ظروفى وأوضا
فى بغداد، وكشفت له الستار عن ممارسات الزعيم الثورى، الذى كان عندئذ

بدير مكتبا فى احدى العواصم الأوربية ، ويمتلك شركة لأعمال الكهرباء ، مع «أرزفى» آخر عينه وكيلا للحزب الثورى المغوار . وقلت للدكتور يحيى الجمل : ان سبب كل الكوارث والمتاعب التى تحيط بالعبدلله ، هو كشفى لسلوك هذا الزعيم الثورى ، وكشفى لقصة امتلاكه لشركة أعمال الكهرباء . ويبدو أننى لم أتنبه خلال صراعى مع الزعيم الثورى الى أننى خرجت على الحدود ، فضربت فى جهات أخرى كان يهمها ان يظل هذا الموضوع طى الكتمان . وطلبت من الدكتور يحيى الجمل ان يتدخل ويوضح الأمر لأحد المسئولين العراقيين الكبار ، وطلبت من الدكتور يحيى الجمل أيضا أن يستأذنه لى بالسفر من بغداد . وبالفعل أدى الدكتور يحيى الجمل ما كلفته به ، وجاءنى بجواب المسئول العراقى الكبير ، ومضمونه أننى مواطن أعيش بكامل حريتى فى بغداد ، وعلى الرحب والسعة ، فإذا أردت الانتقال من بغداد الى مكان آخر فليس فى وسع أحد أن يمنعنى من اختيار المكان الذى أريد أن أعيش فيه . وكان ردا مسئولا .

ولكن عبارة فى الحديث الذى نقله الى الدكتور يحيى الجمل استوقفتنى طويلا ، فقد قال المسئول العراقى للدكتور يحيى الجمل : ان محمود السعدنى فى عراك مع سياسى مصرى آخر يعيش فى المنفى ، والاثنان وطنيان يسيران على الخط القومى ، ويهمنا ألا يحدث صراع من هذا النوع بين الاثنين ، استوقفتنى هذه العبارة ، فقد كنت أتصور حتى تلك اللحظة أن الصراع بينى وبين الزعيم الثورى إياه ، لا يهم أحدا إلا هو وأنا ، وعددا آخر من المصريين لا يزيد على أصابع اليد الواحدة . هم كل قادة الحزب وجماهيره فى الوقت

نفسه ، ولكن كشف لى حديث الدكتور يحيى الجمل مع المسئول العراقى الكبير أن هذا الأمر يهم آخرين .

وفى تلك اللحظةبالذات قررت أن أترك العراق ، وذهبت فى اليوم التالى الى ما يسمى بمكتب مصر ، وطلبت منهم تدبير حصولى على تأشيرة خروج من العراق لى ولأسرتى ، ولكنهم رفضوا ذلك بشدة متعللين بأن لديهم شواغل أهم . ولجأت الى الفريق أمين حافظ ، ودون أن أخبره بالظروف المحيطة بالعبدلله ، رجوته أن يسعى للحصول على تأشيرة خروج لى ولأسرتى ، فحصل عليها بواسطة حرسه فى اليوم نفسه ، وأدركت عندئذ أن رفض الموظف الذى يشتغل بالسياسة ، لم يكن سياسة عامة بالنسبة للعبدلله ، ولكنه كان تدبيرا من جانب هؤلاء الموظفين الصغار الذين يشتغلون بالسياسة . وفى الفجر كنت مع أسرتى فى السيارة فى طريقى الى خارج العراق

وصلت الكويت ليلا ، واستأجرت شقة فى أحد الفنادق ، وقضيت رمضان كله مع أسرتى فى الكويت ، وتفاهمت مع أحمد الجارالله على الاقامة فى الكويت ، واصدار ملحق اسبوعى جديد لجريدة السياسة ، وبدأت الاستعداد فعلا ، فوضعنا الماكيت ، وبدأنا فى اعداد المواد . واتفقنا - الجارالله وأنا - على أن يصدر الملحق فى أول أكتوبر ، وسافرنا الى لندن بعد العيد مباشرة . وكان لابد ان تعود أسرتى الى بغداد فى أوائل شهر سبتمبر لتؤدى ابنتى أمل امتحان الدور الثانى فى كلية الاقتصاد . وبقيت فى لندن مع أكرم ابنى ، وقررت العودة مع أكرم الى الكويت قبل اصدار الملحق بأسبوعين ، ولكن حدث قبل ثلاثة أيام من موعد سفرى الى الكويت أن أيقظنى من نومى رنين جرس التليفون ، وكان

المتحدث على الجهة الأخرى من الخط هو الأستاذ سليمان الجارالله نائب رئيس التحرير، طلب مني البقاء في لندن وعدم العودة الى الكويت، وعبثا حاولت أن أعرف منه السبب وراء هذا الطلب، ولكنه اكتفى بأن ذكر لي رقم أحمد الجارالله في جنيف، وقال اتصل بالاستاذ أحمد وتفاهم معه على كل شيء.

وأحسست بعد مكالمة سليمان الجارالله بأن جدران الشقة تطبق علي وتكاد تحطم ضلوعي وتزهق روحي.. لم استطع العودة الى النوم مرة أخرى.. وانتظرت وقتا طويلا حتى تمكنت من الاتصال بالأستاذ الجارالله في جنيف، وقال أحمد في هدوء كعادته: سيكون كل شيء على مايرام، واذا كانت هناك ظروف تمنعك من الذهاب الى الكويت الآن. فأنا أنصحك بالبقاء في لندن في الوقت الحاضر. ولا تتوقف عن ارسال مقالاتك، لأننا سنواصل نشرها كل يوم، ورجوت أحمد الجارالله في نهاية المكالمة أن تقوم الجريدة بتحويل مرتبي الى لندن. فقال: صار، ثم سألني: هل أنت في حاجة الى شيء الآن؟ فشكرته ووعدته بأن أتصل به على الفور اذا احتجت الى شيء.

عشت في لندن وقتا مملا بلا طعام. كنت اكتب مقالي اليومي وأمليه على جريدة السياسة في التليفون، ولزمت الشقة ولا أغادرها إلا نادرا. وكان لابد ان يعود أكرم الى بغداد ليلتحق بالجامعة، ولكني منعته من السفر وطلبت منه الانتظار. أصبحت مشكلتي مشكلتين، مشكلة وجودي بعيدا عن الأسرة وأنا الذي لم أتركهم لحظة خلال السنوات التي اضطررت فيها للعيش خارج مصر، ثم انقطاع أكرم عن مواصلة الدراسة.

وعشت أياما أفكر في المأزق الذي وجدت نفسي فيه، وأبحث عن الأسباب التي أدت الى منعي من العودة الى الكويت.

كنا فى شهر أغسطس عام ١٩٨١ ، وكان أنور السادات قد دعا جميع الصحفيين المعارضين فى الخارج الى العودة الى مصر ، وحدد يوم ١٥ مايو موعدا نهائيا لعودة المشاغبين من (أبنائى) الصحفيين ، و(عفا الله عما سلف) وقال بشرط أن يعود كل منهم الى نقابة الصحفيين و (من دخل دار أبو سفيان فهو آمن) ولما لم يعد أحد فى الموعد الذى حدده الرئيس ، عاد فحدد موعداً آخر ، هو يوم ٢٦ يوليو ، ولم أفهم لماذا ٢٦ يوليو ، وليس ٢٣ يوليو ، المهم أنه حدد هذا الموعد كآخر موعد لعودة الصحفيين المارقين ، ولكنه مر الموعد الجديد ولم يعد أحد على الإطلاق . والسبب ان الصحفيين كانوا يعرفون أنور السادات جيدا ، فهو قد أشتغل صحفيا فترة من الوقت فى شبابه . وتولى رئاسة تحرير الجمهورية منذ صدورها والى عام ١٩٥٨ ، وفى تلك الاثناء نشأت علاقات وثيقة بينه وبين غالبية الصحفيين المصريين ، ولم يكن من المعقول بعد هذه العشرة الطويلة أن يصدقه أحد منهم ، خصوصا اذا كان الأمر يتعلق بعفو عن أخطاء يتصور هو شخصيا أنهم ارتكبوها فى حق كبير العائلة المصرية !!

ولكن العبد لله اشتد فى هجومه على كبير العائلة خصوصا فى هذه الفترة التى حددها كمهلة لاعلان التوبة وطلب الصفح . وبدأت خطابات كثيرة تهاجمنى تصل الى جريدة السياسة أغلب الظن ان مصدرها كان من السفارة المصرية فى الكويت لأنها خطابات كانت تسبنى على طول الخط ، وتدافع عن أنور السادات على طول الخط ، ولكن الخطابات كلها كانت تجمعها نغمة واحدة تعزفها بلا كلل ، وهى كيف تسمح الكويت لكاتب مطرود من بلده

بالاقامة فيها؟ وكيف تسمح له فى الوقت نفسه بمهاجمة رئيس ولة على صفحات جريدة السياسة اليومية؟

ويبدو أن بعضهم قد ارتاح الى هذا الحل . منعوا دخولى الى الكويت ، ولكن الجارالله سمح بنشر مقالاتى على صفحات الجريدة ، ولأن الصحافة حرة فى الكويت ، فلم يكن أحد مسئولا عن الاساءة للسادات الا أحمد الجارالله نفسه باعتباره صاحب ورئيس تحرير الجريدة التى تنشر مقالاتى فى الكويت ، وهى نقطة تحسب لأحمد الجار الله عند تسديد الفواتير ، فلم يكن أحمد الجارالله عدوا للسادات ، والعكس هو الصحيح ، فقد كان صديقه ومن أشد المدافعين عن سياسته ، وأيد السادات بشدة فى رحلته الى القدس ، وأيده فى كامب دافيد ، وكان لا يمر شهر دون أن يلقاه أو يجرى معه حديثا ، وبالرغم من ذلك لم يشطب حرفا مما كتبت ضد رحلة السادات الى القدس أو ضد كامب دافيد ، وهى صفة الصحفى الحقيقى عاشق المهنة . ، فصحيفته ليست حكرا على رأيه ، ولكنها ميدان لرأيه وللرأى المخالف .

كان هذا هو تفسيرى الذى اهتديت اليه لما حدث للعبدلله من جانب الكويت ، وان كان هذا التفسير لم يمنعنى من كتابة خطاب الى الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت ، وهو أحد السياسيين المستنيرين على مستوى الوطن العربى وأبلغته بما حدث ومكثت فى لندن أنتظر . وبعد أيام تلقيت دعوة من جهة عربية فى لندن . لألقاء محاضرة عن حال الأمة ، ولكنى اعتذرت . وكان سبب هذا الاعتذار أننى فى شهر مايو من العام نفسه قمت برحلة الى امريكا بدعوة من اتحاد الطلبة العرب فى الولايات المتحدة لالقاء محاضرات فى

عام لحكم انور السادات. وان جيش مصر العظيم الذى انجب ابطالا فى وزن احمد عرابى فى عام ١٨٨١ لا يمكن ان يعقم فلا يلد ابطالا مثل هؤلاء الذين انجبهم منذ قرن كامل. وقلت ايضا وبالحرف الواحد ان رجال الجيش المصرى الوطنيين سيضعون حدا لنظام انور السادات هذا العام وهذا العام وبالتحديد وان غدا لناظره قريب.

وفى الواقع لقد قلت هذه الكلمات ليس نتيجة تحليل ولا نتيجة معلومات ولكنه كان مجرد غيظ ملأ قلبى وربما ايضا كان نتيجة يأس شديد من اى تغيير ولكن الاستاذ الدكتور الذى كان جالسا يستمع بانتباه الى المحاضرة انتفض واقفا وسألنى هل سيادتك على اتصال بهؤلاء الضباط فى جيش مصر؟ والذين سيضعون حداً لنظام السادات هذا العام كما ذكرت؟

كان السؤال ساذجا وكشف عن ان صاحبه رجل امن مدرب بما فيه الكفاية، فقررت ان اسخر منه الى النهاية، فأجبت نعم بالطبع انا على اتصال بهؤلاء الابطال وهذا الذى قررته الآن امامك سمعته منهم شخصيا وليس عن طريق وسيط. وتهللت اسارير الدكتور المخبر الغبى وسألنى سؤالا اكثر سذاجة من السؤال الاول: هل نستطيع ان نعرف اسماء بعضهم ليس من اجل اى شئ ولكن ليطمئن قلبى؟ وأجبته نعم وبكل سرور، فهناك العميد على برعى، العقيد سعد برعى والمقدم امين برعى!! وعند هذا الاسم الثالث ضجت القاعة كلها بالضحك، وارتبك الدكتور السائل وقال فى اضطراب شديد: اعتقد ان سؤالى لم يكن موفقا وعلى العموم كنت اريد ان اطمئن فقط على مستقبل بلدنا الحبيب.

ولكن الشىء الغريب حقا اننى اكتشفت بعد المحاضرة ان القاعة التى كانت تضم حوالى مائتى طالب لم يكن بينهم الا اثنان من الناصريين واثنان من الشيوعيين وثلاثة من انصار السادات والباقون جميعا كانوا اعضاء فى الجماعات الدينية وكانوا اشد ضراوة فى عدائهم للسادات ونظامه من الاخرين .

*****

لا اعرف اياما أسوأ ولا اردأ من تلك الايام التى عشتها فى لندن خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٨١ ، ولكن لأن النور ينبثق من الظلام ، والحى يخرج من الميت . . فقد حدث للعبد لله حادث غريب لا انساه . كنت اركب الى جوار صديق فى سيارة تخترق شوارع إكسفورد ظهيرة احد الايام عندما لمحت الصديق وجيه اباظة يجتاز الشارع من رصيف الى آخر حاملا فى يده شنطة من الحجم الكبير ، وأنا اعرف وجيه اباظة منذ اكثر من ثلاثين عاما واحترمه واحبه ايضا . . وامتدت علاقتى به منذ كان ضابطا فى الجيش والى ان اصبح مسئولا عن الشئون العامة بعد الثورة ثم رئيسا لشركة النيل للاعلان ثم محافظا للغربية ثم محافظا للقاهرة فى نهاية الامر ثم زميلا فى سجن القلعة ثم انقطعت صلتى به .

سافرت انا من مصر وخرج هو من السجن واشتغل بالتجارة وفتح الله عليه بعد ان خرج من الوظيفة شحاتا ومديونا ومهوما وباع وهو محافظ ما ورثه عن ابيه .

وطلبت من صديقى ان يوقف السيارة فورا . واوقف صديقى السيارة فجأة ، فتحت الباب وانطلقت كالمجنون اريد ان اعانق وجيه اباظة بعد هذا

الفراق الطويل، ولم اتنبه الى سيارة كانت مسرعة قادمة من الاتجاه المضاد استطاع قائدها الماهر ان يوقف عجلات السيارة على بعد سنتيمترات من العبدلله واحدث توقف السيارة المفاجيء ضجة لفتت انظار المارة ومن بينهم وجيه اباظة .

ونزل السائق ليعاتبنى وربما ليوبخنى ولكنى لم انتظر انطلقت نحو وجيه وعانقته بشدة واخذنى وجيه من يدى الى ركن فى الشارع وقال : اسمع يا محمود انا الآن ميسور والحمد لله وهذه الحقيبة التى فى يدى بها نقود كثيرة واريد ان اقاسمك ، فأنا اعرف ظروفك واعرف ما تعانيه واقسمت لوجيه اباظة اننى فى احسن حال .

ولما كانت حركة المرور معطلة وابواق السيارة اخذت تتصاعد فى الجو فقد ودعته واتفقنا على لقاء، والتقيت به اكثر من مرة بعد ذلك واحسست براحة من خلال حديثه وتأكدت ان مصر بخير وان كل من يريد لمصر شرا كبه الله على وجه .

وسافر وجيه اباظة وعدت الى وحدتى الكئيبة فى غرفتى بلندن وحيدا وشريدا وليس معى من أسرتى الا اكرم ابنى لا اعرف الى أين تكون الخطوة القادمة؟ والى متى؟

وتقاذفتنى افكار شتى . . فكرت مرة فى ركوب الطائرة والسفر الى مصر وتسليم نفسى للساداتٰ ، فأى شيء يفعله بى اهون بكثر مما القاه خارج مصر بفضل مساعى وضغوط رئيس الحزب الثورى والذى تحول من رئيس حزب الى صاحب شركة كهرباء تدر عليه مليون دولار ربحا كل عام مع شريكه وهو

ميكانيكى يتاجر فى السياسة ويشتغل مقاول انفار لبعض الاحزاب العربية الثورية خارج مصر.

وذات يوم من ايام سبتمبر وكان يوما باردا وعاصفا ومطيرا غادرت شقتى مع اكرم ابنى لمقابلة صديق لى بعيش فى لندن منذ ثلاثين عاما، وعند عودتى الى غرفتى وكان المساء قد حل وكنت شديد الضيق وشعرت بألم شديد فى صدرى وتوهمت اننى على وشك الاصابة بذبحة صدرية ولم تكن كذلك ولكنها فى الغلب مجرد ارهاق شديد اصابنى خلال تلك الايام السوداء.

وعندما فتحت باب الشقة وجدت ورقة صغيرة ملقاة من فتحة الخطابات، ولم يكن بالورقة الا سطران ومازلت احتفظ بها حتى هذه اللحظة (محمود حضرنا ولم نجدك اتصل بنا على هذا الرقم) والامضاء عمك فلان.. ولم اصدق نفسى فى بادئ الامر ظننته صديقا ظريفا يستغل ظرفه فى غير موقعه.. ولكنى فى النهاية قررت الاتصال بصديقى على الرقم المدون فى الورقة.

وكم كانت دهشتى عندما كان الصوت الذى جاذبنى على الناحية الأخرى هو صديقى نفسه. وشعرت براحة ليس لها مثيل فقد كان مجرد الاتصال به بداية لحل جميع المشاكل. ولم تستغرق المكالمة بيننا طويلا دعانى الى منزله الريفى على بعد مائة ميل من لندن. وذهبت اليه فى اليوم التالى وسألنى عن احوالى وحكيت له كل شئ بالتفصيل واستمع طويلا وقال: لا بأس مكانك عندى فى الخليج واتفق معى على السفر اليه بعد ان يعود هو نفسه فى بداية اكتوبر وقال كل شئ سيكون على ما يرام.

وبالفعل تلقيت فى اليوم التالى تذكرتين للسفر الى بلد الصديق، واخيرا عثرت على ملجأ بعيد عن المشاكل وقررت بينى وبين نفسى ان اختبىء هناك حتى اعود الى مصر او ينتهى الاجل واذهب للقاء الله.

وشعرت براحة تغمرنى لم اشعر بها قط خلال سنوات المنفى.. بدأت الاستعداد للسفر وحددت يوم ١٦ اكتوبر لمغادرة لندن الى المكان الذى سأستقر فيه. ومضت الايام سريعة وجاء يوم ٦ اكتوبر ودق جرس التليفون الساعة الثانية عشرة ظهرا بتوقيت لندن وكنت فى تلك اللحظة نائما على الكنبة بينما كان ابنى اكرم نائما على السرير، وبقيت فى مكانى منتظرا الى ان ينهض ابنى اكرم ويرد على التليفون ولكنه لم يفعل فنهضت متكاسلا ورفعت السماعة وكان المتحدث هو الزميل جمال اسماعيل. واندهشت لان علاقة جمال بالعبدلله وثيقة للغاية، ويعلم اننى اهب الى فراشى متاخرا واننى نايم والدنيا مقلوبة. قلت خير حصل ايه؟ قال لقد اطلقوا النار على الرئيس السادات اثناء العرض العسكرى. وقلت متضايقا من المزاح السخيف وسمعت الخبر دافين إن شاء فى اذاعة مصر العروبة او فى اذاعة ليبيا؟! ورد جمال فى هدوء انا سمعته فى الاذاعة البريطانية فقلت لجمال وانا اضع السماعة طيب انا هافتح وانت كلمنى بعدين، وسمعت اول اشارة عن الحادث فى نشرة اخبار الساعة الثانية عشرة والنصف.

وقال الخبر بتحفظ انه حدث اطلاق نار اثناء العرض العسكرى وان انور السادات اصيب بحالة بسيطة فى يده. الشىء نفسه رددته نشرة اخبار التليفزيون الساعة الواحدة. وبدأت الاتصال تليفونيا ببعض من اعرفهم فى لندن وفى الكويت ولكن كل الاخبار التى تلقيتها كانت غامضة.

وفى الواحدة والنصف دق جرس التليفون وكان المتحدث هو صديقى الذى دعانى الى مدينته فى الخليج. وقال صديقى لقد مات صاحبك وانتهت جميع متاعبك الآن وسألته هل هو تخمين ام معلومات؟ فأجاب.. معلومات.

وقال صديقى قبل نهاية الحديث: انا مازلت عند وعدى لك.. احضر الينا حتى تنجلى الامور تماما ثم تقرر بعدها ماذا يجب ان تفعله. وشكرته ووعدته بالذهاب اليه فى اقرب وقت.

بدأ الاصدقاء يتوافدون على شقتى فى لندن كان من بينهم الاستاذ حسن فؤاد وعدد من المصريين واخرون من اقطار عربية اخرى. وعندما حانت الساعة الثانية والنصف بتوقيت لندن حوالى الرابعة والنصف بتوقيت القاهرة قلت للحاضرين ان الرئيس السادات لقى مصرعه.. ولكن معظم الحاضرين تمسكوا بأنه اصيب ولم يمت.. ولم اذكر لهم شيئا مما دار بينى وبين صديقى وقلت لهم: ولكن ما دامت كل هذه الساعات قد مضت دون ان نسمع صوته فهو بالتأكيد انتقل الى العالم الآخر واصبح فى ذمة الله. ولم يعلنوا خبر موته فى الاذاعة الا فى الخامسة مساء ونقلا عن متحدث امريكى فى البيت الابيض.

فى تلك اللحظة شعرت بانى على وشك الاغماء كمن خرج فجأة من معركة طويلة مرهقا ومثخنا بالجراح ولم ادر هل اضحك ام ابكى؟!

مشاعر شتى تقاذفتنى وأنا فى هذه اللحظة التاريخية التى لم يمر مثلها على مصر فى تاريخها الطويل. فلقد قتل المصريون وزراءهم ولكنهم لم يقتلوا حكامهم قط.

هذه اول مرة يقتل فيها شعب مصر حاكما ، وهو حادث يحمل دلالة خطيرة وهى ان الحكم كأى شىء فى الحياة له حدود وعلى الحكام مهما علا حكمه الا يتجاوز هذه الحدود . .

وايا كان الذى جرى فقد انطوت صفحة السادات ونظامه ، وعلى المعارضين فى الخارج ان يحددوا مواقفهم من الحكم الجديد .

وامسكت بورقة وقلم وكتبت اول مقال بعد غياب انور السادات عن الساحة وقلت بالحرف الواحد : لا شماته فى الموت ولا خلاف مع ميت ، وبهت الذين قرأوا المقال فقد تصوروا اننى سأستعرض عضلاتى بعد موته ، ولكن الحقيقة اننى ادرت ظهرى للماضى كله عندما تأكدت من موته . لقد وضع الموت حدا لكل شىء وعلينا الان ان نبدأ خطوتنا نحو المستقبل .

ولكن الذى اغاظنى بالفعل هو منشور ثورى اصدره الرجل الكهربائى اياه فى اليوم التالى يزعم فيه ان حزبه الكهربائى الثورى هو الذى وضع حدا لحياة السادات ، وفى الوقت نفسه استولى زعيم المعارضة الاخر وهو ضابط جيش ايضا وانجز عملا طيبا فى حرب اكتوبر ، لكنه رغم كفاءته العسكرية كان ضحلا فى السياسة وليس له علاقة بأحد السياسيين على الاطلاق ، كما انه كان مقطوع الصلة بطبقة المثقفين تماما .

اقول استولى على اذاعة ليبيا وراح يصدر اوامره الى قواته فى مصر بالتحرك وراح يحدد لهم الاماكن التى يحتلونها والمواقع التى يتمركزون فيها ولم يتحرك احد فى مصر بالطبع الا فى خياله البائس المريض .

وفى اليوم التالى كتبت مقالا من نار (الرصاصات التى قتلت أنور السادات على المنصة قتلت فى الوقت نفسه المعارضة المصرية فى الخارج، وهى معارضة هزيلة وتافهة يقودها ضباط ورجال مخابرات سابقون وبعضهم مشغول بالتجارة الى جانب السياسة وبعضهم فتح الله عليهم فصاروا مثل مهراجات الهند فى سالف العصر والزمان) واعلنت تأييدى لحسنى مبارك منذ اول لحظة.

زيارة الرجل العجوز..!

بعد
سادت المنصة
بأسبوعين، كنت في
الطائرة عائدا مرة أخرى
الى الخليج كما في اوائل
نوفمبر، وكان الجو ربيعا في الخليج،
ولا أبالغ اذا قلت انه لا مثيل لجو الخليج في
الشتاء على ظهر الارض وعلى شاطيء الخليج
قضيت اجمل ايام حياتي أنام عميقا، واصطاد
السمك احيانا واضحك من الاعماق في كل وقت، وطرأت
ظاهرة غريبة على العبدلله، لم يكن لي بها سابق عهد، أخذ
جسدي النحيل في السمنة، واضطررت لأن استبدل بكل ملابسي
ملابس جديدة حتى تليق بالكرش الذي نصحم واللحم الذي تدلى،
والصلعة التي اتسعت اكثر من ذي قبل وانتقلت من الفندق الفاخر الذي كنت
انزل فيه الى شقه فاخرة، وبدأت استقبل اصدقائي من الفنانين والادباء
والجميع من مصر

وجاءني محمود ياسين ويوسف شعبان وعلي العندور وعبدالحفيظ
التطاوي وابراهيم سعفان وابراهيم عبدالرازق وصلاح السعدني بالطبع

واتصلت صلتى القديمة بكباتن الكرة فى الخمسينيات وفى الستينيات. أحمد رفعت ويكن وخيرى، وبدأت اعصابى تهدأ وبدأت رغبتى فى العراك تبرد، واستبد بى الشوق لمصر.

المشكلة الوحيدة التى كنت اعانى منها فى ذلك الوقت، هى اننى كنت اعتمد فى معيشتى على مرتب جريدة السياسية. وكان على ان انفق من هذا المرتب على اسرتى التى تقيم فى بغداد، وعلى شقتى التى اقيم فيها فى الخليج، وكان صديقى الذى دعانى الى الخليج قد قام مشكورا بتغطية نفقات اقامتى بالفندق، وتولى دفع ايجار الشقة وتأثيثها، ولم يكن مطلوبا منه اكثر مما قام به، واتصلت بأحمد الجارالله من الشارقة وشرحت له الأمر فقال لا عليك.

وبدأت الأمور بعدها فى التحسن، ثم بلغت حد الكمال بعد ذلك، عندما استدعانى أحد المنتجين العرب، وكلفنى بكتابة قصة وسيناريو وحوار مسلسل تليفزيونى، ودفع لى مقدما عشرة الاف دولار، وضعتها فى البنك؛ درءا للمفاجآت فى الايام القادمة.

وعندما اشتد حنينى الى مصر، قررت رؤية صديقى ابراهيم نافع مادامت رؤية مصر نفسها لا تزال متعثرة. وابراهيم نافع حلقة من السلسة النفسية من أصدقائى والذين هم فى حقيقة الأمر كانوا مصر بالنسبة للعبدلله، سلسلة تضم عشرات من الاصدقاء. انتقل أغلبهم الى رحمة الله، وهاجر بعضهم الى الخارج وهاجر بعضهم فى الداخل، وكان ابراهيم نافع من بينهم، ان لم يكن على رأسهم. وهو رجل بسيط وفلاح من عامة الناس، ولكنه يكشف عن

معدنه الأصيل عندما تشتد حوله الأزمات، وتطبق عليك المحن. وكان هو الوحيد بين اصدقائى الذى واظب على زيارتى اسبوعيا فى سجن القناطر، ولم يعد لى صديق غيره الا شوقى الصاعقة، وقد جاءنى فى السجن مرة واحدة، وغير هذين الصديقين لم أر أحدا من أصدقائى فترة السجن، بل أن معظمهم تهرب من لقائى حتى بعد خروجى من وراء الأسوار. وان كنت لابد ان أذكر موقف الصديق عبدالحليم حافظ الذى اتصل بى تليفونيا فى مكتب مأمور سجن القناطر ولم يكن المأمور موجودا فى مكتبه، وكان يجلس مكانه ضابط شاب، كاد يصيبه الذهول عندما اكتشف ان الذى يتحدث معه على الخط من الناحية الأخرى هو عبدالحليم حافظ شخصيا، واضطر الضابط بعد أن دردش كثيرا مع عبدالحليم الى استدعائى والسماح لى بالحديث مع عبدالحليم، ولا أنسى ايضا موقف الاستاذ الكبير مصطفى امين عندما أرسل لى من سجن طره الى سجن القناطر هدية ثمينة من الشيكولاته وسجاير الكنت، ومع الهدية رسالة يستفسر فيها عن أحوالى ويطمئن الى أن بعض الرؤساء العرب قد تدخلوا لدى السادات من أجل اطلاق سراحى، وأيضا فعل الصديق محمد عودة نفس الشيء. عندما أرسل لى مسودة من كتابه القيم (الوعى المفقود) الذى رد فيه على كتاب توفيق الحكيم (عودة الوعى) وقد استمتعت كثيرا بالكتاب فى السجن، وأدركت من خلال سطور كتاب محمد عودة أن مصر العظيمة لا يمكن ان تنهزم.

بالطبع لم تقطع زيارة الأسرة كان صلاح السعدنى يزورنى مرة كل أسبوع، وكان صهرى الأديب عبدالرحمن شوقى يفعل نفس الشيء، وكانت أمى

حريصة على زيارتى رغم المرض والشيخوخة. وكانت ابنتى الصغرى حنان تعتقد أننى مجند فى الجيش، وكانت فى فترة الزيارة تلهو بمراءة فى فناء السجن ولم تدرك أنها فى أحقر مكان على ظهر الأرض! ولكن ابراهيم نافع كان اكثرهم ترددا على فى السجن، لأنه كان يزورنى مع الجميع، مرة مع أسرتى، ومرة مع شقيقتى، ومرة مع صهرى؛ ومرة مع المحامى.

وهناك زيارة هزتنى فى عمق وبكيت ليلتها وأنا اقبع وحيدا فى زنزانتى الباردة فى سجن القناطر

كان اليوم عيدا عندما جاءنى المأمور فى السادسة مساء وقبل اغلاق أبواب الزنزانات بدقائق. وقال لى هناك شخص يقف عند الباب ويريد زيارتك واسمه خليل، فهل تريد مقابلته؟ قلت للمأمور ليس له صديق بهذا الاسم، ورجوت المأمور أن يسأله عن شخصيته وعن الغرض من زيارته، وخيل الى انه محام موكل فى قضية معى أو ضدى لكن المأمور عاد بعد قليل وأخبرنى أن الرجل الواقف عند باب السجن يقول أنه جدى، واسمه الشيخ خليل معوض، ولم أصدق ما سمعته أذناى!

كان جدى الشيخ خليل فى سن المائة، وربما أكبر قليلا فى تلك الأيام. وطلبت الى المأمور أن يصف الرجل لى، وجاء وصفه منطبقا على جدى بالضبط، وأسرعت مع المأمور للقاء الرجل العجوز، واحتضنته بشدة، وجلس معى اكثر من نصف الساعة فى حجرة المأمور، وسألنى عن أحوالى داخل السجن، ثم أدى صلاة المغرب، ثم قال لى وهو ينصرف: لقد ذهبت اليوم لزيارة الموتى فى القبور ثم جئت الى هنا لزيارتك. والحق أقول أن

العلاقة بينى وبين الشيخ خليل معوض، كانت أكبر من علاقة حفيد بجده. كنت أمزح معه، وأضربه مقالب في بعض الأحيان، وأرغمته مرة على مشاهدة مسرحية من تأليفي. وبدا عليه السرور عندما ظهر الفنان محمد رضا على المسرح ومعه عبد السلام محمد، ولكن عند ظهور أول امرأة على المسرح. وكانت الفنانة عقيلة راتب، هب صارخا كمن لدغه عقرب، وأخفى عينيه بيديه، ولعنني ولعن أيامي السود وسلوكي المعوج، وكيف لا يكون سلوكي معوجا؟ وقد أخبرته في بداية العرض انها مسرحية بلا نساء!

وأعود الى الصديق ابراهيم نافع. كلمت صديقى ابراهيم المطيرى بتدبير دعوة ابراهيم نافع الى الخليج. وقام ابراهيم المطيرى بالأمر على ما يرام، وذهبت الى المطار لاستقبال الحاج ابراهيم نافع القادم من القاهرة بعد فراق استمر تسع سنوات.

ووقفت انتظره لمدة ساعة بعد خروج جميع ركاب الطائرة من المطار. والسبب أن رجال الجمارك ارتابوا فى أمره، فقد كان يحمل معه عشر قفف من النوع الصعيدى ممتلئة بكل ما لذ وطاب، خروف كامل مذبوح، وأصناف من البلح كان يعلم حبى لها، وفريك فلاحى وملوخية، وعيش بلدى (شقق). وقشطة من خير الريف، وليمون بنزهير من النوع الذى ليس له وجود فى أى مكان الا مصر، وبرطمان طرشى بلدى بالدقة والبرطمان طوله متر وقطره نصف متر، وحز فلاحى مرحرح.

وتصور بتوع الجمارك امام كل هذا الكم الهائل من المأكولات أن الرجل يموه عليهم، باعتبار ان كل الأطعمة متاحة وموجودة فى الخليج! وأقام

ابراهيم نافع معى ثلاثة أسابيع، وترك هنا اثرا لا ينسى كما هو شأنه فى كل مكان يذهب اليه، وعقد صداقات مع باعة السمك فى الحلقة، ومع الجزارين الهنود فى السوق المركزى، ومع العربى الأردنى صاحب السوبر ماركت، ومع مجموعة الصحفيين المصريين الذين يعملون هناك، أسامة وهندى غيث ومحمد العكش ويسرى حسين، ومن ابراهيم نافع استطعت لأول مرة أن افهم حقيقة الأوضاع فى مصر. واكتشفت ايضا ان تأييدى لمبارك كان عين الصواب، وأن شعب مصر ربما لم يتحرك لاختيار رئيس بهذا الحرص. كما تحرك لأختيار مبارك.

لقد شعر الشعب فجأة ان مصر فى خطر.

ووجدت فى ابراهيم نافع حائطا جديدا للمبكى. فحكيت له مأساتى وما حدث بالتفصيل منذ خروجى من مصر وحتى التقينا. كانت اياما من العمر لا تنسى، لم ينغص علينا الا وفاة شقيقة الحاج ابراهيم نافع فجأة، فأضطر الى قطع رحلته والعودة الى القاهرة.

وعدت بعد رحيل الحاج ابراهيم نافع أنام نهارا وأسهر ليلا، وأتفرج على مناظر مضحكة ومبكية معا! منظر بعض المكافحين الذين يكافحون فى الخليج ضد مصر الرجعية والمستبدة!! وهم طراز من المكافحين يؤمن بأن الكفاح كالرزق يحب الخفية! وهم أغرب مكافحين فى تاريخ البشرية، لأنه لم يسبق لأحد منهم أن استوقفته أى شرطة فى العالم، ولا حتى شرطة المرافق، وهو يقرؤون عن السجون فى الجرائد، ويقرأون عن الاضطهاد فى الكتب! ولا يعرفون الا خلال بحثهم المضنى عن منافذ جديدة لتحويل ما كسبوه فى السوق السوداء!

وكان كل واحد من هؤلاء المكافحين يعمل لحساب جهة معينة، ويقبض أجره حسب درجة علو صوته ومتانة حبال حنجرته، ودرجة حرارة القلم الذى يكتب به، ولذلك كان لابد من الكفاح حتى النهاية.

ومن غرائب الطبيعة أنه كان من بين هؤلاء المكافحين مكافح حقيقى عاش سنوات طويلة فى السجون واضطهد كثيرا، وتشرد طويلا، وعندما ذهب الى الخليج، عاش فى الظل، واحترف الصحافة لأنها مهنته.. وتوثقت صلتى بالصديق مصطفى كمال الذى لازمته فترة سجون مصر، وفترة فى العمل السياسى، وقبل أن يصبح العمل السياسى نوعا من أنواع الوجاهة والثراء، والحصول على مكان تحت الشمس!

وذات صباح، دق جرس التليفون كان المتحدث صديقا. وقال: إن هناك مستشارا بوزارة الخارجية المصرية يريد لقائى، ويدعى محمود فهمى، . وهو يريدك لأمر هام ولمسائل تتعلق بعودتك الى القاهرة. ولما كان العبدلله صاحب خبرة طويلة فى مثل هذه الأمور. فقد قلت لصديقى اننى لا أرغب فى مقابلته. لأننى أعلم أن الخارجية المصرية ليس من بين اهتماماتها الاتصال بالمصريين الهاربين من مصر، ولأن هناك جهات أخرى هى التى تهتم وتسعى لمثل هذه اللقاء، وأبديت استعدادى للقاء (المستشار) اذا كشف عن شخصيته وأفصح عن حقيقة الجهة التى تعمل بها وتكرر نفس الطلب من اصدقاء آخرين: صحفيين وموظفين ورجال بنوك. ولكنى تمسكت بالرفض. حتى تلقيت مكالمة من سيدة مصرية تعيش فى المهجر منذ فترة طويلة. وكنت أعلم أنها على صلات وثيقة ببعض اجهزة الأمن فى مصر. عندئذ تأكدت ظنونى فى شخص

(المستشار). ووافقت على لقائه، وجاءتنى السيدة ومعها (المستشار) وكانت ذكية ولماحة وواعية الى حد كبير، فأقتصر دورها على توصيل (المستشار) الى المكان الذى اقيم فيه، ثم ذهبت الى حال سبيلها وتركتنا معا وجها لوجه. أنا والسيد (المستشار) وكان هذا أول لقاء رسمى بين العبد لله وحكومة مصر بعد رحيل أنور السادات.

*****

لم يكن منظر السيد المستشار يوحى بأنه مستشار على الاطلاق. وكانت عضلاته المفتولة وقوامه العسكرى وهيئته عموما تؤكد على انه من رجال الأمن.. ولم يكن العبدلله أى اعتراض على الدخول فى مناقشة مع رجل أمن قادماً من القاهرة فهو على كل حال سيكون مواصلا جيدا للحرارة، وسينقل وجهة نظرى كما هى لمن بيدهم الأمر.

وفوجئت به يسألنى عن شروطى للعودة الى القاهرة. ولم يكن لى شروط على الاطلاق ولكن فوجئت به يسألنى وهل انت مصر على العودة رئيسا لتحرير صباح الخير؟ وكان سؤالا ساذجا بحق. فمنصب رئيس التحرير منصب سياسى، وقلت للسيد المستشار اننى لست ساذجا الى هذا الحد. فأنتم مع كامب دافيد وانا ضدها.، وانتم مع الصلح مع اسرائيل وانا غير موافق على هذا الصلح. وأنتم على علاقة خاصة بالولايات المتحدة، وأنا مع أنصار العلاقات المفتوحة مع الجميع، وأنتم على خلاف مع العرب وأنا من اصحاب نظرية مصر بلا عرب لا شىء، وعرب بلا مصر لا شىء ايضا. ومن هنا فان مجرد التفكير فى منصب رئيس تحرير صحيفة قومية لم يخطر لى على بال!

وأبدى المستشار دهشته ثم سألنى عن موقف الآخرين من العودة الى القاهرة، وأجبت المستشار بأنه يستطيع أن يسأل الآخرين اذا اراد ان يعرف رأيهم. واقترح المستشار على العبدلله أن أدعو الى عقد مؤتمر للمعارضين فى الخارج لمناقشة هذا الأمر، واعتذرت عن تنفيذ هذا الاقتراح، لأننى لست زعيما سياسيا، ولكنى مجرد كاتب اضطرتنى ظروف معينة الى مغادرة مصر، وأريد العودة الآن الى بلادى بعد أن زالت هذه الظروف. وفى نهاية المقابلة سألنى: أليس لك طلبات خاصة، قلت نعم. أن تقبلوا اولادى فى جامعة القاهرة، فقال هذا أمر بسيط وسيكون كل شىء على ما يرام وسألقاك بإذن الله قريبا فى القاهرة.

ولم يحقق السيد المستشار شيئا مما وعد به. ولم ألتق به الا مصادفة في ممر ضيق بوزارة الداخلية عندما كنت فى طريقى لمقابلة السيد حسن ابو باشا وزير الداخلية!!

وبعد ايام من لقاء المستشار اياه التقيت بصديقي الذى دعانى الى الاقامة عنده في الخليج، وخلال هذا اللقاء استمعت الى مالم اكن اتوقعه! فصديقى اضطرته الظروف الى الوقوف بجانب ايران فى حربها ضد العراق!! ولذلك فهو يطلب الى أن اعتزل الكتابة نهائيا. وان اتوقف فورا عن نشر مقالي اليومى فى جريدة السياسة الكويتية ومقابل ذلك سيقوم صديقى اياه بتأسيس مشروع تجارى باسم العبدلله ويشترط الا أتعجل عودتى لمصر حتى تتضح الصورة تماماً فى القاهرة.

ولكن اغرب شىء سمعته هو ان صديقى ـ الذى هو فى امور السياسة مثل شكوكو فى أمور الفلسفة ـ يتزعم حزبا سياسيا هو الحزب العربى الموحد ـ

ويضم الحزب «المثات» من اقطار عربية شتى، وأن هدف الحزب في النهاية هو توحيد العالم العربى! ولم أفهم العلاقة بين توحيد العالم العربى والوقوف الى جانب ايران فى حربها ضد العراق!!

كان واضحا في حديثه معى ان النقط التى حددها صديقى ليست مجرد رغبات، ولكنها شروط وان اقامتى على شاطىء الخليج مشروطة بتنفيذ هذه الشروط. ولذلك طلبت الى صديقى الطيب ان يمهلنى فترة للتفكير الذى حدث فى عالم اليوم، يبدو ان الأمة عندما تنحدر.. تنحدر فى كل شيء وعلى كل مستوى.

فى الماضى القريب كدت أجن لمحاولات بعض النظم العربية وسعيها لتزعم الأمة العربية بعد خروج مصر، وكان سبب جنونى ان هذه النظم لا تملك الامكانات ولا القدرة وكل ما تملكه هو مجرد طموح بدون مؤهلات ولا مواهب، طموح اشبه بطموح العبدلله فى ان ارتقى عرش بريطانيا يوما ما!

ولكن ها هى ذى الأمور تتطور على الساحة العربية الى ما يشبه الهزل، وها هو ذا صديقى الطيب يعتقد الآن فى امكانه تزعم العالم العربى وقيادته، ومن أجل هذا أصدر جريدة وانشأ حزبا، ولم يعد ينقصه شيء الا ان يجلس مكانه وينتظر، تماما كما يشترى الصعيدى ملابس كرة قدم، ثم يجلس فى قريته ينتظر دعوة للمشاركة فى بطولة كأس العالم القادمة!!

وانقذنى من ورطتى وصول تلكس من الشيخ صباح الأحمد يدعونى فيه الى العودة الى الكويت، وكانت لهجة التلكس ودودة ورقيقة، ولم اضيع

وقتا، وركبت اول طائرة الى الكويت، واستقبلنى الشيخ صباح الأحمد بترحاب شديد . . وقال: هذه بلادك وعليك ان تتصرف هنا كما يتصرف الانسان فى بلاده، كانت شروط صديقى لا تزال تجثم على صدرى كحجر ثقيل، وبالرغم من أن موقفى منها كان الرفض القاطع، الا انه كان من استطلاع رأى بعض من أثق فيهم من الاصدقاء والحكماء منهم على وجه الخصوص . . وقد ابدى الاستاذ أحمد بهاء الدين دهشته الشديدة لما سمع منى، فنصحنى بعدم الكف عن الكتابة. ونصحنى ايضا بالعودة سريعا الى القاهرة. وكان هذا هو رأى الاستاذ أحمد الجارالله ايضا. وعلمت من الصديقين ايضا ان بعض المسئولين العراقيين اتصلوا بهما يطلبون عنوانى، وان هذا الاتصال تكرر كثيرا، وان سبب الاتصال والسؤال عن مكانى. هو أن الرئيس صدام حسين يريد ان يرانى قبل أن أعود الى القاهرة. وسألت الاستاذ بهاء رأيه. فقال اذا كان الرئيس صدام يريدك، فلابد ان تذهب الى بغداد، وقال الاستاذ أحمد الجارالله نفس الشىء، وألح على ضرورة الذهاب الى بغداد.

ولكن الأمور تطورت سريعا فقد تحدد موعد الاستاذ أحمد الجار الله لمقابلة الرئيس حسنى مبارك فى القاهرة وقال لى رئيس تحرير السياسة وأنا أودعه فى مطار الكويت لا تترك الكويت الى اى مكان حتى أتصل بك من القاهرة. وأقمت فى الكويت فى انتظار مكالمة أحمد الجار الله التى جاءت بعد يومين بالتحديد وقال لى أحمد الجارالله من القاهرة. أبشر يا محمود. بكل شىء سيكون على ما يرام، وسأعود غدا الى الكويت، وبعد خمسة أيام سأطير مرة

أخرى الى القاهرة وستكون معى فى طائرتى الخاصة وشعرت براحة شديدة. وانتابتنى حالة نشاط مفاجئة . . أخيرا سيقدر لى أن أرى مصر الحبيبة بعد صياعة طويلة دامت تسع سنوات.

وبالفعل جاء الجارالله فى اليوم التالى . وجلست أعد الايام حتى كانت الليلة الأخيرة قبل السفر الى القاهرة وكنت مدعوا الى حفل اقامه بعض الاصدقاء فى منزل الاستاذ على عمر المحرر بجريدة الوطن

وبينما أنا اتأهب لمغادرة الفندق فى طريقى الى مكان الحفل . واذا بجرس التليفون يدق ، وكان المتكلم هو المستشار الصحفى المصرى بالكويت ، وقال الرجل وبدون مقدمات : محمود. لا تسافر غدا مع أحمد الجارالله ، فقد اتصل بى الاستاذ محمد حقى رئيس مصلحة الاستعلامات المصرية ، وطلب الى ان أرجوك تأجيل سفرك الى القاهرة بعض الوقت.

وقلت للمستشار الصحفى وقد أخذتنى المفاجأة : وهل هذا معقول؟ أفهم أن يمنع انسان من الخروج من بلده ، ولكن أن يمنع انسان من الدخول الى بلده ، فهذا هو الشيء الجديد والغريب أيضا!

وقال الرجل الطيب : ان الذين يطلبون إليك التأجيل هم الذين يحبونك ويقفون فى صفك ، وعلى العموم لن يتأخر سفرك الى القاهرة أكثر من أيام، ثم طلب الي أن أتصل بالأستاذ أحمد الجارالله لأن مدير الاستعلامات المصري اتصل به أيضا في هذا الشأن.

وعندما اتصلت بالأستاذ أحمد الجارالله فى منزله ، ضحك ضحكته المميزة ، وقال : «ها . . ولايهمك كل شيء ها يكون تمام ، أنت هتتأخر أسبوع

أو أسبوعين وسنذهب الى القاهرة معاً، بإذن الله» ولا أعرف حتى هذه اللحظة كيف وصلت إلى مكان الحفل، ولا أعرف كيف قضيت الليلة مع الأصدقاء، كل ما أذكره الآن أنني بعد انصراف المدعوين صارحت صاحب البيت بما حدث، ثم انفجرت في بكاء عنيف. لم استطع السيطرة على نفسي، وبكيت في تلك الليلة كما لم أبك في حياتي قط. وعندما عدت الى الفندق في الفجر. وجدت رسالة من الأستاذ صباح سلمان السكرتير الصحفي للرئيس صدام حسين معي في بغداد ويقول في الرسالة أنه طلبني ولم يجدني، وأنه سيعاود الاتصال بي في الثامنة صباحا. وفي الموعد الذي حدده. كان صباح سلمان معي في بغداد، وقال صباح: لقد بحثنا عنك في كل مكان، واتصلنا بالعديد من أصدقائك دون جدوى، والآن نحن في انتظارك في بغداد، لأن الرئيس صدام حسين يريد أن يراك قبل أن تعود الى بلادك. وقلت للصديق صباح سلمان: حاضر، سأكون عندكم في بغداد خلال أيام.. ولزمت الفندق لا أغادره على الاطلاق. كان أكرم أبني لا يزال في صحبتي فقد ضاعت عليه سنة دراسية، وأسرتي كانت لاتزال في بغداد ولا أعرف عنها شيئا، ولي شقة في الخليج وشقة في القاهرة، ومنزلي في بغداد، بينما أقيم في فندق في الكويت، أصبح حالي كحال الأمة نفسها بلا منطق ولا عقل!

وفي المساء اتصل بي الصديق نصيف عواد، فطلب الى ضرورة الإسراع في الحضور، وقال: عندما تصل الى بغداد، اتصل بي فور وصولك ومهما كان الوقت، وقلت للصديق نصيف عواد: أنني أخشى من لقاء الرئيس صدام هذه المرة. وعندما سألني نصيف عن السبب. قلت: لأنني لن أستطيع أن أكتم عنه

هذه المرة كل صنوف العذاب التى لقيتها فى بغداد. وقال نصيف: لا تكتم شيئا على الاطلاق، وثق يا محمود ان كل ما حدث لك لم يكن إلا من تدبير بعض الموظفين الجهلة، وبعض أشباه السياسيين الحمقى، ولكن أرجوك لا تتأخر فى العودة الى بغداد.

وكان نصيف عواد- والحق أقول- هو الواحة التى ألجأ إليها دائما كلما اشتد الهجير فى بغداد. كان من هذا الطراز الذى يجذب إليه الصائعين والحيارى والذين يتقلبون على جمر النار. وكانت له وقفات مع العبدلله لن أنساها ما حييت واتخذ نفس الموقف مع آخرين، اكتووا مثلى بنار الحمق والجهل مصريون وفلسطينيون وسوريون. وكان يؤمن بأن المذاهب السياسية كالحب، تأتى بالاقتناع وليس بلوى الذراع، وكان يدير مكتبا فى القيادة القومية، ولديه متسع من الوقت ليستمع فى أناة وصبر الى شكاوى المعذبين وضحايا الحمقى من صغار الموظفين. وكنت اثق فيه كثيرا واصدقه دائما، وارتاح اليه فى كل حين، ولذلك هدأت نفسى واطمأنت بعد حديثه معى. وفى الصباح كنت مع أكرم ابنى فى السيارة نلتهب الطريق الى بغداد.

*****

وصلت منزلى فى بغداد فى الحادية عشرة مساء. ووجدت هناك أحد زعماء حزب الكهرباء مع حرمه فى زيارة مفاجئة. واكتشفت انه جاء مع السيدة حرمه ليبلغ الاسرة اننى لن أعود الى بغداد، وبالطبع نقل هذا الكلام نفسه لمن يتعامل معهم فيما يسمى بمكتب مصر. ولم يخجل الزعيم الكهربائى عندما رآنى إمامه فى بغداد، ولكنه آثر الانسحاب واختفى، كان حال الاسرة

لايسر ، فقد احاطوهم بسلسلة من الشائعات الكاذبة ، فمرة أنا متزوج من انجليزية فى لندن ، ومرة أخرى أنا متزوج من مصرية فى الكويت! ولكن الجريمة الحقيقية فى أنهم حاولوا تجنيد زوجتى فى العمل السياسى لحساب حزب قومى مصرى ، كان البعض يغرس جذوره فى الخارج تمهيدا لشتله فى ارض مصر . واستخدموا فى محاولة تجنيدها سيدة مصرية تعمل طبيبة بيطرية فى بغداد وتقيم هناك منذ عشرة اعوام . وكانت فكرة جنونية من جانب هذا البعض الذى تصور انه قادر على حكم الامة العربية بعد غياب مصر ، فقد كانوا يعلمون تماما ان السيدة حرمنا ، استاذة فى فن الطبخ ، وهى تجيد صنع الملوخية على الطريقة المصرية وليس على الطريقة القومية وأنها نذرت نفسها لبيتها ولأولادها ، وأشهد أنها حصلت على الميدالية الذهبية فى هذا المجال ، ولكنه الجنون الأزلى الذى انتابه البعض والذى صور لهم ان حكم مصر قد صار قاب قوسين أو أدنى ، فشمروا عن سواعدهم لتأليف حزب قومى خارج مصر من بعض الارزقية والحثالة . والذين قبضوا الثمن مكاتب ثقافية فى أوربا . وشركات كهرباء تعمل فى ارجاء الوطن العربى ومسجلة فى بنما ، واضطررت الى منع السيدة المصرية التى تشتغل بطب الحيوانات من دخول منزلى ، وأبلغت المسئولين عنها برفضى واشمئزازى لهذا الاسلوب الهابط ، الذى لا يتفق مع الشعارات المرفوعة ، والادبيات المكتوبة .

المهم أننى فى نفس الليلة فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليلة اتصلت بالاستاذ نصيف عواد الذى قام بدوره بالاتصال بالقصر الجمهورى فى نفس الليلة . وفى الصباح الباكر ، دق جرس الباب فى منزلى ، وكان الطارق احد

افراد الحراسة فى القصر الجمهورى ومعه سائق وسيارة مرسيدس من سيارات القصر . وقال الرجل : هذه السيارة مخصصة لتنقلاتك اثناء وجودك فى بغداد، وسلمنى رقم تليفون وقال : تستطيع ان تتصل بهذا الرقم اذا صادفتك اية مشاكل فى بغداد ، ثم اتصل بى الاستاذ طارق العبدلله وكان يشغل منصب رئيس الديوان الجمهورى، وحدد لى موعدا للقاء الرئيس صدام حسين، وكان ذلك بعد سبعة ايام من وصولى الى بغداد .

وسألت احد المسئولين فى الاعلام العراقى عن الحدود التى يجب ان التزمها فى حديثى مع الرئيس صدام، فنصحنى أن اكون محمود السعدنى، وان اتصرف بتلقائية وعلى طبيعتى ، وأن أفتح له صدرى وقلبى معا .

وفى الموعد المحدد توجهت الى القصر الجمهورى . ولكنى اكتشفت ألا أحد هناك ، لا الرئيس ، ولا رئيس الديوان ، ولا السكرتير الصحفى ، ولا احد على الاطلاق ، لم يكن هناك الا احد رجال الحراسة . وجلست انتظر بعض الوقت . ثم انصرفت .

وفى المساء علمت ان الرئيس اضطر الى السفر فجأة الى جبهة القتال ، وان معركة ضارية نشبت فجأة بالقرب من الحدود . وأن الجيش الايرانى استطاع ان يزحف حتى الحدود الدولية . ملتفا كالثعبان حول مدينة المحمرة . وانه استطاع محاصرة المدينة وعزلها تماما وفى داخلها نحو عشرين الف جندى عراقى، وكانت معركة رهيبة دفع فيها الطرفان ثمنا باهظا فى الارواح والعتاد واستمرت الة الحرب تعمل بلا انقطاع عشرة ايام كاملة، وخيل لى ان لقائى بالرئيس صدام سيكون متعذرا، بل ويكاد مستحيلا بعد هذه الظروف الاليمة التى

أحاطت بالموقف. وفكرت فى السفر الى الكويت تمهيدا للسفر الى القاهرة، ولكن فوجئت ذات مساء برئيس الديوان الجمهورى يطلبنى. ويبلغنى بأن لقائى بالرئيس صدام قد تحدد فى الساعة الحادية عشرة قبل ظهر الغد. وانتابنى ارق شديد. ولم أنم الا قليلا، ورحت اقلب الامر على جميع وجوهه واندب حظى الذى شاء لى أن اقابل الرجل وسط هذه الظروف التى ان لم تكن مؤلمة. فهى على الاقل مرهقة ومقبضة ايضا.

وفى الصباح. كنت فى القصر الجمهورى فى مكتب السكرتير الصحفى، انتظر الاذن بالمقابلة. وفى الساعة الثانية عشرة تماما قادنى رئيس التشريفات الى حجرة مكتب الرئيس، وعندما وقع بصرى عليه، حدث لى ارتباك شديد، فقد تصورت قبل الدخول عليه، اننى سأرى رجلا مهموما مجهدا تبدو اثار السهر الطويل حول عينيه. وكان سبب ارتباكى ان الذى رأيته كان شيئا آخر مختلفا. كانت تبدو عليه علائم الصحة والثقة فى نفسه الى اقصى حد. وكان بقامته الطويلة. وفى لباسه العسكرى وبنظراته النفاذة وبابتسامته الرقيقة. يفرض الرهبة والاحترام. وتلقانى بذراعين مفتوحتين وبتواضع شديد، وبأخوة حقيقية. وجلس على مقعد، وأشار على المقعد الآخر، فجلست، وأشعل لنفسه سيجار هافانا من النوع الفاخر (كينو هيبا) وقدم لى واحدا وتفضل فأشعله لى، وسألنى عن أحوالى ثم فجأة سألنى: ليش تركت العراق يا محمود احنا قصرنا معك. قلت: استغفر الله، لم يحدث تقصير من جانبك يا سيادة الرئيس. ولكن الذى حدث ان بعض الموظفين الذين يشتغلون بالسياسية. ضايقونى الى الحد الذى قررت فيه ان اغادر العراق.

قال: ولكنى طلبت اليك من قبل ان تقاوم هؤلاء وان تقف في وجوههم!
قلت: هذا صحيح: وأنا فعلت ما نصحتني به، ولكنى لم أكن قادرا على الاستمرار فقد اكتشفت خلال المعركة معهم، أننى وحيد غريب، وضعيف ايضا، ولم يكن امامى الا الاستسلام او الهروب، وفى النهاية اثرت الهروب، فهربت.

وقال الرئيس صدام: ولكنك مخطىء فى شعورك بأنك كنت وحيدا، لأننى معك أسند ظهرك. وأشد قامتك، قلت: هذا صحيح يا سيادة الرئيس، ولكنى اعلم انك مشغول بالحرب، وتصبح جريمة لو شغلت وقتك لحظة واحدة بمشكلتى التافهة. وقال صدام حسين: ان مشكلتك أو مشكلة اى مواطن، حتى ولو كانت تافهة، فهى ضمن مسئولياتى وضمن همومى ايضا، فلماذا لم تخبرنى بما حدث؟ ولزمت الصمت فترة، فكرت خلالها سريعا وعميقا، ثم قررت ان اصارح الرئيس بالحقائق كلها، فقلت له، يا سيادة الرئيس لقد خيل الى فى موقفين اثنين انهم ينطقون باسمك ويعملون حسب توجيهاتك، ولما كنت قد قررت الا يحدث تناقض بينى وبينك على الاطلاق، فقد اثرت الرحيل من بغداد، وحتى لا تتعقد المشاكل وتتأزم الأمور.

اما الموقف الاول يا سيادة الرئيس، فيتلخص فى ان صديقى احمد الجارالله اشترى من جيبه الخاص سيارة مجهزة للمعوقين، لتستخدمها ابنتى المشلولة هالة. كتبت طلبا لمدير الجمارك ليسمح لى باستيراد السيارة، ولكن مدير الجمارك رفض. ونصحونى بأن اكتب طلبا آخر لنائب رئيس الوزراء، وهو يعرفنى شخصيا، ويعرف مشكلة ابنتى هالة. وفوجئت بعد تقديم الطلب

بأسبوع بأحد موظفى مكتب مصر يبلغنى برفض النائب الاول لرئيس الوزراء للطلب، وكانت رنة صوته تحمل كل معانى التشفى والتحدى!

اما الموقف الثانى فكان حينما ذهبت الى مكتب مصر وقابلت احد المسئولين فيه، وسألته ان يعطينى مسدسا بعد ان طبق نظام الاظلام التام فى بغداد ووقعت عدة حوادث هنا وهناك فى انحاء المدينة وعلمت انهم وزعوا اسلحة نارية على اللاجئين السياسيين هناك. ولكن الموظف الذى يعمل فى مكتب مصر قال لى فى لهجة تهكمية: نعم وزعنا اسلحة على اللاجئين السياسيين فى بغداد. ولكنى لا استطيع ان اعطيك ما تطلبه. وسألته بسلامة نية" «أمال أطلبه من مين؟ فقال بسخرية شديدة: اطلب من صدام حسين، مش انت بتروح عنده!»".

وحكيت للزعيم صدام حسين، كيف سافرت الى امريكا بدعوة من اتحاد الطلبة العرب،. وبجواز سفر عراقى: ورفضت ان اتقاضى مليماً واحدا بدل سفر. وفوجئت فى يوم السفر بثلاثة من موظفى مكتب مصر يسلمنى كل منهم كشفا بالمشتريات التى يريدها كل من هناك، واضطررت الى شراء هدية متواضعة لكل منهم فى حدود امكاناتى المالية وكانت دهشتى كبيرة عندما ثار احدهم فى وجهى لأننى لم احضر له ما طلبه منى بالتمام والكمال. واضطررت الى الرد عليه فى عنف، ولكنه اضمرها فى نفسه ضدى، وراح يلاحقنى بالشائعات والافتراءات فى اوساط المصريين.

وهذا الموظف بالذات ادمن الرشوة واعتادها خصوصا من جانب المصريين الذين كانوا يعملون فى شركات الكهرباء. الذين كانوا يتعاملون معه فى مكتب

مصر. اما العبد لله فلم يكن يعمل فى شركات الكهرباء. ولم يكن يتعامل مع احد، ولم أكن أملك شيئا الا مرتبى المتواضع. والذى كان يكفينى بالكاد.

كان صدام حسين يستمع ولا يعلق بشيء. وشعرت بأنه يريد ان يسمع كل شيء. وان يحيط بكل شيء ثم فجأة قال: ولماذا تسأل الجارالله ان يشترى لهالة؟ ولماذا لم تسألنى أنا؟ هل الجار الله أغنى من العراق يا محمود؟ وقلت أنا لم اسأله وكل ما فى الامر أننى طلبت إلى الجارالله شراء سيارة مجهزة لهالة على ان يخصم ثمنها من مرتبى من اقساط. وبالفعل اشتراها، ولكنه رفض ان يتقاضى ثمنها خصما من مرتبى.

وقال لى أحمد الجارالله: ان هالة ابنتى ايضا، وهى هدية متواضعة منى وأرجو أن تقبلها، وقال صدام حسين وهو ينفث دخان سيجاره الفاخر على شكل حلقات فى ارجاء الحجرة الفسيحة. ان هالة تعيش فى العراق وتدرس القانون فى جامعة بغداد. وهى مسئولة من العراق. لا من أى أحد وارجو ان تنسى كل ما حدث. ثم بدأ يتحدث عن هذه النماذج من الموظفين قصار العقول والنظر. ثم راح يشرح لى كيف انضم الى حزب البعث. وكيف قاوم كل السلبيات وكيف انتصر فى معركته ضد عبدالكريم قاسم ونظامه، ثم سألنى: هل شاهدت فيلم الايام الطويلة؟ وهو فيلم عن نضال صدام حسين فى شبابه ضد ديكتاتورية عبدالكريم قاسم: وهو من اخراج المخرج المصرى توفيق صالح وعندما اجبته بالايجاب، سألنى عن رأيى فيه؛ فقلت له: الفيلم جميل، وجيد لولا بعض المواقف التى لا تتفق مع طبيعة البشر. فلما سألنى ان احدد موقفا من تلك المواقف، قلت له: انه موقف البطل فى الرواية الذى هو

موقفك انت فى واقع الامر ، عندما استخرج منه البدوى الرصاصة التى كانت فى جسمه فان البطل فى الرواية لم يصرخ ، فالناس تحب الزعيم القوى . ولكن الزعيم القوى ـ ومهما كان قويا ـ هو ايضا انسان ويجرى عليه ما يجرى على صنف البشر .

وقال صدام ولكن صدقنى يا أخ محمود ان الذى حدث فى الواقع اننى لم اصرخ ولم اشعر بأى الم . كل ما حدث اننى لزمت الصمت . .

قلت : حتى وان كان هذا صحيحا فى الحياة . فالأمور كان يجب ان تختلف فى الفيلم ولم يبد الاقتناع على صدام .

وانتقلنا الى الحديث عن الحرب فأكد لى ان الامور جيدة ، وموقف العراق ممتاز . ولما سألته عن «المحمرة» قال انهم نجحوا فى حصارها ولكن لدى المحاصرين اسلحة ومؤن تكفى لعدة شهور ثم تحدث عن الحرب بصفة عامة وقال : ان النصر ليس بالحصول على عدة اشبار أو عدة امتار من الأرض . ولكن النصر هو فى فرض الارادة على الطرف الآخر وقال : ان ايران لا تستطيع فرض ارادتها علينا ولو استمرت الحرب الف عام . وان على ايران ان تعلم ان دورها كشرطى المنطقة قد انتهى . وان عليها ان تعيش فى سلام داخل حدودها ومع جيرانها ، ولا تحاول التدخل فى شئون الآخرين .

ثم تحدث عن مصر وعن دورها العربى وقال بصراحة . ان ابعاد مصر عن المحيط العربى هو سبب هذا الانهيار ، وقال ان الجيش المصرى لو جاء الى بغداد الآن لفتحنا له كل الابواب . . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتعرض فيها صدام حسين للحديث عن مصر بعد مؤتمر بغداد الشهير . .

استمر الحوار بيننا حتى الساعة الثانية والنصف. تخللها دخول كبير حراسه الى حجرة المكتب ثلاث مرات ليذكره بموعد هام. وفى كل مرة كان الرئيس صدام يبتسم ويطلب الى كبير الحراس ان يرسل لنا قهوة وسيجارا.

واستأذنته فى نشر ما دار بينى وبينه فى الصحف. وقال: ما يخالف والتقطت لنا صور تذكارية. وسألنى قبل ان اغادر مكتبه عما قررته بالنسبة للمستقبل. وعندما ذكرت له اننى قررت العودة الى مصر. قال عين الصواب يا محمود ثم قال: كل انسان مفيد فى بلده، لابد له من العودة، ومع سلامة الله الى بلادك، ولكنك ستجد ابواب العراق دائما مفتوحة لك، ووقت ان تشاء.

وودعنى حتى باب المكتب، وعندما خرجت اكتشفت ان احد المسئولين الذين كانوا يناصبوننى العداء جالس ينتظر فى مكتب الحرس. هذا المسئول بالذات كان يتصرف معى كأحد اعداء الامة العربية. والسبب هو معارضتى الشديدة لممارساته الخاطئة فى العمل الذى كان يقوم به. وقد صافحنى الرجل وانحنى كرقم تسعة. وطلب الى ان امر عليه فى مكتبه. وقلت: يا سبحان الله! لقد رفض هذا الرجل نفسه مقابلتى قبل ذلك عدة مرات!

وكتبت الحديث وعرضته على الرئيس صدام، وحصلت على الموافقة وطرت الى الكويت لانشره ووجدت مفاجأة فى انتظارى وهى مفاجأة غريبة. لأن مكانها وابطالها كانوا فى سوق المناخ!

السيدة .. الغولة!

نشر حديث الرئيس صدام حسين بجريدة السياسة.

واهتمت به وكالات الانباء العالمية فقد كانت المرة الاولى التى يتحدث فيها صدام حسين بعد فترة صمت طويلة وكانت المره الأولى ايضا التى يعلن فيها صدام حسين عن ضرورة عودة مصر الى العالم العربى. كما ان الحديث كانت به عبارة استوقفت انظار كل المراقبين السياسيين وهى التى اكد فيها صدام حسين بوضوح وبصراحة ان (الجيش المصرى لو جاء الى بغداد. لفتحنا له كل الابواب).

ونشرت جريدة الثورة العراقية الحديث فى اليوم نفسه. وكذلك ايضا فعلت صحف اخرى، ولكن لتهاجم الرئيس صدام حسين، وتشير الى ان العراق تخلى عن مسئولياته القومية. وانضم إلى كامب ديفيد.

واذا كان هذا الموقف طبيعيا من تلك الصحف التى تقف فى خندق ايران. فإن الموقف غير الطبيعى هو موقف صحف القاهرة التى نشرت مقتطفات

مفتضبة من حديث الرئيس صدام حسين بالرغم من أن الزعيم العراقى اكد فى حديثه على أن الرئيس حسنى مبارك يختلف عن سلفه أنور السادات، كما دعا العرب الى التعاون مع حسنى مبارك. الرجل صاحب الاتجاهات القومية والوطنية.

المهم ان الحديث احدث ضجة عربية ودولية ايضا. والسبب ان صدام حسين كان هو نجم مؤتمر بغداد الذى انعقد بعد زيارة السادات للقدس. وهو الذى استطاع ان ينتزع من المؤتمر قرارا بعزل مصر وطردها من الجامعة العربية. وقطع العلاقات السياسية الدبلوماسية معها، بل أن شركات الطيران العربية أوقفت رحلاتها الى القاهرة. كما تم نقل مقر الجامعة العربية ومؤسساتها الى عواصم عربية شتى. وها هو ذا صدام حسين بعد اقل من خمس سنوات يدعو الى عودة مصر مبارك الى الصف العربى. ويدعو العرب الى عودة ايديهم الى مصر مبارك. . وكانت فرصة لاعداء صدام حسين لشن حملة ضارية ضده. وهى حملة باطلة ولا تقف على اقدام. لأن صدام حسين سياسى مرن وعملى. ويحب امته العربية. وهو يدعو العرب الى مساندة حسنى مبارك لأنه زعيم عربى وطنى. ومصر فى ظله تختلف عن مصر تحت حكم أنور السادات.

على العموم، بعد نشر الحديث بيوم واحد. كانت جريدة السياسة قد نشرت صورة كبيرة للرئيس صدام حسين والعبد لله يجلس الى جانبه، اتصل بى أحد كبار تجار سوق المناخ، ولم يكن لى به سابق معرفة. وطلب فى إلحاح ان يلتقى به فى أى مكان. وبالفعل التقينا فى فندق ماريوت فى الكويت،

وجاء معه ثلاثة من اصدقائه، تبينت انهم أيضا من تجار سوق المناخ، ومنذ أول لحظة راحوا يمطروننى بالاسئلة وكلها تدور حول الرئيس صدام حسين وعن صحته، وعن الموقف العسكرى على الجبهة، وهل تسقط المحمرة أم تقاوم؟ وهل يصمد صدام حسين؟ أم يستقيل كما فعل عبدالناصر بعد حرب الأيام الستة؟ ورويت لهم ما رأيته بعينى. وقلت لهم ان صدام حسين فى خير صحة وأتم عافية، وربما هو فى صحة افضل مما كان عليه قبل الحرب، ويتمتع بهدوء اعصاب لدرجة اننى خلال الساعات الطويلة التى قضيتها معه، لم أشعر اننى امام رجل يتحمل كل هذه المسئوليات الجسام، ويقود حربا هى بالقطع واحدة من أبشع الحروب فى التاريخ. كان يتمتع بأعصاب هادئة، وذهن صاف، كان ينصت الى كل حرف ويناقش فى التفاصيل.

وقلت لتجار سوق المناخ، ان صدام حسين سيبقى فى موضعه، وسيبقى رئيسا لعراق حتى ولو دخل الجيش الايرانى حجرة مكتبه، وان الحالة الوحيدة التى يتخلى فيها عن الحكم. هى أن يدخل الجيش الايرانى مكتبه هو شخصيا ويطلق النار عليه، ولكن هذا لن يحدث قبل أن يطلق صدام حسين آخر رصاصة من مسدسه.

وهنا انفرجت اسارير تجار سوق المناخ، وبدأ البشر يطفح من وجوههم ثم استأذنوا وانصرفوا وهم فى غاية السعادة والسرور.

ولقد كان هذا موقفا طبيعيا من تجار سوق المناخ وغيره من الأسواق. فرأس المال هو أول ما يتأثر بنتائج الحرب. ولما كان رأس المال المتداول فى الكويت هو رأس المال العربى، فانتصار العرب مصلحة له بدون اى شك. كما ان هزيمة

العرب تعني الخراب بلا جدال ، ولذلك ربطت ما حدث فى سوق المناخ بما حدث فى المحمرة بعد ذلك !

ولقد ترك حديثى مع الرئيس صدام حسين اثرا سيئا فى نفوس بعض الحكام العرب ، اتهمت بأننى عميل لحزب البعث ، واتهمنى البعض بأن خلافى مع السادات لم يكن خلافا مبدئيا ، وانما كان خلافا شخصيا واننى اسفرت عن وجهى فى أول فرصة والقيت بنفسى فى احضان معسكر كامب ديفيد .

وهاجمنى طفل (معجزة) فى صحيفة خليجية ، واتهمنى بأننى ارزقى لأننى اقف مع العراق فى حربها ضد ايران! واضطررت الى الرد على الطفل المعجزة . ودفعنى الى ذلك رغبتى فى الرد على من دفعه الى ذلك ، وهو مسئول فى احدى دول الخليج ، يتصور نفسه خليفة عبدالناصر ، مع انه يقف الى جانب ايران فى حربها ضد عرب العراق .

ولقد كان للعبد لله رأى وما زلت متمسكا بى وحتى النهاية . فمهما يكن الخلاف مع النظام العراقى ، ومهما يكن الخلاف مع حزب البعث ، الا أن العروبة الحقة تلزم كل عربى بالوقوف فى خندق العراق وفى صفها لأن أى اندحار للجيش العراقى وأى انتصار للجيش الايرانى فى هذه المعركة هو هزيمة لكل عربى ، وهو بداية النهاية لجنس العرب ، ولذلك فان موقف حسنى مبارك من الحرب العراقية ـ الايرانية يجعله اكثر قومية من بعض الحكام الذين يرفعون شعارات القومية ويرددون اناشيدها ، لأن القومية ليست شعارات والعروبة ليست جنسية ، ولذلك ايضا فالعبد لله يقول ان حكومة فرنسا بموقفها من حرب الخليج . . تعتبر اكثر عروبة من بعض الحكومات العربية .

قضيت اياما فى الكويت بعد نشر الحديث، والتقيت بعدد من المسئولين الكويتيين من بينهم الشيخ جابر العلى الصباح نائب رئيس الوزراء السابق، وهو رجل مثقف، وعلى صلة وثيقة بأغلب الكتاب والأدباء والفنانين فى الوطن العربى، وقال لى الشيخ جابر العلى ونحن جلوس فى مكتبه بالنقرة: حسنا فعلت باعلان تأييدك لحسنى مبارك. وأنه طراز جديد من الحكام لم تشهده مصر من قبل، وقال انه سيحاول حل مشاكل مصر بطريقة تختلف عن طريقة سلفه السادات، فهو لن ينفرد باتخاذ القرار، وستشهد مصر على يديه نظاما ديمقراطيا لم تشهده فى عصرها الحديث، وكان هذا هو أول رأى من مسئول خليجى استمع اليه فى الرئيس المصرى الجديد.

سافرت بعد ذلك الى الخليج، ولكن دهشتى كانت كبيرة عندما استوقفتنى شرطة مطار دبى وحجزتنى لمدة ساعة دون سبب على الاطلاق! وعندما استفسرت منهم عن سبب وقوفى فى المطار. قالوا: لا شىء مجرد تشابه فى الأسماء! ولكن هذا الحادث البسيط، جعلنى ادرك ان الرياح تهب بما لا تشتهى السفن.

عندما اتصلت بصديقى الذى دعانى للاقامة فى الخليج وجدت صدا، ولذلك قررت الرحيل من هناك، ولكن الاحداث كانت تتلاحق بشكل سريع.

خرج سيد مرعى من الحكم، وكان كبيرا للمستشارين فى عهد السادات، واختفى ممدوح سالم من الحياة. وذهب الدكتور حاتم الي المجالس القومية المتخصصة، وعاد د. مصطفى خليل الى البنك، وخرج المعتقلون السياسيون

من السجن الى قصر رئيس الجمهورية واجتمعوا به بعض الوقت، وسرت فى مصر روح جديدة انعشت الحكومة والمعارضة على السواء، وعاد النبض الى صحف القاهرة، وأقبل الناس على قراءتها من جديد. كل ذلك وأنا بعيد عن القاهرة أرنو اليها بعين دامعة من فوق شاطىء الخليج.

ولكنه ومضة امل برقت فجأة وسط هذا الليل الطويل، فقد اعلن حسنى مبارك فى حديث له ان على المعارضين المصريين فى الخارج ان يعودوا الى وطنهم فليس هناك قيود على عودتهم، ولنبدأ جميعا صفحة جديدة.

واتصلت فى المساء بشقيقى الفنان صلاح السعدنى فطمأننى بأن كل شىء على ما يرام، واننى سأسمع فى الاسبوع القادم خبرا يهمنى فى الدرجة الأولى، وانه سيكون بالنسبة لى مثيرا على نحو ما، وفهمت ما كان يعنيه صلاح السعدنى عندما استمعت من اذاعة القاهرة بعد أيام، الى خبر اقالة النبوى اسماعيل من منصبه كنائب لرئيس الوزراء ووزير للادارة المحلية، وكان وجوده فى الوزارة يمثل عقبة فى طريق عودتى الى القاهرة، فأنا اعرفه منذ ان كان مديرا لمباحث السكة الحديد.

والحق اقول ان الرجل كان شديد النشاط فى تعقب المجرمين والنشالين، ولم تكن لى أى اهتمامات سياسية. ولم تكن له اى تطلعات الا ان يخرج الى المعاش فى سن مناسبة وعلى رتبة اللواء.

ولكن فجأة صار مديرا لمكتب رئيس الوزراء، ثم اصبح وزيرا للداخلية، ثم صار نائبا لرئيس الوزراء. وهو كان من بين الاسباب التى ادت الى قتل

السادات وعجلت بنهايته، لأنه اعتبر مصر عزبة، واعتبر معارضة النظام خيانة عظمى، وهدد المغارضين بمطاردتهم فى الشوارع وضربهم بالرصاص!

وكان الوزير الذى تولى أمر وزارة الداخلية فى بداية عهد حسنى مبارك رجلا سياسيا بخق، وهو اللواء حسن ابو باشا. وكنت قد قابلته مرة وهو مسئول عن مباحث الجيزة، وقابلته مرة أخرى قبل انقلاب ١٥ مايو بقليل، وأعجبنى انه استطاع بذكاء شديد ان يضع وزارة الداخلية على الطريق الصحيح، وان يحولها من وزارة لقوى الأمن الداخلى - كما كانت فى عهد النبوى اسماعيل - الى وزارة للشئون الداخلية، سياسية واجتماعية وكما ينبغى لها ان تكون، وقررت ان ابدأ الخطوة الأولى بالاتصال رأسا وبلا وساطة بحكومة مصر، وادرت قرص التليفون من شقتى على شاطىء الخليج. وطلبت اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية. وكان العميد ثعلب مدير مكتب وزير الداخلية هو الذى رد على عندما حاولت الاتصال بوزير الداخلية حسن ابو باشا، وكان مهذبا ورقيقا الى اقصى حد. وقال لى وهو يضحك لقد قرأت كتابك (الولد الشقى) عشر مرات ولم أشعر بملل، لقد كانت حياتى فى الطفولة صورة طبق الأصل من حياتك مع اختلاف فى بعض التفاصيل. وسألنى عما اذا كنت اواصل الكتابة فى هذا الباب، ولما اجبته بالايجاب، طلب الى ان ابعث اليه بالجديد من كتبى، ووعدته بأن احضرها له بنفسى عند زيارتى له فى مكتبه بأذن الله، وفى نهاية المكالمة اعتذر لى العميد ثعلب بأن الوزير ابو باشا فى رحلة عمل الى الاسكندرية، وطلب الى أن اعاود الاتصال، وحدد لى يوما معينا، وساعة محددة واعطانى رقما وتمنى لى التوفيق.

واتصلت فى الموعد المحدد واليوم الموعود، وطلبت اللواء حسن ابو باشا، فأمهلنى السكرتير قليلا، وعندما سمعت صوتا على الطرف الآخر يقول: اهلا وسهلا قلت: اهلا حسن بيه، ولكن الصوت عاد يقول: انا مش حسن بيه، أنا فؤاد علام، ولم أكن أعرف فؤاد علام، ولم أكن قد سمعت به من قبل، ولكن صوت الرجل وطريقة حديثه كانا يدلان على شخصية قوية ومتزنة وتعرف حدودها تماما. وعندما قلت له: ولكنى اريد التحدث الى حسن ابو باشا، رد بأنه مكلف بالحديث معى نيابة عن حسن أبو باشا، ثم قال هذه بلادك وهى فى انتظارك، وعندما تحضر سنكون هناك للترحيب بك فى المطار، وقلت له مازحا: «الترحيب بتاعكم ده أنا عارفه! وإن شاء الله حترحبوا بى فين؟ فى سجن القلعة واللا فى سجن القناطر؟» وقال ضاحكا: «والله انت حر بقى وانت اللى تختار» ثم غير من لهجته على الفور وقال: «شوف بقى، احنا فى عهد جديد، وزمن تانى، وما فات مات، ونحن نتابع مقالاتك فى الخارج، وموقفك موقف رجل وطنى لم يكن ضد مصر، ولكنه كان ضد السادات، والسادات مات.

وقال: أنا اتحدث معك الآن من مكتبى بوزارة الداخلية، وما اقوله لك الان هو الكلام الرسمى، ولا استطيع ان اقول لك اكثر مما انا مأذون به. وقال: لقد اتصلت بأخيك صلاح السعدنى وشرحت له الموقف كاملا، وعليك الآن ؟ أن تختار، فاما ان تعود وعلى الفور، واما ان تبقى مكانك، وانت فى كل الأحوال مواطن مصرى، و لك كل الحقوق، وعليك كل الواجبات.

وشعرت بطمأنينة من حديث اللواء فؤاد علام، وقلت له: اذن سأعود على الفور، ولكن لى طلب واحد، قال: نعم. قلت: ارجو استخراج تصريح

عمل للعبد لله فى الخارج حتى اذا حضرت الى مصر ولم يعجبنى الحال، عدت مرة أخرى من حيث جئت، وبشكل رسمي وقانوني ولاغبار عليه، قال: تستطيع ان ترسل أى احد من طرفك وسيحصل على التصريح بعد ان يدفع الرسم، قلت له: سأرسل ابراهيم نافع غدا ومعه الرسوم، سألنى باهتمام: نافع« بتاع الاهرام »؟ قلت: لا أنه ابراهيم نافع «بتاع الجيزة» ولكنك عندما تراه ستجد انه كان أحق بأن يكون بتاع الجيزة والأهرام! قال: على بركة الله، وسيحصل على التصريح فور تسديد الرسوم، واتصلت بالحاج ابراهيم نافع فى المساء، وطلبت اليه مقابلة اللواء فؤاد علام بوزارة الداخلية، والحصول منه على تصريح عمل، واتصل بى الحاج ابراهيم فى اليوم التالى، وعندما سمعت صوته سألته على الفور: هل حصلت على التصريح؟ قال: لا قلت: «ليه» قال: لأنهم يريدون اسمك كما هو مدون فى جواز السفر، ورقم الجواز وتاريخ الاصدار واعطيت الحاج ابراهيم البيانات المطلوبة ولكنى تنبهت وانا اقلب صفحات الجواز انه على وشك الانتهاء وأننى فى حاجة الى جواز سفر جديد.

ومنذ أن خرجت من مصر، وجواز السفر كان سبب مشاكل كثيرة للعبد لله. كانت السفارات المصرية بالخارج تعتذر دائما بأن صلاحياتها تنحصر فى منح المشاغبين امثالى جواز سفر صالحا لمدة عام، وكانوا يتلكأون احيانا ويسوفون احيانا، ولكنهم والحق يقال كانوا يجددون الجواز آخر الأمر ولمدة عام واضطررت إلى عمل ثلاثة جوازات سفر فى وقت واحد جواز سفر ليبى تخلصت منه وجواز سفر عراقى، سافرت به الى انجلترا مرة، والى امريكا

مرة، وجواز سفر سورى، حرصت على استخراجه ليعلم الجميع اننى مقيم فى العراق فقط، ولست موافقا على الخلاف الذى بين البلدين.

وكان لابد ان احصل على جواز سفر جديد، واستعرضت السفراء المصريين فى منطقة الخليج واخترت سفارة مصر فى الكويت لأحصل على جواز السفر. ووصلت الكويت فى البوم التالى، وقابلت حسين الكامل سفير مصر الذى وقع اختيارى عليه ليكون هو السفير الذى احصل منه على جواز السفر الجديد.

والحقيقة اننى اخترت حسين الكامل بالرغم من ان جميع سفراء مصر فى المنطقة كانوا من الجيل نفسه، وهو جيل لم تشهد له وزارة الخارجية مثيلا من قبل، واستطاع هذا الجيل العظيم أن يجعل من وزارة الخارجية بمثابة (اللوبى) فى السياسة المصرية، وكان هذا اللوبى له رأى فى اتفاقات كامب ديفيد، واضطر ثلاثة من وزراء الخارجية الى الاستقالة اعتراضا واحتجاجا. وهم اسماعيل فهمى، ومحمد رياض، ومحمد كامل ابراهيم، ولكن حسين الكامل كان انشطهم جميعا، وكان يتصرف فى الكويت كسفير لمصر بالرغم من ان العلاقات بين البلدين مقطوعة، وبالرغم من ان لقبه الرسمى هو رئيس قسم رعاية المصالح المصرية فى الكويت. وهو رجل صاحب افق واسع وعلى صلات عريضة بالمصريين فى الكويت، وكان يختلف تمام الاختلاف عن زميله فى العراق السفير احمد كامل.

وأذكر هنا حادثة طريفة حدثت بينى وبين السفير المصرى فى بغداد، فقد حدث بعد خروجى من مكتب الرئيس صدام حسين بعد لقائى به، ان ذهبت

الى مكتب السفير المصرى الواقع خلف القصر الجمهورى، فاكتشفت ان الباب مغلق بسلسة حديدية ضخمة وقفل من النوع المستخدم فى اغلاق الدكاكين، هالنى ان يكون هذا حال سفارة مصر فى عاصمة عربية شقيقة، وضغطت على جرس الباب، فأجابنى صوت اختبأ وراء اسوار سميكة فى الداخل، وسألنى ماذا اريد . اجبته بأننى اريد مقابلة السفير، فسألنى اسمى؟ ثم امهلنى بعض الوقت، وغاب دقائق قبل ان يعود ليفتح الباب . واستغرق عدة دقائق اخرى ليفتح الباب . ثم استغرق عدة دقائق مثلها ليعيد اغلاقه من جديد .

ووجدت السفير احمد كامل امامى وفى حالة ليست على ما يرام . وسألنى عن الاحوال فطمأنته بأننى قادم فورا من مكتب الرئيس صدام حسين واخبرته ان حديث الرئيس صدام حسين عن مصر، سيحدث ضجة كبرى فى كل الأوساط، وعندما طلب الاطلاع على الحديث، اعتذرت لأن الرئيس صدام حسين لم يوافق على نشره بعد، ووعدته بأن اطلعه عليه بعد الحصول على موافقة الرئيس صدام حسين . وعندما سألنى : وما العمل الآن؟ قلت له مازحا : انزع هذه السلسلة الضخمة التى تشبه سلسلة سجن القناطر وافتح نوافذ السفارة، ورش بعض الماء عند الباب، قال : ولكنهم يقابلوننا بتكشيرة فى وزارة الخارجية، وانا حتى الآن لم اقابل اى مسئول من وزارة الخارجية اللهم الا بعض الموظفين الصغار .

قلت : ولكن الأمور ستختلف بعد الآن وعندما ينشر الحديث سيفهم الجميع اشارة الرئيس صدام . وقال السفير احمد كامل فى أسى حقيقى . هل تعرف ان السفارة بلا تليفون حتى الآن، لقد طلبت اليهم كثيرا تركيب تليفون

فى السفارة دون جدوى ، وقلت اطيب خاطره : ان هذا امر يسير . ويمكن علاجه على الفور قال : كيف؟ قلت : لا ادرى ، ولكن سأحاول على كل حال .

واتصلت فى المساء بالسيد طارق العبد الله امين سر مجلس قيادة الثورة ورويت لهما دار بينى وبين السفير بشأن التليفون ، ورجوته ان ينقل هذا الحديث الى الرئيس صدام . وعندما زرت السفارة فى صباح اليوم التالى رأيت اربع سيارات من مصلحة التليفونات ومعها سيارة شرطة وقد انهمك الجميع فى مد اسلاك وتركيب تليفونات ، واستقبلنى السفير وقد تغير لونه عن الامس ، وتغيرت سحنته ايضا . وقال وهو يرحب بى : ما الذى حدث؟ لقد جاءوا من تلقاء انفسهم فى الصباح الباكر ، واعطونا خطوطا اكثر مما كنا نحلم . قلت : انها السياسة . اذا ضاقت ، ضاقت الارض بما رحبت ، واذا انفرجت ، اعطت من حيث لا تدرى!

المهم تحدثت مع حسين الكامل فى امور شتى . ثم سألنى : ومتى ستذهب الى مصر؟ قلت : فور تسلمى جواز سفر جديدا من مكتبك . قال : اذن سأعطيك الجواز لمدة سبعة اعوام كأى مواطن ، ولكن حسين الكامل سكت لحظة ثم قال : سنفعل كل ما نستطيع . وفى الصباح سلمونى جواز سفر جديدا ، واكتشفت انه صالح لمدة عامين فقط لا غير .

وعندما رجعت الى السفير حسين الكامل قال ، ضاحكا : لقد وعدتك بأن افعل كل ما استطيع ، وكل ما استطيع كسفير هو استخراج جواز سفر لمدة عام . ولكنى جعلته لمدة عامين وعلى مسئوليتى الشخصية وذلك اثباتا لحسن النية ودليلا على ان الامور قد تغيرت بالنسبة لك .

وتسلمت الجواز، وطرت من جديد الى الخليج واتصلت بالحاج ابراهيم نافع. قال: اذن العمل سيكون جاهزا بعد اسبوع. قلت: اذن سأسافر الى بغداد لأبدأ فى تسفير عائلتى الى القاهرة. ثم اعود الى مصر وبالفعل سافرت الى بغداد.

وانهمكت فى الايام التالية بسفر اولادى الى القاهرة وسافرت فى البداية هبة وهالة وامل وكانت هبة قد حصلت على الثانوية العامة قبل ذلك، وحصلت امل على بكالوريوس اقتصاد من جامعة بغداد، وكانت هالة لا تزال فى السنة الرابعة فى كلية الحقوق والسياسة. ثم سافر اكرم وحنان، وكانت حنان قد نقلت الى الثانوية العامة. وكان اكرم فى السنة الثالثة فى كلية الاقتصاد واشترى منى تاجر عراقى اثاث المنزل بخمسة الاف دينار وكان يساوى خمسين الف دينار، ثم سافرت مع أم أكرم الى الكويت ومنها الى لندن وقضينا هناك اسبوعين سافرنا بعدهما الى الارض المقدسة.

واكتشفت فى الطائرة البريطانية اننا نحلق فوق الاراضى المصرية فى طريقنا الى جدة والقيت نظرة من فوق على مصر، وعندما اصبحت القاهرة تحتنا، حاولت ان القى نظرة على الجيزة، وان احدد مكان منزلى على شاطىء النهر، ولكنى فشلت، فقد كانت المسافة بعيدة. ، وكنت مضطربا الى حد كبير، تمنيت وانا القى نظرة على النيل لو ان الطائرة هبطت بى فى مطار القاهرة لأنحنى واقبل الارض.

كانت الاتصالات بينى وبين وزارة الداخلية مشجعة، وبدا من خلال كلمات اللواء فؤاد علام، ان العهد الجديد يختلف تمام الاختلاف عن العهد

الذى سبقه، ولى عهد الغطرسة، وكبير العائلة. فالشعوب ليست قبائل وليست عائلات، ولكنها شيء آخر أكثر تعقيدا واكثر عمقا، واطمأنت نفسى كثيرا وهدأت. أخيرا سأرى مصر المحروسة. وسأعود الى مراتع الصبا.

وبدأت مصر تطاردنى فى احلامى. أحلام كانت أحيانا مزعجة ولكنى كنت أسعد بها على اية حال، بدأت استعد للسفر. واتصل بى كثيرون من المصريين فى الخارج. وبعضهم كان يستحثنى على سرعة العودة الى القاهرة. والبعض الآخر كان ينصحنى بالتمهل. وقلة قليلة كانت ترفض مبدأ العودة. وترفع شعارات ثورية للغاية. وتطالب بالاطاحة.

وللأسف الشديد كان هؤلاء (الثوريون) اصحاب مصلحة فى البقاء خارج مصر! ارتفع مستواهم المادى والادبى ايضا. والبعض منهم لم يكن لى أى شأن يذكر فى مصر. واذا بهم خارج مصر يصبحون زعماء وقادة. يدلون بالتصريحات، ويعقدون المؤتمرات الصحفية، ويتحدثون فى كل المشكلات من أول مشكلة الشرق الاوسط الى مشكلة (فيتناو) ورحت التقى بالكثيرين من كل الاتجاهات، رافعا شعارى بالعودة الى القاهرة، متمسكا بتحليلى للوضع السائد فى مصر، ولم يكن هذا التحليل نتيجة قراءة تقارير، أو اجتماعات من إياها. ولكنه كان نتيجة دراسة لرد الفعل العربى بعد ٦ اكتوبر.

كان هناك ترحيب من دول الخليج للتغيير الذى حدث فى مصر، وكان هناك اقتناع تام حتى فى العراق وفى سوريا، بأن مؤسسة الرئاسة الجديدة تختلف عن مؤسسة الرئاسة التى اختفت يوم ٦ اكتوبر، وأن هذا التغيير يشمل التفكير والسلوك والممارسات. وبينما أنا شديد السعادة لانتهاء الحرب بينى

وبين النظام المصرى، أكاد أطير فرحا بقرب عودتى الى القاهرة، واذا بخبر مفجع يصدمنى بشدة ويبدد فرحتى تماما.

ففى صباح احد الايام، اتصل بى أحد الصحفيين العرب، وبعد ان اعتذر لى عن قصوره فى الاتصال بى وبعد أن برر هذا القصور بأنه لم يكن يعرف مكانى على وجه التحديد، وبعد مقدمة طويلة عريضة، فاجأنى قائلا: البقية فى حياتك. وظننت ان احدا من اصدقائى قد توفى، وشكرته على تعزيته الرقيقة، ولكنى اكتشفت خلال حديثه ان أمى هى التى ماتت، واكتشفت ايضا أنها ماتت من سنوات دون أن أدرى، واعتذرت للصديق عن عدم استطاعتى الاستمرار فى الحديث. ورجوته ان يضع سماعة التليفون لكى أنفرد بعض الوقت بنفسى.

يالها من ضريبة ثقيلة يدفعها الانسان اذا أجبرته الظروف على الاصطدام يوما ما بالسلطة! فى بلادنا بالذات. وعندما اقول فى بلادنا، فأنا اقصد بلادنا كلها من الخليج الى المحيط. عندما يصطدم المواطن بالسلطة فمصيره مصير كلب يصطدم بسيارة نقل على الطريق السريع، تتناثر جثته الف قطعة ولا يسرع أحد لنجدته ولا يهتم أحد بدفنه!

هأنذا، وبعد أن دخت دوخة ينى، هاهى أمى تموت وأنا بعيد، لم أحضر وفاتها، ولم أمش فى جنازتها، ولم انزل خلفها فى غياهب القبر. ماتت المسكينة بعد مرض عضال لم يمهلها الا قليلا، ولكن عزائى الوحيد اننى كنت قد رأيتها فى عام ١٩٧٨.

والغريب انها حضرت فجأة الى العراق، واضطرت الى ركوب الطائرة ولم تكن قد جربت ركوبها من قبل، فهى لم تغادر مصر الى الخارج إلا مرة

واحدة حين ذهبت للحج وسافرت بالباخرة ولكنها بالرغم من خوفها من الطائرة فانها غامرت وركبت الطائرة وجاءت الى العراق. وقالت لى وأنا أعانقها: أردت ان أراك، فأنا اخشى ان اموت دون ان اطمئن عليك. ولقد شعرت من نظراتها بعد ذلك أنها لم تطمئن على حالى كما كانت تؤمّل. كنت اسكن فى البيت العتيق، وكان اولادى ينامون على الارض. وكانت لدى حديقة جربانة اختارت هى أن تقضى فيها اغلب الوقت، وطفت بها فى العراق. وسعدت جدا بزيارة النجف الاشرف وكربلاء. وقضت وقتا طويلا فى رحاب مسجد سيدنا على وبكت كثيرا فى مسجد سيدنا الحسين، وظنها البعض شيعية متعصبة مع انها لم تكن قد سمعت فى حياتها عن وجود مذهب يدعى الشيعة فى الاسلام! كان الاسلام فى نظرها ابسط من هذا بكثير، كانت تعرف الله والرسول وسيدنا ابو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن والحسين.

كان هذا هو الاسلام الذى تعرفه، وكانت تقدس الجميع وتؤمن بهم. وقضت ايامها على الأرض تسأل الله ان يحشرها معهم. فى جنه رضوان كانت - يرحمها الله - نموذجا لشعب مصر الطيب، لم يسمع بالخلاف الذى جرى بين على ومعاوية، وربما سمع به ولم يهتم. فكلهم ابناء الله وكلهم عبيده، ولعل هذه هى معجزة الشعب المصرى الذى لم يشترك فى المباراة الطويلة التى بدأت منذ الف وثلاثمائة عام ولم تنقض بعد، ورغم ان مصر كانت هى اول دولة شيعية فى تاريخ العرب، برغم الحكم الفاطمى ومدارس الازهر والانور والاقمر. وكانت فى الاصل معاهد اكاديميه لتدريس علوم الشيعة، برغم هذا كله ظل المصريون مسلمين فقط يشهدون بأنه لا اله الا الله وبأن محمد رسول الله ويقدسون الاولياء وأهل البيت والعلماء!

وسرت امى سرورا عظيما عندما زارت الفلوجة . كانت قطعة من ريف مصر . ولكنها حزنت كثيرا على الارض الزراعية التى أهملت ، فصارت بورا ، وسألتها مرة عن رأيها فى العراق ، فقالت : «بلد نظيفة قوى يا بنى» . وكان هذا هو تعليقها الوحيد . وتوطدت أواصر الصداقة بينها وبين عجائز (الحجيات) اللواتى كن يجاورننا فى السكن ، كانت تقضى معهن أوقاتا طويلة تحكى لهم عن مصر ، بينما (الحجيات) يسمعن اليها بشغف .

ولقد كانت أمى - يرحمها الله - برغم اميتها تجيد فن الحديث . وكانت تهتم كثيرا بالاطلاع على ما يدور حولها ، وكانت تجبر أحد احفادها على أن يقرأ لها الجريدة كل صباح . وكانت تعرف كارتر وجونسون وكيندى ايضا . وكانت كلما ذكرت الأخير فى حديثها تسبق اسمه بعبارة «الله يرحمه» وكانت تعرف بكر وصدام والاسد ومعمر القذافى والملك حسين وكانت من انصار عبدالناصر . وعندما زارنى الرئيس السابق امين الحافظ ذات مرة وهى عندى فى منزلى ، قدمته اليها وسألتها : عارفة مين ده؟ فأجابت : دا رئيس سوريا . ودهش امين الحافظ جدا . وكان دائما يردد هذه القصة فى سهراته الرائعة . وبالرغم من قلقها الشديد على أحوالى كما لمستها بنفسها ، فانها كانت سعيدة لان (الاولاد) ينتظمون فى جامعة بغداد . وكان تعلقها بأكرم شديداً للغاية ، وطلبت منى مرة أن أسمح لأكرم بأن يعود معها الى القاهرة ، فهى تعيش هناك وحيدة ، ووعدتها خيرا بعد انتهاء العام الدراسى فى بغداد ، وفى ليلة السفر الى القاهرة لم تنم . اجتمع حولها اولادى ، وراحت تحكى لهم قصصا فى طفولتها فى القرية وعن شبابها فى المدينة ، وأختلت بأكرم بعد ذلك ، وبذلت

جهدا كبيرا فى اقناعه بالسفر الى القاهرة . ولم يكن أكرم ابنى فى حاجة الى اقناع . فقد كان يود من اعماقه لو سمحت له بالسفر معها فورا .

وأخذتها فى الصباح الى المطار وعانقتنى بشدة ونحن على باب المطار، وبكت وطيبت خاطرها وقلت لها مازحا : وبعدين معاك، اللى بيعيط هنا بيمنعوه من ركوب الطيارة . نظرت نحوى ولم تعلق بشىء، ثم اختلست نظرة الى السماء ولمحت تعبيرا على وجهها ينم عن قلق شديد . فنظرت الى السماء انا الأخر . واذا بالسماء مليدة بغيوم سوداء كثيفة . فسألتها ضاحكا : ايه انت خايفة؟ وقالت لأبس ازاى يا بنى الطيارة هتطلع فوق السحاب والسحاب قافل السكة كده؟ قلت لها : ولا يهمك . الطيار معاه خريطة والسحاب له ابواب ، والطيار بيعرف يفوت منها، قالت : طيب يا بنى اشوف وشك بخير .

وعانقتنى ومضت . ، ومضت شهور وسنوات كثيرة بعد ذلك، كنت اسأل عنها شقيقى صلاح، فيطمئننى بأن كل شىء على ما يرام . ولم اكتشف الحقيقة الا بعد ذلك بسنوات . فقد ماتت أمى بعد شهر واحد من مغاردة بغداد، وقبل ان تموت بأيام قالت للحاج ابراهيم نافع وهو يزورها زيارة أخيرة . أنا خايفة أموت ومحمود بره، أحسن ما حدش يمشى ورايا . ورد ابراهيم نافع ضاحكا . لا ما تخافيش يا حاجة، أنا هاجيبلك الجيزة كلها .

وتحقق ما قاله ابراهيم نافع . خرجت الجيزة كلها تشيع الحاجة الى مثواها الأخير . وفى المساء اضطر رجال الشرطة، الى تنظيم المرور امام السرادق الذى اقيم فى وسط الجيزة، فقد كانت الجنازة والسرادق شبيهتين بمظاهرة صامتة .

وكان لوجود الفنانين الذين توافدوا على السرادق فى الليل لتقديم واجب العزاء للفنان صلاح السعدنى اثر فى مضاعفة الاقبال على السرادق . ولم يحضر احد من المسئولين فى الجيزة او فى القاهرة . ولم يحضر من المسئولين السابقين الا شعراوى جمعة ومحمد احمد مدير مكتب جمال عبدالناصر ، وعلمت ايضا ان نور السيد علم بنبأ وفاة أمى من الاستاذ احمد بهاء الدين عندما كان فى زيارة للندن ولكنه كتم الخبر عنى عملا بنصيحة بهاء وقضيت يوما بأكمله وحيدا أسترجع ذكرياتى معها ، وألوم نفسى لأننى سببت لها كل هذا العذاب .

وفى الليل البهيم وأنا جالس وحدى اكتشفت ان رغبتى فى العودة قد فترت وان نصف مصر قد مات بالنسبة للعبد لله . فلم تكن أما عادية ولكنها كانت عنيدة وشديدة البأس ومقاتلة شرسة لا تكف حتى تصل الى كل الأهداف . وعندما جاءت لزيارتى أول مرة فى السجن ، لم تبك ولم تضعف وقالت لى فى نهاية الزيارة انتبه لصحتك ولا تشغل بالك ، فأنت هنا اسعد حظا من الذين خارج الاسوار!

وذات مرة وهى عندى فى العراق تجولت ببصرها عبر البيت الخراب الذى كنت اسكنه وقالت لى : بيقولوا فى جرايد مصر انك بتقبض ملايين ، ثم قالت : ربنا يخرب بيت الظالم وعند عودتها الى القاهرة . سألها الحاج ابراهيم نافع عن أحوالى . فردت باختصار : الحمد لله . ربنا ع المفترى!

وفى الصباح هدأت نفسى عندما اتصلت بالحاج ابراهيم نافع . وسألته عن ظروف موتها فقال : انها ماتت فى هدوء وفى سلام . كان قد أصابها مرض

خطير لم يمهلها الا اسابيع قليلة وبالرغم من ان جميع من استشارتهم قد نصحوها بعدم اجراء عملية . لأنها كانت مريضة بالسكر وتعانى من مضاعفاته . ولكنها أصرت على اجراء العملية وماتت بعد اجرائها بثلاثة ايام ، ومن حسن الحظ ان اكرم ابنى كان قد سجل لها حديثا على شريط كاسيت ، فجلست استمع اليه ولم اهتم بذلك من قبل . هزنى بشدة حديثها الساذج الطيب الصريح . وهزنى انها تنبأت بموتها فى الشريط . من المؤكد ان الاسنان يشعر بنهايته ولعل هذا الاحساس هو الذى دفعها للسفر الى بغداد . كانت تريد ان ترانى قبل أن تموت ، ولقد فعلت ذلك ، ولم يعد لديها بعد ذلك اسباب للحياة . وانتهى الشريط . وانفردت بنفسى فى حجرة بعيدة وانخرت فى بكاء عنيف .

أغرب شىء انه بعد مجىء حسنى مبارك واستقرار الأوضاع نسبيا فى مصر ، وبعد ان خرج رجال المعارضة من السجن الى قصر رئيس الجمهورية نشطت فى الخارج حركة مريبة تزعمها اشخاص لم يكن لهم يوما ما فى الطور ولا فى الطحين ! والبعض منهم كانت تحوطه علامات استفهام كثيرة . فقد كانوا يوما من زعماء التنظيم الطليعى ، ثم اصبحوا من أكثر المتشنجين دفاعا عن (ثورة) ١٥ مايو ثم انضموا الى جبهة الرفض وصاروا من دعاة الصمود والتصدى ، وهى (سلاطة) سياسية ابة بسمك لبن تمر هندى !

المهم بدأ هؤلاء الابطال فى عقد مؤتمرات صحفية فى بعض مدن الوطن العربى يهاجمون فيها الأوضاع الجديدة فى مصر ، ويثيرون الشبهات حول حسنى مبارك ، باعتباره خليفة انور السادات ، والأمين على سياسته ، والسائر على دربه !

وكان واضحاً أن هؤلاء (الزعماء) يشتغلون بالأجرة، وأنهم مجرد مطايا لنظم عربية احترفت الحرب عبر الإذاعة، وتجيد القتال بالخناجر! وقد انساق مع هؤلاء فى البداية الزعيم الثورى الكهربائى إياه، وهو الذى يملك مع (زعيم) آخر من نوعه شركة كهرباء مسجلة فى بنما، ويبدو أن التعليمات التى صدرت إليه من النظام العربى الذى يتعامل معه كانت هى الاستمرار فى نفس السياسة ومناهضة النظام المصرى على نفس المستوى وبنفس الطريقة التى كانت سائدة فى زمن أنور السادات.

ولكن لأن الله أراد ان يكتشف هؤلاء تطورت الامور بعد ذلك، ولأن الظروف اضطرت النظام العربى الذى يتعامل معه الكهربائى اياه الى مهادنة مصر، فقد صدرت الاوامر من جديد لزعماء حزب الكهرباء بحل الحزب وتسريح اعضائه، ومهادنة النظام المصرى، ولقد حدث بالفعل وأعلن الزعيم الكهربائى الى الجزائر واجتمعت مع قواعد الحزب الكهربائى هناك، وكانوا ثلاثة. وابلغتهم بقرار حل الحزب! ولما استفسروا منها عن السبب، صرخت السيدة الغولة، وهو تعبير كان شائعا بين قواعد الحزب الكهربائى، على وزن السيدة الأولى، صرخت السيدة زوجة الزعيم الكهربائى فى وجوه القواعد الحزبية وقالت: إحنا حلينا الحزب وبس! مش عاوزه اسئلة معنديش حاجة أقولها اكثر من كدة! ثم اختتمت حديثها مع القواعد بحكمة خالدة: أنا جوزى كان وزير، والكبير هيفضل كبير، والصغير هيفضل صغير، واللى مش عاجبه كلامى يروح يشرب من البحر!

وحدث بعد ذلك أن سافر مندوب من مجموعة الجزائر الى أوربا، واجتمع برئيس الحزب الكهربائى، واستفسر منه عن مصير ميزانية الحزب فقرر رئيس

الحزب ان الميزانية وهى ثلاثمائة وخمسون الف دولار قد تم تجميدها فى أحد البنوك كوديعة والى أجل غير مسمى .

اخيرا اكتشفت القواعد هول الاكذوبة التى كانوا يعيشون فى ظلمها لم يكن هناك حزب ، ولم يكن هناك كفاح ، ولكن المسألة كلها كانت عملية استرزاق استفاد منها السيد رئيس الحزب والسيدة حرمه ، والميكانيكى نائبه والسيدة حرمه واستخدموا فيها هؤلاء الشبان ، وضاعت سنوات من حياتهم فى عملية لم يكتشفوا كذبها إلا بعد فوات الأوان!

نموذج آخر من هؤلاء الأرزقية رأيته فى دمشق . والمصيبة أن هذا الأرزقى كان شاباً وفى مقتبل العمر ، وكان متزوجا من شابة صغيرة ، وعندما استقبلته فى غرفتى فى فندق الميريديان فى دمشق ، اكتشفت أنه يخفى مسدسا فى جيبه . وبعد أن تحدث معى عن كفاح حزبه من أجل الوحدة والحرية والاشتراكية ، استأذننى فى الانصراف لحضور اجتماع حزبى على مستوى عال . ثم اكتشفت أنه سرق طقم شاى من متعلقات الفندق ، وعرفت فيما بعد أنه مقيم فى دمشق منذ سنوات طويلة ، وأنه يعمل بصاصاً لأحد أجهزة الأمن!

ومعلم إلزامى آخر كان يعيش فى ليبيا ، ولأنه اشترك فى مظاهرة فى عام ١٩٧١ . فقد قضى عامين فى السجن ، وخرج بعدهما وسافر الى ليبيا بحثا عن رزقه ، عارضا خدماته على من يريد ، متصورا أن الشهور التى قضاها خلف الأسوار كفيلة بتغيير حالته الاجتماعية .

ولقد حدث أن جاء الى بغداد فى عام ١٩٨٠ . . وبحث هناك عن وظيفة تليق (بمكانته) ولما عرضوا عليه وظيفة مدرس بسبعين ديناراً فى الشهر ، رفض

بشدة. وأصر على أن يتقاضى مرتبا يساوى مرتب عبدالرحمن الخميسى. باعتبار أن المعلم الإلزامى إياه وعبدالرحمن الخميسى مناضلان ويعيشان معاً فى المنفى!!

والحق أقول أنه بعد اضطراب الأحوال فى مصر وفى الوطن العربى أيضا، اضطر البعض الى الخروج من مصر، وكان معهم مبررات الخروج. كان هناك كتّاب وأدباء وشعراء. أمثال عبدالرحمن الخميسى وأحمد عباس صالح ومحمود أمين العالم، وكان هناك صحفيون كبار، أمثال فتحى خليل وسعد زغلول فؤاد وصافيناز كاظم، وكان هناك سياسيون أصحاب قضية، أمثال أديب ديمترى وسعد الشاذلى وحسن معاذ. ولكن هناك أشخاصا آخرين انتهزوا الفرصة فسرحوا فى العالم العربى عارضين خدماتهم على من يدفع أكثر، وهؤلاء زاحموا الأصلاء، وكانوا عيوبا عليهم، ومصدر تعذيب لهم، فقد اشتغل البعض بالعمل الحزبى، ولكن هذه الأعمال كلها كانت للتغطية على حقيقة نشاطهم. والحقيقة أنهم جميعا كانوا يعملون عيوناً لأجهزة الأمن.

ولكن أغرب نموذج على هؤلاء، كان يقيم فى عاصمة عربية، وكان يعمل فى هيئة تابعة للجامعة العربية، وسنطلق عليه هنا اسماً حركياً وهو «ربحى شملول» وهو فى الأصل كان شيوعياً، وسبق اعتقاله فى عام ١٩٤٦، وبعد أن قضى فى الحبس ثلاثة أسابيع، لزم داره فلم يخرج منها قط، وقطع صلته تماماً بكل الحركات السياسية فى مصر. وعندما صاهر الأستاذ ربحى أسرة مصرية كان معروفاً عنها التقوى والصلاح، واظب الأستاذ ربحى على التردذ على

المسـاجـد ، وحـافظ على مـواقيت الصـلاة، وسلك سلوك الدراويش وأبناء الطرق لدرجة أن حكومة الثورة عندما دخلت معركة ضد الأخوان المسلمين فى عام ١٩٥٤ . . وألقت القبض على الأستاذ ربحى باعتباره واحداً منهم، ولكن التحقيق الذى جرى معه فى السجن الحربى كشف لهم عن حقيقته، فهو لم يكن إخوانياً فى أى يوم وليس له علاقة بالتنظيمات الدينية، فأفرجوا عنه.

واختفى من جديد، ولم يره أحد أو يسمع به أحد حتى العام ١٩٧٧ . . عندما ظهر فى هذه العاصمة العربية موظفاً فى احدى هيئات الجامعة العربية، وبراتب قدره خمسة آلاف دولار فى الشهر، وجواز سفر دبلوماسى، وهو حلم لم يكن يتصور أن يرى مثله فى المنام. وبدلا من أن يحمد الله ويتوارى فى الظل. راح يدعى فى سهراته أنه يقود تنظيماً سياسياً داخل مصر، وشطح خياله الى بعيد، فراح يؤلف على الورق وزارات، ويوزع مناصب على أمثاله من المناضلين، و«الشهداء»!! .

وذات مرة غضب غضبة عنترية لأن مسئولاً بالدولة التى كان يقيم فيها استقبل الكاتب يوسف ادريس ولم يستقبله هو. مع أن يوسف ادريس مجرد (كاتب قصصى لا هنا ولا هناك) على حد تعبير السيد ربحى نفسه. وكانت زجاجات الويسكى التى يفتحها فى سهرات كفيلة باقناع الذين يسهرون معه، وكان من بينهم لبنانى احترف اللجوء السياسى ومع أنه لم ير لبنان منذ خمسة عشر عاما. ومع أنه كان ضابط جيش واشتغل بالسياسة عن طريق الصدفة، إلا أنه كان حريصاً على ارسال برقية كل شهر الى قيادة الدولة التى يلجأ إليها يبدأها بعبارة ضخمة رنانة (باسم الجماهيرية اللبنانية) وكانت هذه البرقية

الشهرية هى شفيعه وواسطته للامتيازات التى يحصل عليها باعتباره مندوباً عن الجماهير التى يرسل برقياته باسمها!

الغريب أيضاً أن السيد ربحى شملول الزعيم الهمشرى وجد فى البلد الذى يقيم فيه من يصدقه ويدعو له ولحزبه المزعوم! والفضل لزجاجات الويسكى ولهداياه الكثيرة التى كان يعود بها من سفرياته المتعددة.

واذا كان هذا النمط من السياسيين المصريين ساذجاً ومكشوفاً لحداثة عهده بهذا النوع من الحياة، فإن الأخوة السوريين كانوا أكثر حنكة وأكثر خبرة وأكثر دراية. وقد كان يعيش فى بغداد مثلا لاجىء سياسى فاضل هو الفريق أمين الحافظ، وكان بيته مفتوحاً لكل اللاجئين السياسيين من كل الأقطار، وكان على استعداد دائماً لتقديم أية خدمات لمن يحتاج اليها، وكان شديد الحرص على زيارة الجميع والسؤال عنهم.

وكان هناك أيضاً مناضل قديم وعظيم مثل أكرم الحورانى الذى كان قليل الحركة بسبب مرضه. ولكنه ظل متوهج العقل والضمير واللسان. ولم يتوقف لحظة واحدة عن الاهتمام بقضايا أمته ومصيرها.

كان هناك أيضا اللواء محمد الجراح الذى عاش فى ليبيا خمسة عشر عاما باعتبارها أرض القومية والوحدة، ثم هرب منها الى بغداد بعد أن تبين زيف الشعارات. وكذب الدعاوى وعاش هو الآخر فى بغداد.

ولكن الى جانب هؤلاء الزعماء. كان يعيش فى بغداد عشرات من السوريين (الكلاويشية) الذين اكتفوا من النضال بفتح دكاكين جزارة ودكاكين

جبن ولبن، وباعتبار أن الله بارك فى التجارة والنجارة! وخيل إلىّ فى وقت من الأوقات ان اللجوء السياسى صار مهنة يحترفها بعض الهاربين من كل المسئولية، والعاطلين عن كل موهبة، وأينما ذهبت الى أى مكان فى الوطن العربى، ستجد جمعاً قليلا من اللاجئين السياسيين بعضهم هارب من بلاده بسبب، والبعض هارب بلا أسباب.

والنظم العربية فى صراعها مع بعضها البعض، تستخدم كل من هب ودب، وتحاول أن تنفخ الروح فى الجثة الهامدة، وتحول هذا الصراع المضحك بين أقطار الأمة العربية الى سبوبة يرتزق من ورائها بعض من لا حيلة لهم حتى يتعجب أصحاب الحيل!

ولكن هناك أيضاً وسط هذه اللوحة المظلمة، نماذج مشرفة ومضيئة. بعضهم فضل النوم على الأرض، وعانى شظف العيش ورفض أن يتنازل. من هؤلاء وعلى رأس هؤلاء نموذج مصرى عظيم. مجرد فلاح دخل السباسة من باب الفلاحة، واضطر الى مغادرة مصر فى عام ١٩٧٧ وجاء الى بغداد، واشتغل فى اتحاد الفلاحين العراقيين براتب قدره مائة دينار فى الشهر، وهو مرتب فراش فى أحد الفنادق، مع أنه كان يوماً ما عضواً فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، وكان أميناً للفلاحين. ثم عضواً فى مجلس الأمة. وفى بغداد كانت له قصة مبكية ومضحكة معاً مع رئيس الحزب الكهربائى الثورى، وكان أمامه طريقان أن يخضع لمطالب الزعيم الكهربائى ويصبح من أثرياء العصر. أو يرفض ويصبح من صعاليك الدهر وقد رفض، ولكن هذه قصة أخرى.

الزعيم شملول

وإذا

كـــــان نموذج

الأخ ربحى شـملول

يصلح نموذجـــا لجـــيش

الرزقـيـة الذى سـرح فى انحـاء

العـالـم العـربى مـسـتـغـلا الظروف

المنحطة والأوضاع المتردية، فإن حسن معاذ

كان نموذجا آخر يختلف عنه أنه نموذج للسياسى

الشريف الذى يموت جوعاً ولا يأكل بعرق الضمير .

وفى البـدء كـان حسن معـاذ رميح مجرد فلاح يشتغل بالأرض . ثم اشتغل بالعمل السياسى . ووصل الى عضوية اللجنة المركزية . والى رئاسة الاتحاد التعاونى . ولعب دوراً هاماً فى الحركة الفلاحية . ثم جاءت ظروف على حسن معاذ رميح منعته من الأشتغال بالسياسة . وحرمته من الاشتغال بالفلاحة ، فاضطر فى النهاية للاشتغال بالتجارة ولم تكن التجارة إلا أشياء بسيطة ومن هذا النوع الذى يستخدمه الأطفال فى ألعابهم . ولم يكن دكانه إلا سردابا صغيرا فى احدى العمارات . ولكن سوء حظه جعله يفلس فى النهاية ، فأغلق دكانه وأغلق باب بيته على نفسه ، وعاش فى الظل وفى الصمت .

وسافر بعد ذلك الى العراق، واشتغل موظفاً فى الاتحاد العام للفلاحين العراقيين براتب قدره مائة دينار فى الشهر. فى الوقت الذى كان فيه بعض النكرات يعلمون فى ليبيا وفى سوريا وفى العراق بمرتبات تفوق مرتبات الوزراء. والمصيبة أن هؤلاء النكرات لم يكونوا على علاقة بأحد فى موطنهم الأصلى، حتى ولا أفراد الأسرة التى ينتمون إليها!

وبالرغم من ذلك لم يغضب حسن معاذ ولم يحتج. واشترك مع عشرة من عمال مصر فى مسكن متواضع فى احدى ضواحى بغداد البعيدة، وكان كل منهم يدفع عشرين ديناراً فى الشهر: ولما كان المسكن يقع على مسافة ٢٥ كليو مترا من قلب العاصمة. فقد كان على حسن معاذ أن يقطع هذه المسافة يوميا بوسائل مواصلات بائسة. وفى المساء كان حسن يلزم داره فلا يبرحها حتى صباح اليوم التالى. وهكذا قضى سنواته كلها فى العراق حتى قدر له أن يعود أخيراً إلى القاهرة. وذات مرة اصطحبنى الزعيم الثورى الكهربائى لزيارة حسن معاذ رميح. واستقبلنا حسن معاذ فى مكتبه المتواضع وعندما سأله الزعيم الكهربائى الانضمام لحزبه الثورى الحديدى الذى سيحكم العالم العربى ويحل جميع مشاكله!! اعتذر حسن بكثرة اشغاله. فلما ألح عليه الزعيم وضغط عليه بشدة. وعده حسن خيراً، دون أن يرتبط معه بشىء محدد على الاطلاق.

وتكررت زيارات الزعيم الثورى الكهربائى لحسن وأنا معه. ولكن كل المحاولات التى يبذلها الزعيم الثورى لضم حسن الى الحزب. فشلت. وخيل الى العبدلله أن حسن معاذ ربما انتابه القرف الشديد من العمل السياسى، وربما

آثر الابتعاد عن المشاكل، وابتعدت عن التفكير في حسن ومشاكله الى ان قمت بزيارة في مسكنه المتواضع ذات مساء، وهالنى سوء الأحوال التى يعيش حسن فى ظلها. كان ينام على الأرض ويعلق ملابسه على مسامير مغروزة فى الحائط، وعندما أراد أن يقدم لى الشاى، فتح النافذة ونادى على صبى القهوة التى فى أسفل البيت وطلب إليه احضار كوبين من الشاى. وأخذنى الحماس فى اليوم التالى، ففاتحت الزعيم الثورى الكهربائى فى ضرورة التدخل لحل مشكلة حسن، ولكن الزعيم الكهربائى نظر نحوى فى إشفاق، ورسم على شفتيه ابتسامة صفراء، وقال لى بلهجة حكماء أثينا: «أنت بتغرك المظاهر، حسن دا خطير جدا». ولما ظهر على وجهى عدم الفهم. قال لى بلهجة المسئول الذى يعرف كل شيء: «حسن دا وراه سر خطير، وعلشان كده أنا عدلت عن تجنيده فى حزبنا».

ماذا يقصد الزعيم الثورى الكهربائى؟ لم أشأ أن أجادله أكثر من ذلك فسكت دون أن يبدو على ملامح العبدلله أننى اقتنعت بحرف واحد مما قال، ويبدو انه شعر بعدم اقتناعى فأوفد الى نائبه فى الحزب وفى شركة الكهرباء أيضا، وهو شخص طويل وعريض وأجبن من فأر. وبعد أن خاض الوكيل الكهربائى معى فى موضوعات شتى لا علاقة لها بالهدف الذى جاء من أجله. فجأة مالى علىّ الوكيل الكهربائى وقال لى بصوت خفيض كأنه يذيع سراً حربياً لأول مرة: على فكرة بلاش تزور حسن، أحسن عندنا معلومات أنه بيشتغل مع الجماعة إياهم».

ولقد كانت هذه العبارة هى بداية طريق شكوكى فى الحزب الكهربائى وزعمائه، وتكررت زياراتى بعد ذلك لحسن، وفى كل مرة كنت أقارن بين

حاله وحال الآخرين. وبينما كان حسن يعيش على الأرض، كان زعماء حزب الكهرباء يسكنون القصور، ويستخدمون السيارات المرسيدس.

ولقد بدأت الغشاوة تنقشع عن عينى، وبدأت فى اكتشاف حقيقة الزعيم الكهربائى، عندما بدأ الزعيم إياه فى نشر سلسلة من الأكاذيب نسبها الى عبدالناصر، وكان قد وقع اختياره على العبدلله لإعادة كتابة هذه الأكاذيب. باعتبارى من أركان حزبه الحديدى، فلما راجعت الزعيم الكهربائى ونبهته الى خطورة نشر هذه الأكاذيب، لأنها بالتأكيد ستساهم فى هدم صورة زعيمه امام الجماهير. أجابنى قائلا: وما العمل اذا كان هذا هو التاريخ؟

والحقيقة أنه لم تكن هناك علاقة بين التاريخ وبين أكاذيب الزعيم الكهربائى، ولكنها كانت مجرد صفقة قبض ثمنها ثلاثين ألف دينار، وكان هذا هو أول رحلة استفتاح فى رحلة استرزاق الزعم الكهربائى الثورى، وعندما باع نفس الأكاذيب لنشرها فى مجلة ٢٣ يوليو، قبض عشرة آلاف جنيه استرلينى مع أننا كنا نعانى بشدة، وقبض المبلغ شيك لايزال كعبه فى جيبى. واضطررت الى الغاء ثلاث حلقات من هذه الأكاذيب، لأنها كانت أشبه بطعنات موجهة الى قلب الزعيم الذى كان الكهربائى يعمل رئيسا لخدمه.

وبالصدفة أيضا اكتشفت ان الولد الذى اختاره الزعيم الكهربائى سكرتيرا لحزبه يركب سيارة لون رقمها يختلف عن أرقام سيارات الناس العاديين. ولاحظت أيضا أن عساكر الشرطة يضربون له «تعظيم سلام» عندما تقترب السيارة منهم. وعندما فاتحت الزعيم الكهربائى فيما لاحظته فى هذا

الموضوع، نصحني بالصمت، وقال حكمة مأثورة: نحن في غربة يا محمود «يا غريب كن أريب» وعندما اتضحت لي الصورة بعد ذلك قررت أن أصمت وأن ابتعد.

كانت الصورة رهيبة وخطيرة ولم يكن حزب الزعيم الثورى الكهربائى إلا غطاء لتأسيس حزب قومى مصرى فى الخارج، ثم إعادة شتله فى أرض مصر، ولم يكن دور الزعيم الثورى الكهربائى وحزبه إلا التمويه والتغطية على الآخرين الذين يقومون بتأسيس هذا الحزب! ولكن لا يتصور أحدهم أن العبدلله ضد تأسيس الأحزاب أو رفض الاشتراك فى تأسيسها، فهذا حق كل مواطن مصرى شريف، ولكن الاعتراض على ان يقوم مواطن مصرى بالعمل كناطور ومن أجل التغطية على آخرين، ومع أنه- أى الناطور- لم يكن مؤمناً فى أية لحظة بالتنظيم الذى كان ينتمى إليه من قبل، كما انه ليس مؤمناً بالتنظيم الذى يعمل ناطوراً لحساب الذين يقومون بتأسيسه، إيمانه الوحيد كان بالأجر الذى سيقبضه وبالثروة التى سيحصل عليها.

وقد حقق هدفه كما خطط له بالضبط، واشترى منذ شهر شقة فى احدى العواصم الأوروبية دفع نصف مليون دولار ثمنا لها، وتبلغ ثروته الآن عدة ملايين فى بنوك لندن وسويسرا ولوكسمبرج.

أما الميكانيكى وكيل أعماله فقد صار من أثرياء العصر، وتبلغ تبرعاته الآن لبعض الهيئات والجماعات مئات الألوف من الدنانير والجنيهات.

ولقد حدث أن قمت بزيارة حسن معاذ رميح فى مسكنه ببغداد قبل أن أغادرها بأسبوع، وجلسنا معاً على الأرض، فلم يكن يملك مقعداً نجلس

عليها . ولما فاتحته بنيتى فى فضح الحزب الثورى الكهربائى . قال حسن بهدوء : «طب وانت زعلان قوى منهم ليه؟ دا فيه كتير كده» . وأجبته بأن السر الحقيقى وراء غضبى أنهم خدعونى فترة طويلة ، اننى اكتشفت فى النهاية أننى مجرد غر ساذج ، وأننى فى البداية تصورت أننا نعمل فى حزب حقيقى ، وأن الزعيم الثورى الكهربائى يعمل لصالح شعب مصر ، وعندئذ ضحك حسن معاذ ضحكة هادئة وقال : لا أحد يتصور أنك ساذج الى هذا الحد ، وأضاف : لقد كان واضحاً من البداية ان العملية كلها بغرض الاسترزاق والهبر ، وعندما عاتبته لأنه لم يكشف لى الحقيقة فى أول الأمر ، قال حسن ببساطة ، لا تؤاخذنى يا محمود فقد تصورت أنك فاهم مثلهم ، وأنك مشترك معهم وأن لك نصيباً فى الغنائم والأرباح .

وودعت حسن تلك الليلة ولم أره بعد ذلك إلا فى القاهرة بعد أن وصل إليها بعد وصولى بعدة شهور ، ولقد جاء كما ذهب . جيوب خالية وضمير شديد النقاء . وكان حسن معاذ نموذجاً للمصرى الشريف الذى جاع ولم يأكل بعرق الضمير . ونام على الأرض بينما نام الكلاب على الحرير ، وشعر بالبرد فى ليالى الشتاء بينما اشترى الخونة قصوراً فى أوربا وامتلكوا دفاتر شيكات أطول كثيراً من الحدود التى بين العرب واسرائيل .

ولم يكن حسن معاذ هو الوحيد الذى تسلح بالشرف وسار على الطريق المستقيم ، ولكن كان هناك عشرات ومئات فضلوا الجوع على العمالة ، والفلس على الخيانة ، وظلوا على ولائهم لشعب مصر وتحملوا فى سبيل ذلك كل الشدائد والأهوال .

أخيراً قدر للعبد لله أن يرى مصر، تحدد يوم عشرين ديسمبر ١٩٨٢ للعودة الى القاهرة، ووقع اختيارى على دولة الامارات لتكون محطة انطلاقى الى دولة الرأس. وفى الموعد ركبت الطائرة المصرية، وكنت قد قاطعت ركوبها لمدة عشر سنوات. وجلست على مقعدى ساهماً أحدق فى السحاب والسماء!

*****

كان مضيف الطائرة التى حملتنى الى القاهرة، رجلا متوسط العمر وخفيف الظل أيضا. وفى البداية ظننت أنه يعرفنى، عندما اختصنى بخدمة من نوع خاص، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه لا يعرفنى ولم تكن القراءة من بين هواياته، وكان يبدو شديد الغلب، كثير المشاكل. وعندما جاء ليجلس الى جوارى، راح يشكو سوء الأحوال وغلاء المعيشة وقلة المرتب، ثم رجانى أن أحمل عنه جهاز راديو يابانيا اشتراه من سوق الشارقة لأنه ممنوع عليه أن يدخل مصر بهذه الأشياء. وبدا عليه الارتباك الشديد وضربت معه لخمة عندما رويت له قصتى بالتفصيل، وأننى أعيش خارج مصر منذ عشر سنوات، واضطرب بشدة عندما قلت له أننى لا أعرف مصيرى على وجه التحديد، وقد أغادر الطائرة الى السجن، أو الى الحرية. واستأذن من العبدلله، وغاب فترة ثم عاد وأخذ جهاز الراديو الذى ان قد سلمه لى وقال: لقد وجدت أحد أقاربى على الطائرة وقد تطوع لحمل الراديو الى منزلى!

وابتعد عنى بعد ذلك، فلم يعد يختصنى بخدماته، واكتفى بالابتسامة لى من بعيد لبعيد، وللأسف الشديد فإن حال الناس جميعاً يشبه إلى حد كبير حال هذا المضيف الطيب، إذا اكتشفوا أنك على علاقة سيئة بالسلطة، ابتعدوا

عنك بقدر الإمكان، واكتفوا بالابتسام لك من بعيد لبعيد، ولذلك لم أغضب من مضيف الطائرة ولكنى التمست له العذر.

فقد فعل معى نفس الشىء أصدقاء منذ عهد الطفولة، أحدهم كان يعمل فى بلد عربى عندما خرجت من السجن، وجاء الى القاهرة فى اجازة لمدة شهر، ولكنه لم يكلف خاطره بالاتصال بى ولو عن طريق التليفون، ثم اشترك بالتشنيع على العبدلله بترديد ما كانت تثيره أجهزة السادات عن ثروتى التى تضخمت إلى عدة ملايين. وأحدهم أيضاً، وكان لى دور بارز فى المكانة التى وصل إليها وفى الثروة التى حققها، قاطعنى بعد السجن، وقاطعنى بعد العودة من المنفى، ولكنه عاد يتصل بى بعد أن أطمأن الى أن الأمور تسير سيراً حسناً، وبعدما تأكد من أن السلطة الجديدة لا تطلبنى ولا تتعقبنى، ولكن رفضت التحدث إليه ورفضت مقابلته، وقطعت علاقتى به وبالصديق الآخر، وإلى الأبد!

أخيراً هبطت الطائرة فى مطار القاهرة، وكنت أول من خرج منها، وألقيت نظرة على أرض المطار، واستنشقت هواء مصر بقوة وبعمق. هذه أول مرة أشم فيها رائحة مصر بعد غيبة مائة شهر بالتمام والكمال. وتمنيت ساعتها أن أهبط الدرج بسرعة وأن أركع على الأرض واتمرغ فى ترابها، باعتبار أن التمرغ فى التراب هو نوع من انواع الاستحمام بالنسبة لبعض الحيوانات! ولكنى لم أفعل شيئا من هذا.

نزلت الدرج ببطء، واكتشفت أن شقيقى صلاح السعدنى يقف أسفل الدرج ومعه ضابط اسمه فاروق مكى، شديد التهذب، جم الأدب، وكان مع

صلاح طفل صغير، لابد أنه أحمد ابنه، لقد ولد وانا خارج مصر وبلغ الخامسة من عمره ولم أكن قد رأيته وقال له صلاح: هذا عمك. فأقبل نحوى واحتضنته وقبلته. وسأله صلاح: ما رأيك فى عمك محمود؟ فأجاب على الفور حلو بس مقطع شعره، لم يكن شعرى فقط هو الذى تقطع ولكن أشياء كثيرة تقطعت خارج جلدى وداخله أيضا.

ومن حسن الحظ لم يلحظ الطفل الصغير إلا الآثار التى تقطعت خارج الجلد، لو علم أحمد السعدنى ماذا تمزق من نفسى ومن روحى ومن أعصابى، لبكى تأثراً على ما حدث لعمه. لو عرف أحمد السعدنى كم عانيت فى الغربة، وكم مرة احتبس الدمع فى عينى، واحتبست الكلمة فى فمى، لو علم ما حدث بينى وبين موظف اعلامى كبير فى دولة عربية، كان الخالق الناطق شبه ممثل كوميدى عربى مشهور، وكانت هذه عقدة حياته، فقد كان منظره يدعو الى الضحك، بينما كان يتصور نفسه نابليون زمانه! وكان يحتقر الصحفيين فى أعماقه، وكان يتصور أن أى صحفى يمكن شراؤه. وتأكد هذا الشعور عنده بعد أن نجح فى شراء عدد كبير منهم فى انحاء العالم العربى، وبعد ان استطاع إصدار عدة صحف فى انحاء العالم بدءا من لندن فى بريطانيا والى ملبورن فى استراليا.

وقد وقع أول اشتباك بينى وبينه عندما أبلغته باحتجاجى على المعاملة السيئة التى لقيها شاعر مصرى كبير. وحاول عند لقائى به أن ينسب الى الشاعر تهمة التجسس والخيانة، ولكنى رفضت هذا المنطق وافترقنا دون أن أقتنع بما قدمه من حجج وأكاذيب.

وكانت المرة الثانية عندما مات عبدالحليم حافظ، وامتنعت أجهزة الاعلام التي كان يقودها عن إذاعة الخبر. وفي أول لقاء معه بعد موت عبدالحليم. قلت للمسئول الاعلامي. لقد أسلمت آذان مواطنيك إلى إذاعات الأعداء لكي تعرف نبأ موت عبدالحليم حافظ. ورد على المسئول الإعلامي باستعلاء شديد، ان عبدالحليم حافظ مطرب الضائعين والمساطيل. ونحن لا نذيع نبأ وفاة شخص مثل هذا، وأبديت دهشتي لهذا المنطق الغريب، فعبدالحليم حافظ هو أكبر مطرب وأشهر مطرب على مستوى العالم العربي، ووفاته خبر يهم الجماهير، خصوصاً أنه مات وهو في قمة الشهرة **والتألق والانتشار، ومهمة** أجهزة الاعلام أن تعلم الجماهير بما يقع في العالم **من أحداث، فإذا لم تقم بهذا** العمل. فقدت اسمها وفقدت وظيفتها أيضا.

ويبدو أن المسئول الاعلامي غضب بشدة فقال دون وعي: أنت أصلك زعلان لأنه مطرب ناصري! وقطعت المناقشة، فلم يكن هناك جدوى من استمرارها.

وحدث ذات مرة أن أرسل أحد رجاله في طلبي، وطلب إليّ الرجل في أدب شديد أن أكف عن كتابة المقالات في احدى المجلات التي كانت تصدر في لندن، وطلب إليّ أن أنشر مقالاتي في احدى المجالات التي كانت تصدر في باريس.

ولما لم يكن هناك سبب يدفعني الى عدم نشر مقالات في مجلة لندن، ونشرها في مجلة باريس. فقد اعتذرت للرجل في عدم استطاعتي تلبية الطلب. ولكن الرجل راح يعدد لي الجرائم التي ارتكبها صاحب مجلة لندن

والفلوس التى سرقها، وكيف أنه لا يعمل بالصحافة فى حقيقة الأمر، ولكنه يشتغل بالسياسة وأشياء أخرى أعف عن ذكرها فى هذا المجال ولكنى تمسكت بموقفى، لأن رئيس التحرير الذى كنت أعمل معه كان صديقا وكان صحفياً ممتازاً. ولم يمنع نشر مقال لى قط، ولم يشطب جملة كتبتها فى مقالى.

وكان ظهور ٢٣ يوليو فى لندن والتى شرفت برئاسة تحريرها هى السبب فى القطيعة بينى وبين هذا المسئول الاعلامى لأننى أصدرت العدد الصفر دون علمه، وفوجىء هو باعلانات عن قرب صدور المجلة فى بعض الصحف العربية، ولما كان المسئول الاعلامى إياه يعتبر نفسه مسئولا عن الاعلام فى أنحاء الكرة الأرضية، فقد اعتبر صدور المجلة دون علمه نوعاً من أنواع التمرد، وينبغى أن القى العقاب المناسب عليه.

ولعل هذا هو السبب فى أن المجلة حوربت بشدة بعد ذلك، ولعل هذا أيضا كان السبب فى عدم صدور أى كتاب للعبد لله من دار نشر من الدور التى كانت تتبعه وما أكثرها. ولعله شىء غريب أن أعيش فى المنفى مائة شهر لم أتمكن فيها من إصدار كتاب واحد، مع أنهم سواء فى بغداد أو فى دمشق أو فى طرابلس الغرب نشروا كتباً كثيرة، حتى للسمكرية. وحتى للكهربائية وحتى لآخرين لم يتعلموا القراءة والكتابة بعد!

وفى مرات كثيرة، تمنيت أن أقول رأيى الصريح للمسئول الاعلامى إياه، ولكنى لم استطع. كان يملك كل شىء، ولم أكن أملك شيئاً، مجرد صحفى وكاتب هارب من بلاده، وحتى بعد أن أطيح بالمسئول الاعلامى إياه، لم استطع أن أقول رأيى فيه، شعرت بأن القضية بينى وبينه قد انتهت وكنت أود

لو استطعت أن أقول رأيى فبه وهو فى موقعه العالى، عندما كان عدوانياً ومتغطرساً ومغروراً الى أقصى حد، ولكن أحمد السعدنى الذى لم يلاحظ إلا ضياع شعرى. ما كان يستطيع أن يدرك مدى ما عاناه عمه فى الغربة، حتى لو شرحت له الأمر.

المهم أن الضابط مكى رحب بى فى مصر، بلدك- على حد قوله- وأبلغنى تحيات اللواء حسن أبوباشا وزير الداخلية وأخذنى فى سيارة مع صلاح وابنه الى خارج المطار، وتولى بعض رجاله مهمة ختم جواز سفرى وسألنى عن متاعى الذى أحمله. فأجبت بأننى حضرت بلا متاع، تحسباً لأية مفاجاة قد تحدث فى مطار القاهرة ولم أصدق نفسى وأنا خارج المطار مع صلاح السعدنى، ولم يكن ينتظرنى خارج المطار إلا الحاج ابراهيم نافع وأولاده وأكرم ابنى.

وقطعت شوارع القاهرة وأنا أتلفت حولى أشاهد التغيرات التى حدثت فى غيابى. وقطعت كوبرى ٦ أكتوبر، وألقيت نظرة على القاهرة من فوق. كم تغيرت القاهرة! وكم تغيرت أنا. هذا الكوبرى بالذات، أنا كنت أول من سار عليه مع المهندس عثمان أحمد عثمان عندما انهت مرحلته الأولى وقبل افتتاحه بعدة سنوات، وهذه هى الجيزة. كل شىء باق على ماهو عليه، حتى زبائن قهوة حسن عوف وزبائن قهوة ابراهيم عبدالله، هم أنفسهم، لم تتغير حتى مواقع جلوسهم. والولد ربعو الجرسون لايزال يحجل كالغراب بعد أن ازداد نحولاً وشحوباً، وهاهو ذا الحاج محمد قطب مأذون الجيزة وسعد قطب شقيقه والحاج حامد الحورانى تاجر السمك. وهاهو ذا سيد البواب، والجمعية

الاستهلاكية والطوابير أمامها ازدادت ، والحفر كما هى ، والأرصفة المتآكلة ازدادت تآكلاً ، والرصيف الذى امام منزلى صار جراجاً للسيارات والمرور متوقف ، والازدحام يخنق الأنفاس ، والنيل العظيم يتهادى معشوشبا نحو الشمال كما كان حاله منذ ألف مليون عام . الشىء الذى لفت نظرى هو ارتفاع مستوى المعيشة بشكل ملحوظ . هاهو الكليفتى صار تاجراً ولديه سيارات!

وتساءلت بينى وبين نفسى ، كيف حدث هذا الارتفاع فى مستوى المعيشة ونحن لا ننتج شيئاً ولا نزرع شيئاً؟ من أين هذا الخير المتدفق على الناس؟ مع أنهم ازدادوا كسلا ، وازدادوا وخماً! وبدا لى أن سؤالى سيظل بلا جواب!

*****

كان لقائى باللواء حسن أبوباشا وزير الداخلية مفيداً للغاية . أدركت منذ اللحظة الأولى أن عهداً جديداً فى مصر قد بدأ ، عهداً لا يرفع الرئيس إلى مرتبة الإله ، ولا يخفض الشعب إلى مرتبة الرعية ، وأدركت أن ديمقراطية السبعينات التى زينوها وزرعوا لها أظافر وأنياباً ، ستصبح حقيقة واقعة ، وسيشارك المواطنون فى صياغة حياتهم ، وفى تقرير مصيرهم ، وأن مصر تشهد عصراً جديداً ، ربما لم يكن لها به عهد من قبل

والحق أقول إن علاقتى بوزارة الداخلية ، كانت صورة من الحياة السياسية المهتزة المضطربة المضحكة المبكية معاً ، وأول مرة دخلت وزارة الداخلية كانت فى عهد سراج الدين أيام كان وزيراً للداخلية ، وكنا فى سنة ١٩٥١ . كانت

معركة قناة السويس التى خاضها جنود الشرطة ضد قوات الاحتلال لاتزال محتدمة، وكان أحد السياسيين - وهو الأستاذ رفيق الطرزى - قد عهد إلىّ بإثنين من الصحفيين الأجانب لاصطحابهما معى إلى السويس لمشاهدة الأحوال هناك، ولرؤية المعركة على الطبيعة. وذهبت إلى وزارة الداخلية للقاء الأستاذ على الزير لكى يقوم بالاتصال بالمسئولين فى السويس حتى يكون ممثلاً الصحافة الأجنبية فى حماية الشرطة، خصوصاً أن الأحوال فى السويس كانت قد اضطربت اضطراباً شديداً، واختلط الحابل بالنابل كما يقولون، ولأن عناصر مشبوهة كثيرة كانت قد اندست فى صفوف المواطنين، وتكررت عدة حوادث اعتدى فيها مجهولون على بعض الأجانب الذين كان يعملون فى بعض الشركات أو فى الميناء باعتبارهم «جواسيس» فقد رأيت أن هذا واجبى - وقد أصبح هذان الصحفيان فى عهدتى - ان احتاط للأمر كى أضمن عودتهما سالمين الى بلادهما، وبالفعل قام الأستاذ على الزير بالاتصال باللواء الصبان - حكمدار السويس فى ذلك الزمان - وسافرت معهما براً ذات يوم من أيام شهر نوفمبر، ولكن ماحدث لنا خلال الرحلة كان أغرب من الخيال!

استوقفنى الجنود الانجليز عند الكيلو ٩٩ وبعد أن تأكدوا من شخصيات ركاب السيارة، سمحوا للسيارة بالمرور، لكنهم ألقوا القبض على العبدلله واصطحبونى إلى المعسكر، ولقد كان منظرى مضحكاً للغاية باعتبارى سبع الليل المكلف باسباغ حمايته على الصحفيين الأجنبيين. ولذلك استغرقت فى ضحك هستيرى وأنا محبوس فى غرفة الشاويش الانجليزى، بينما ضيفاى الأجنبيان يبذلان مساعيهما لدى قائد المعسكر للافراج عنى، لقد كان حالى هذا أشبه بحال مصر فى تلك الأيام، أنا المواطن صاحب الأرض وصاحب

الحق محجوز فى معسكر جيش أجنبى، بينما اثنان أجنبيان أيضاً يتوسطان للافراج عنى من أسر الانجليز!

ورق قلب القائد الانجليزى فأفرج عنى إكراماً لخاطر عيون الأجنبيين اللذين كانا مع العبدلله. ولكن، لأن فترة حبسى امتدت إلى أربع ساعات، فقد وصلنا الى السويس مساء، واكتشفنا أن منافذها قد أغلقت، ومنع الدخول إليها، والسبب أنهم- لظروف الأمن- كانوا قد قرروا إغلاق منافذ السويس من العاشرة مساء حتى السادسة صباحاً. وكان علينا أن نقيم فى الصحراء حتى الصباح.

وكان على العبدلله أن يتصرف حتى لا ينام الصحفيان الأجنبيان فى الصحراء. ولم يكن هناك مسئول إلا شاويش شرطة مصرى عجوز، وبعد التحيات والسلامات وتقديم نفسى إليه باعتبارى مندوب جريدة «صوت الأمة» ومجلة النداء الوفديتين وأننى اصطحب معى صحفيين أجنبيين لمتابعة ظروف المعركة الدائرة فى السويس، وأن الكرم المصرى وطيبة القلب المصرية، كلاهما يفرض على الشاويش الحمش أن يسمح لنا بالدخول. ولكن الشاويش بعد أن استمع عميقاً، راح يتفرس فى وجى الصحفيين، ثم سألنى سؤالاً باغتاً، أمال الانجليز دول معاك ليه؟

ورحت أشرح للشاويش من جديد كيف أننى صحفى ومندوب لصحف الحكومة. وأن الأثنين اللذين معى. هما ضيوف مصر، وأن أحدهما صحفى ايطالى والآخر صحفى فرنساوى، وأن حكمدار المدينة فى انتظارهما وأن الواجب والكرم والشهامة كلها يفرض على حضرة الشاويش أن يسمح لنا

بالدخول إلى المدينة ولكن وبعد أن دقق النظر فى بطاقتى الصحفية، وتفرس فى وجهى الاثنين، قال فى طيبة شديدة. أنت تخش، ولكن الانجليز لا، ومضت ساعتان وأنا أجادل الشاويش العجوز دون جدوى، وفى النهاية سمح لى بالاتصال تليفونياً بسعادة الباشا الحكمدار ليرى ما يراه ولبأمر بما يريد، فهو «صاحب الأمر يابنى وأنا عبدالمأمور»، وحاولت الاتصال باللواء الصبان بدون جدوى، فاتصلت بالصاغ زكى جبران، وكان رئيساً للقسم المخصوص بالسويس، وأشهد أنه كان رجلاً مستنيراً وعلى مستوى المسئولية واستطاع أن يحمى السويس من مذبحة رهيبة كادت تقع فيها لولا حكمة الرجل وصبره.

وضحك زكى جبران وأنا أحكى له ما حدث لى بالتفصيل، ثم قال الرجل ولا يهمك، اديني الشاويش، وناديت الشاويش وسلمته السماعة، ولم يقل الرجل شيئاً إلا تمام يا أفندم، حاضر يا أفندم، تحت أمرك يا أفندم، اللى تشوفه يا أفندم إن شاء الله يا أفندم، ووضع سماعة التليفون، فابتسمت له ابتسامة عبيطة، وقلت له: سلام عليكم بقى، ولكنه لم يرد التحية، لا بمثلها ولا بأحسن منها، ولكنه سألنى: سلام عليكم؟ أنت رايح فين؟ قلت له: هانروح السويس. قال: لا ممنوع، سألته: هو فالك ممنوع؟ فسألنى هو الآخر: هو مين ده اللى قاللى؟ قلت له البيه مدير المباحث. قال وأنا اش عرفنى أن ده مدير المباحث؟ أهو واحد بيتكلم فى التليفون. وساعة أخرى قضيتها أشرح للشاويش الطيب عواقب رفضه لدخولنا، وأن مثل هذا العمل المتشدد، ستكون له آثار سيئة عند معالى وزير الداخلية، ولكن الشاويش الحمش رأسه وألف سيف لابد أن يطبق القانون، ولو تجمدنا نحن الثلاثة فى برد الصحراء!

ولكن الله كتب لنا السلامة فحدثت مفاجأة لم تكن على البال . جاءت سيارة جيب عسكرية يقودها ضابط جيش مصرى . وذهب الشاويش ليتحقق من هوية الراكب والسيارة . وانتهزت الفرصة أنا الآخر ، واتجهت إلى الضابط لأشرح له الأمر .

وكم كانت فرحتى عظيمة عندما اكتشفت أن الضابط الذى فى السيارة هو الكاتب الفنان الصديق عبدالمنعم السباعى . وقال عبدالمنعم السباعى دهشاً : إنت بتعمل إيه هنا؟ قلت له : ركبنا الأول وبعدين أقولك . فسألنى انتم رايحين السويس؟ قلت : أبوه ، قال : اركبوا ، وقفزنا نحن الثلاثة فى السياره ، ومرقت بنا نحو البوابة .

ولم يفعل الشاويش شيئاً سوى أن رفع يده وضرب لنا تعظيم سلام! ولم أدخل وزارة الداخلية مرة أخرى ، إلا فى سنة ١٩٥٥ ، وباستدعاء من الصاغ صلاح الدسوقى الذى حذرنى من نشر الشائعات حول السيد زكريا محيى الدين وزير الداخلية وقال : سنضرب صفحاً عما حدث هذه المرة ولكن فى المرة القادمة لن يمر الموضوع بسلام ، والمرة الثالثة ، كانت عندما أفرجوا عنى فى سجن الواحات الخارجة فى سنة ١٩٦٠ ، ودخلت الوزارة ويدى اليمنى مكبلة بالحديد ، بينما الفردة الأخرى من الكلبش تكبل اليد اليسرى لأحد رجال الشرطة ، وفوجئت باللواء حسن المصيلحى حين دخولنا مكتبه يقف وقفة احترام ، ويمد يده مرحباً وهو يقول : أهلاً بالسعدنى بيه ، وقلت له : يا سعادة اللواء ، أولاً أنا لابيه ولا تيه ، وثانياً أنا لا استطيع أن أصافح سعادتك فيدى مكبلة بالحديد .

وللحق أقول أن اللواء حسن مصيلحى كان ودوداً ورقيقاً للغاية فى تلك المقابلة ، وأصر على أن يشترى لى دواء من الصيدلية ، فقد كنت مصاباً بنزلة برد شديدة ، اصابتنى خلال رحلتى من الواحات إلى القاهرة فى قطار بائيس بلا نوافذ ولا أبواب . ولم أدخل وزارة الداخلية محترماً إلا فى عهد شعراوى جمعة وهو وزير داخلية ليس له نظير بين وزراء الداخلية الذين تولوا أمرها فى مصر .

فقد كان رجل سياسة من الدرجة الأولى ، وبعد ذلك كان رجل أمن ، ولا يقترب من شعراوى جمعة إلا حسن ابوباشا الذى كانت له نفس الصفات ونفس المزايا ، ولكن هذا الاحترام الذى حظيت به وزارة الداخلية لم يدم طويلاً ، ففى ١١ مايو ١٩٧١ ، خرج معى وزير الداخلية ليودعنى حتى الباب ، وفى ١٣ من الشهر نفسه- أى بعد يومين اثنين فقط- دخلت وزارة الداخلية مخفوراً باثنين من رجال الحرس ، وعند باب السرداب الذى يقع أسفل الوزارة ، دفعنى أحدهم بقبضة يده ولم استطع أن أحفظ توازنى ، فسقطت على أرض السرداب ، وآلمتنى الضربة بشدة وعانيت منها بعد ذلك عدة أيام .

والمرة الثانية كانت عند خروجى من سجن القناطر بعد انقضاء مدة العقوبة ، احتجزونى لمدة ٢٤ ساعة فى مكتب أحد الضباط حتى صدر قرار الافراج عنى ، وأعتقد أنه كانت لديهم النية لاعتقال العبدلله لولا أن الظروف لم تكن تسمح ، ولم تسنح الفرصة للعبدلله بدخول وزارة الداخلية بعد ذلك إلا لمقابلة حسن أبوباشا وكان يحضر لقاءاتنا اللواء فؤاد علام واللواء محمد ثعلب والحق أقول أننى سعدت بلقاء الرجال الثلاثة وشرفت أيضاً ، وفى آخر لقاء قال لى

اللواء حسن أبوباشا وأنا أصافحه مودعاً بمناسبة سفرى الى الخارج لا تسافر غداً، وأجل سفرك ثلاثة أيام، وسألته مازحاً: ليه؟ خير إن شاء الله؟ فأجابنى: ستقابل الرئيس حسنى مبارك بعد غد.

لقائى بالرئيس حسنى مبارك آية تثبت وجود الله سبحانه. ففى الوقت الذى كنت فيه اجتاز بوابة مقر رئيس الجمهورية كان قد مضى اثنا عشر عام ونصف العام على سجنى.. وكم تعرضت خلال المحاكمة والسجن إلى شائعات نشروها وأذاعوها ضدى وكان قد مضى أكثر من مائة شهر وأنا طريد بلادى، اتنقل كالوحش المفترس من مكان إلى مكان، لأننى كنت محل غضب السلطان. فقد تعرضت أسرتى أيضاً لشتى أنواع الأكاذيب والشائعات، وكلما اشتدت أزمة النظام اشتدت الحملة ضد العبد لله حتى بلغت ذروتها بعد حملة سبتمبر الشهيرة التى زج فيها النظام بكل رجالات مصر وقادتها إلى السجن، تلك الحملة الشهيرة التى وصفها بعضهم بثورة سبتمبر ووصفها الآخرون بأنها انجاز تاريخى، ربما أكثر خلوداً وأشد روعة من حرب أكتوبر نفسها!!

ولم يخجل وزير داخلية النظام فى ذلك الوقت من وصف المعارضين الذين فروا من سجنه إلى الخارج بأنهم شواذ ومدمنو مخدرات ومساطيل فقدوا الوعى، بالاضافة إلى كونهم خونة وعملاء ومرتزقة باعوا شرفهم مقابل الدينار والدولار!

وهآنذا بعد حوالى سنتين فقط من الخطاب التاريخى لوزير الداخلية فى البرلمان، هآنذا اجتاز بوابة مقر رئيس الجمهورية. وهتفت يا سبحان الله، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويعطى لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، بيده الملك،

وهو على كل شىء قدير، ولقد استقبلنى داخل بيت رئيس الجمهورية اللواء طيار عبدالوهاب زكى، وهو برغم شبابه فقد نصف شعره، كما أن العمل الشاق الذى ينولاه كان واضحاً تماماً على ملامح وجهه.

واستقبلنى الرجل بترحاب شديد، واعتذر لى الرجل بأن بيت رئس الجمهورية فى حالة اعداد، وأدخلنى حجرة، واعتذر لى لأن الرئيس مبارك موجود الآن فى مقابلة مع أحد الزوار، وأننى سأقابل الرئيس فور انتهاء الزيارة، ولبثت داخل الحجرة نحو عشرين دقيقة أتأمل الأثاث الموجود، وهو أساس بسيط للغاية ورحت أفكر فى ملكوت الله، ما أغرب الحياة! أين ذهب السلاطين العظام والملوك الطغاة؟ هؤلاء الذين عاشوا يتقلبون فى النعيم ويرفلون فى الحرير، ويأكلون فى صحاف الذهب. كم تغيرت الحياة! وكم نغيرت الظروف! وهآنذا أخيراً فى بيت السلطان لا حرير هناك ولا ذهب. إنما حياة عادية وشاقة ومرهقةويا سبحان الله. لو أننى خطر فى مخى أننى سأكون داخل هذا البيت منذ عامين اثنين فقط، لقلت أننى أحلم. ولكن هاهو الحلم أصبح حقيقة، هآنذا الآن فى بيت رئيس الجمهورية، ودخل اللواء عبدالوهاب زكى الحجرة وقال: اتفضل. وسرت من خلفه خارج الحجرة، وتصورت أننى فى طريقى إلى مكتب الرئيس، وكم كانت دهشتى كبيرة حين فوجئت بالرئيس أمامى فى حديقة البيت صافحته بحرارة شديدة، كان صورة طبق الأصل من الصور التى تنشر له فى الجرائد. كان يمتلىء شباباً ويفيض بالحيوية، وكان فى الخامسة والخمسين لحظة وقع بصرى عليه، ولكن شعر رأسه كان أسود فاحم السواد، وكان يؤكد بخطوته ونظرته وبنيانه الجسمانى أنه من الرجال الذين اعتادوا حياة المعسكرات وعاشوا فيها وقتاً طويلاً.

وأخذنى الرئيس من يدى وسار فى الحديقة، ثم توقف لحظة امام نافورة فقيرة المنظر، وأشار نحوها وقال بلهجة ساخرة: أهى دى النافورة اللى أنت هاجمتنى عليها. ونفيت ذلك بشدة للرئيس لم أكن هاجمته قط من أجل نافورة، ربما هاجمناه على صفحات «٢٣ يوليو» فى سياق الهجوم العام الذى كنا نشنه على نظام السادات، ولكنى لا أذكر أن هذه النافورة ورد ذكرها على صفحات «٢٣ يوليو». وقال الرئيس وهو يرفع مقعداً من مقاعد الحديقة الضخمة: هات لك كرسى أنت راخر وتعالى ورايا. وهممت برفع الكرسى، ولكنى تبينت أنه من النوع الثقيل وهرع أحد رجال الحرس ليحمل الكرسى عنى، ولكنى رفضت، وصممت على حمل الكرسى بنفسى مادام الرئيس قد حمل كرسيه بنفسه، لكن هذا العناد كلفنى أسبوعاً فى الفراش. لقد إلتوت فقرات ظهرى تحت عبء الكرسى الثقيل.

استمر اللقاء بينى وبين رئيس الجمهورية الرئيس محمد حسنى مبارك نحو الساعة ولأننى لم استأذنه فى النشر، فلم أذكر شيئاً مما دار بينى وبين الرئيس، ولكن لا بأس من وصف الجو الذى أحاط بالمقابلة. كان جواً ودوداً، وكا لقاء بين مصرى وطنى يعمل رئيساً للجمهورية ومصرى وطنى يعمل بالصحافة. لقد أتيح للعبد لله أن ألتقى وأشاهد عن قرب الحكام الذين حكموا مصر الأعوام الخمسة والثلاثين الأخيرة. أشهد بأن حسنى مبارك هو الوحيد الذى ترك فى نفسى انطباعاً بأن الرجل الذى أمامى متواضع فى غير اصطناع وبسيط فى غير تكلف، وأنه يؤمن بالرأى والرأى المخالف.

*****

وفى نهاية المقابلة ، قلت للرئيس مازحاً : عاوز أقول لسيادتك سر يا ريس . وسألنى الرئيس باهتمام : ايه يا محمود؟ أجبت : تعرف يا ريس أول ماسيادتك تسلمت الحكم أنا شعرت بأسى حقيقى . وسألنى بدهشة : شعرت بأسى يا محمود؟ قلت : أيوه يا سيادة الريس، والسبب أنك أول رئيس يحكم مصر ، ويكون أصغر منى سناً ، فمع الآخرين الذين سبقوك ، كنت مطمئناً إلى أننى سأذهب خلفهم الى المقابر ، أما أنت فسيكون الحال معك مختلفاً ، وبالتأكيد سيذهب مندوبك خلف جنازتى إلى الدار الآخرة .

وبدت الدهشة على وجه الرئيس وقال : أنت أكبر منى؟ قلت : نعم يا سيادة الرئيس وفى العمر فقط ، فسيادتك من مواليد ١٩٢٨ وأنا من مواليد ١٩٢٧ . فضحك الرئيس ضحكة عالية وقال : على كده بقى الواحد لازم يحترمك علشان سنك .

وعندما وقفنا وصافحته مودعاً سألنى الرئيس : موش عاوز حاجة يا محمود؟ أجبته : أيوه يا افندم ، عاوز من سيادتك خدمة . وقال الرئيس باهتمام : عاوز إيه؟ قلت : عاوز أولادى ينتقلوا من جامعة بغداد إالى جامعة القاهرة . قال مافيش مانع . وقال الرئيس للواء عبدالوهاب زكى الذى كان يقف على مقربة منا : كلم الدكتور حسن حمدى خليه يقبل أولاد السعدنى فى جامعة القاهرة ، وقال لى الرئيس اتصل بجمال كلما كانت هناك ضرورة للاتصال بنا . وتمنيت التوفيق للرئيس وصافحته وعانقته بحرارة . وغادرت مقر رئيس الجمهورية ، وأنا فى حالة من السعادة ، ربما لم أشعر بمثلها من قبل .

لقد شعرت بأن هذا اللقاء كان تتويجاً لرحلة العذاب والآلام التى استمرت مائة شهر طويلة خارج الحدود ، واعتبرتها نهاية لسلسلة المظالم التى حطت

على رأس العبد لله من جانب مصر الرسمية، واعتبرتها أيضا بداية لعصر جديد فى مصر يصبح فيه الحاكم والمعارض وجهين لعملة واحدة لمصلحة مصر، ومن أجل مصر، ولم أغضب بعد ذلك عندما فشلت فى إلحاق ابنائى بجامعة القاهرة، ولم أغضب أيضاً عندما منعوا نشر مقالاتى على صفحات مجلة صباح الخير وروزاليوسف، ولم أغضب أيضا للعقبات الصغيرة التى صادفتنى هنا وهناك. فقد كنت أعلم بالتجربة أن طريق العودة ليس مفروشاً بالورود، ولكن الذى كان يحز فى نفسى أحياناً، أننى كنت أعامل من بعض الجهات على أساس الدور الذى لعبته أيام السادات!! وليس على موقفى أيام حسنى مبارك، وكان عزائى الوحيد أنه فى يوم وفى شهر وفى سنة وفى سنتين، سيظهر رجال حسنى مبارك، وسيختفى رجال السادات.

فهذا حكم الطبيعة والأقدار، فلا أحد يستطيع أن يحكم من القبر والحيا دائما أقوى من الموت، والدنيا تسير دائماً إلى الأمام، ولا يمكن للحياة أن تتراجع خطوة واحدة إلى الخلف، ولذلك أيضاً قررت أن أخوض المعركة الانتخابية الى جانب حسنى مبارك.. بالرغم من عدم إيمانى بالحزب الوطنى، ولقد أحدث هذا الموقف من جانبى متاعب كثيرة للعبدلله. فقد تصور بعض الأصدقاء أننى تراجعت عن مواقفى السابقة، ولكن ماحدث بعد المعركة الانتخابية التى انتهت بفوز ساحق لحزب مبارك، أصاب العبدلله بخيبة أمل شديدة. فقد كانت كل التصريحات للمسئولين، وكل المؤشرات تؤكد على أن مجموعة ١٥ مايو سيرفع عنها العزل السياسى بعد المعركة الانتخابية. ولكن الذى حدث للأسف الشديد أن الموقف ظل بالنسبة لهذه المجموعة كما

هو بلا أدنى تغيير . ومازال العبدلله حتى هذه اللحظة محروماً من حقوقه السياسية ، معزولاً بقرار من سلطة غاشمة تصورت فى لحظة أنها أصبحت ظل الله فى الأرض ، وأن مصائر العباد والبلاد بيدها وتحركها وتقيدها بالشكل الذى ترغبه ، وفى الوقت الذى تحدده!

ولكن ومع التجاوز عن الموقف الشخصى ، فمازلت مؤمناً بأن عصر حسنى مبارك . هو عصر الأمن والأمان بالفعل . اننى لم استمتع بالنوم ليلاً إلا فى ظله وفى عصره ، إنه أشاع جواً من الحرية والطمأنينة لم يكن لنا بهما سابق عهد . وأنه إذا كان عصر عبدالناصر هو عصر المعارك ، وعصر السادات هو عصر الهبر ، فإن عصر حسنى مبارك هو عصر الديمقراطية والحرية للجميع ، والسلطة للأغلبية ، والحكم للقاضى ، وسيادة القانون فوق سيادة الرئيس .

وكل الأنهار في البحار

والآن . .

وبعد مائة شهر في المنفى وبلاد تشبل وبلاد تحط . ماذا كسب الانسان من تعبه وكده في الارض؟ واذا كانت كل الانهار تصب في البحر والبحر ليس بملآن، فلا الانهار توقفت . ولا البحر فاض، فهي دورة حياة متكاملة . وما الانسان الا مجرد صامولة في جهاز كامل جبار! ولكن المكسب الوحيد هو الخبرة . وان كانت خبرة في غير اوانها وبلا عائد على الاطلاق : لأن الخبرة مفيدة اذا كانت في بداية العمر . اما والعمر قد ولى . والزمن راح، فما فائدة الخبرة لرجل على المعاش؟ وما حدواها والزمن تجاوز الساعة الرابعة والعشرين ولكنها تصبح مفيدة اذا نقلناها للاجيال القادمة . وان كنت اشك في أن احدا يستفيد بتجارب الاخرين

فالزعيم محمد فريد اثبت لنا في مذكراته ان الهجرة ضارة . وان العمل السياسي غير فعال خارج الحدود . ومع ذلك قرأنا ما كتبه محمد فريد ولم نصدقه، أو قرأناه في ساعات المساء . ونحن «ننسلطح» على الفراش! وربما

اقنعنا انفسنا بأن الزمن تغير والظروف غير الظروف! وبالرغم من ذلك فأنا حريص على أن أقول لمن يقرأ هذا الكلام بالصدفة او عن عمد. أننى لم اتعلم شيئا الا فى المنفى. وان المائة شهر التى قضيتها هناك كانت اكثر فائدة واعرض من الخمسين سنة التى سبقتها، والتى عندما خرجت من مصر كنت مجرد ابله اصدق ما يقال فى الاذاعة، وكنت مؤمنا بما تردده الاغانى. كنت مؤمنا بأننا امة واحدة وإذا بى اكتشفت أننا ام شتى، تصورت ان هناك نظما تقدمية واخرى رجعية فإذا بالحقيقة المرة تصدمنى. وهى ان التصنيف حبر على الورق فقط. وان الجميع سواء. مع فارق بسيط، هو ان بعض النظم تلتزم الصمت وبعضها يجعجع بالكلام. ويعيش فى شعارات ويستهلك اغانى ويمضغ عبارات. وان الانسان العربى مسحوق فى ظل الجميع، ولكنه اكثر انسحاقا فى ظلم النظم التقدمية!! وان هذه النظم متقدمة فعلا ولكن فى اساليب القمع والقهر ومسح شخصية المواطن الممسوحة اصلا ومن قديم الزمان.

وادركت فى المنفى انه كلما علا صوت النظام قل فعله. وكلما كثرت الاناشيد كثرت الهزائم. وانه بقدر ما يرتفع الزعيم فى العلالى، اندفن الشعب فى التراب!!

واكتشفت ايضا اننا انهزمنا فى داخلنا قبل ان تهزمنا اسرائيل فى ساحات المعارك. والذى قتلنى رعبا ان الحملة على مصر لحظة ذهاب السادات الى القدس. لم يكن هدفها اصلاح الاخ الاكبروعودته الى الطريق القويم. ولكنها كانت تستهدف قتل الاخ الاكبر والاستيلاء على مكانه ومكانته ولقد بدا هذا واضحا عند تقسيم التركة. ونقل مؤسسات الجامعة العربية من القاهرة الى غيرها من العواصم والبلاد!

ان بعض المصريين للاسف الشديد نالوا الحظوة لدى بعض النظم التقدمية لأنهم لم يهاجموا نظام السادات، ولكنهم هاجموا مصر نفسها وهاجموا دورها، . وأشاروا بأصابعهم صراحة الى البديل .

ومن غبائى اننى تصورت ان السياسة قصائد وخطب ومقالات، ثم اكتشفت انها مصالح ومكاسب وفلوس، ومن خيبتى اننى قضيت فترة المنفى اعيش من اجرى عن مقالاتى فى الصحف، بينما اختصر البعض الرحلة وعاشوا كمهراجات الهنود!

واعجب ما سمعته وانا خارج مصر ان كل شىء فى مصر فسد حتى الأرض . وان خلاص مصر يتم عن طريق شتل فسيلة قوية نبتت بعناية فى ارض خارج مصر . وان على مصر ان تتخلى عن دورها كقيادة لتنتظم فى الصف خلف قطر اخر اكثر قدرة على النضال من أجل العبور . . والحبور!

ورأيت فى المنفى من غيَّرَ جلده اكثر من مرة . ومن انتقل من خندق نظام الى خندق نظام آخر حسب الاجر المدفوع! ورأيت فى الخارج ماركسيا يشرف على مركز دينى، ورجل دين يعمل لحساب نظام يدعى الماركسية! ورأيت جرائد للأيجار، وكُتَّاباً للبيع وموظفين فى احزاب ثورية ونظم تقدمية يعيشون فى مستوى خلفاء بنى امية!

وخرجت من التجربة بأننى اعيش فى اكذوبة ضخمة . ، وأننا عالم من ورق وان امورنا السياسية ليست اكثر من حفلة تنكرية هدفها الوحيد قضاء العمر كله دون أن ننتبه او نفيق، ولكن الحق اقول ان هذه الحالة لم تصب جسم

الامة ، ولكنها فى الشرائح العليا ، وشرائح المشتغلين بالسياسة وبالثقافة ، جماعة النصابين الذين احترفوا الكلام وبرعوا فيه! اما الشعب العادى ، المنصوب عليه فلا يزال سليما ، لم تصل اليه الغرغرنية بعد. الشعب كله ، سواء فى سوق الشيوخ بالعراق ، او مصراته فى ليبيا ، او كلباء فى الامارات ، او ام الجماجم فى السعودية ، او المرقاب فى الكويت ، أو خنبفرة فى المغرب ، أو ابو طشت فى الصعيد. وان الشعب المغلوب على امره فى كل مكان يعيش فى خدعة كبيرة. والسيرك السياسى المنصوب هدفه الوحيد تسليته وعدم اعطائه فرصة للتدبير أو التفكير! يالها من فترة سوداء حقيرة اتمنى الا يقع فيها مواطن غبى وشريف فى نفس الوقت.

اما اذا كان المثقف او السياسى مستعدا للبيع والشراء فما اوسع الابواب التى ستنفتح امامه ، وما اطول دفتر الشيكات الذى سيحصل عليه!

اعرف «مكافحا» اشترى شقة فى لندن بنصف مليون دولار ، والتحف التى فى داخلها تساوى عدة ملايين! واعرف مكافحا. آخر يدير عدة مطاعم وملاه فى اوروبا وفى بلاد عربية ثورية تقدمه من النوع الثقيل! وعشرات وعشرات من المكافحين اياهم سبحوا مع التيار واسسوا شركات للميكانيكا والكهرباء!

ولكن هناك آخرين - فى المقابل - يعيشون حتى الآن مع الصراصير ، ويناموان احيانا بلا عشاء.

هناك فتحى خليل الصحفى الذى مات حزنا وغما. وهناك جورج البهجورى الذى يعيش فى مستوى اقل من مستواه الذى كان يعيش عليه فى

مصر، وهناك صبحى شفيق، واديب ديمترى، وامين الغفارى، وعاش محمود العالم فى المنفى اسوأ حالا مما كان فى مصر، كذلك الحال مع حسن معاذ رمبح. وعاش احمد بهاء الدين فى منفاه الاختيارى كصحفى محترف وليس كسياسى على الاطلاق، وعاش الفريد فرج الكاتب المسرحى ملطشة للكل، وتقدم الذين لا يحسنون شيئا الا البغبغة والكلام. وعاش نبيل بدران كاتب المسرح مشردا فى المنفى الى ان ذهب الى الكويت، وعاش هناك من وظيفته فى المسرح، وعاش على الشوباشى كصحفى فى وكالة الانباء الفرنسية ولم يشترك فى كفاح الارزقية ولم يمد يده مرة واحدة الى اولاد الايه! وهناك اخرون ربما سيتهم الذاكرة، او سقطوا من سن القلم، ولكن الشرفاء كثيرون والحمد لله.

وهناك ارزقية عرب وشرفاء عرب ولكن وجيعتى هى مصر والمصريون. واذا كنت قد خرجت من مصر وانا مؤمن بالقومية فى يوم من الايام. وعدت بيقينى ان الحرب العربية - العربية اشر ضراوة من الحرب العربية - الاسرائيلية. واننا نعيش عصر «داحس والغبراء» وان كان الذى نعيش فيه اخطر، لانه حرب دواحس وغبراوات!

التقيت فى العراق برجل يدعى «الدهش» . . لطع مثقفا مصريا على الباب ساعة، ثم اجلسه امامه ساعة اخرى يعلمه فيها تاريخ العرب كما تعلمه فى «الدكان» الذى ينتسب اليه.

وقابلت فى ليبيا واحدا بشنب، اسمه شلقم او شلغم وكان رئيسا لتحرير «الفجر الجديد» او «الفقر الجديد» كما اطلقت عليها، وهو اقل كثيرا من

مستوى طالب فى قسم الصحافة، جلس معى عدة ساعات ليشرح لى اسرار الصحافة الجديدة، حسب نصوص النظرية الثالثة. وحمدت الله لاننى لم افهم حرفا مما قال!

واجتمعت فى دمشق بزعيم ثورى ونورى معا، راح يشرح لى الخطوات اللازم اتخاذها لانبثاق عالم عربى موحد، منغلق على البنية الاساسية، منفتح على العالم الواسع، ملتف فى دولة «طوق» مستعد للانطلاق فى الوقت المناسب للتحرير.. وللتعمير!!

وجلست فى الجزائر مع صحفى كان يشغل منصبا رسميا فى اعلى اجهزة الامن، راح يحلم امامى بعالم عربى واحد، يقوده سيادته مع اخرين، ولكنى لم افهم شيئا، لانه كان يتحدث بلغة فرنسية تتخللها بعض كلمات بنى قحطان!!

وادركت انه ويل للاسير اذا وقع فى قبضة آسريه، وويل لمن يهجر ارضه ليلعب سياسة فى ارض الاخرين!!

ولقد بكيت كثيرا من سلوك شيء اسمه هبار وحاجة اسمها باصى، وقد تصور هذان شيئان انهما «نبوخذ نصر» قام من جديد لتحرير القدس. كان هبار اجهل من دابة. اخرق من وحيد القرن. وكان يتوهم انه من علماء الارض. وان العناية الالهية ارسلته لهداية الضالين، وليملأ الارض عدلا بعد ان امتلأت بالشرور! وكان مرتشيا، يقبل اى شيء من الملابس الى زجاجات الويسكى، الى عزومة على وجبة طعام، وكان مسئولا يوما ما عن اصلاح مسيرة مصر وردها الى الخط العربى، وقد سار على الخط الصحيح، فأشتغل

سكرتيرا للزعيم الكهربائى ، ومديرا لاعماله ونجح فى حشو دولاب ملابسه بالجديد من محلات لندن وباريس!

اما الشيء الذى اسمه باصى فلم يكن جاهلا ، ولم يكن متعلما ، ولم يكن ثريا ، ولم يكن فقيرا ، ولم يكن مقتدرا ، ولم يكن مسحوقا ، ولم يكن اى شيء على الاطلاق. ومع ذلك كان ينظم وينظر ويعقد الحلقات ويأمر ويشخط فى الاسرى الذين اوقعهم غدر الزمان بين يديه .

وكان عبدالغنى قمر وهو على فراش الموت يصرخ من شدة الالم ، آه ياباصى!! وكان فتحى خليل يردد . . اموت وفى نفسى شيء من باصى! واغرب شيء ان هذا الباصى كان مسئولا عن الاذاعة الموجهة الى شعب مصر ، تدعوه صباح مساء الى النهوض من عثرته ، واستئناف المسيرة القومية التقدمية المهلبية يا!!

ويدعونى الانصاف الان الى القول بأنه حتى فى المستويات الاعلى داخل النظم اياها يوجد رجال على خلق ، وعرب حقيقيون ، وزعماء شعبيون مخلصون باستطاعتهم تحقيق المستحيل لو توافرت الظروف الحسنة والجو المناسب .

لقد كان مصطفى الخروبى عضو مجلس قيادة الثورة الليبية واحدا من هولاء ، فهو عربى بحق وثائر بلا انفعال ، ومخلص الى حد الاستشهاد ، وكان هناك فى طرابلس ايضا محمد تبو وزير الزراعة الذى اقيل فى ظروف مريبة ، وهناك ابراهيم ابجاد ، وهو عربى بالفطرة ولكنه مغلوب على امره ويسبح

الآن مع التيار! وهناك ابراهيم البشارى وهو شاب شديد الايمان بالعروبة شديد الحب لمصر، ولكنه من الجيل الذى خدعته الشعارات. . وخطفت بصره انوار اللافتات!

وفى بغداد كان هناك الثائر العربى الحقيقى نعيم حداد. ولقد كان نعيم بمثابة واحة من العروبة والتواضع وكان كالمرهم يداوى الجروح والاوجاع. وكان هناك منيف الرزاز نائب رئيس القيادة القومية. وهو طبيب تعرفت اليه عندما كان يدرس ويعيش فى القاهرة. وهو فى الاصل من عمان فى الاردن، ولكنه - باعتباره بعثيا - تولى المسئولية فى دمشق مرة، وفى بغداد مرة، وكان رجلا مثقفا وواسع الافق وبعيد النظرة، وفاهما لمشكلات المرحلة وحجم المعوقات، وكان يضع يده احيانا على سر المشكلة، واحيانا كان يضطر الى ان يبدو كالاخرين!

وكان هناك المقدم ارشد كبير حرس الرئيس صدام، ولقد تدخل ارشد كثيرا من اجل حماية العبدلله من كيد صغار الموظفين الذين انطلقوا وراء اللاجئين فى بغداد كالكلاب المسعورة! كما انه كان عونا للكثيرين خلال المحن والازمات.

ولأن رحلة الضياع والصياعة لم تكن كلها شرا. ولكن كان فيها جانب مضىء، وهو اننى تعرفت الى شخصيات عربية كنت افقد كثيرا لو لم اصادفها خلال رحلة الحياة، الشيخ صباح نائب رئيس الوزراء الكويتى، وهو رجل ذكى ومستنير ولو اننى اصغيت الى نصائحه لكان حالى الان افضل مما هو عليه. واحمد خليفة السويدى العربى الشهم الاصيل، ولو كان فى الوطن

العربى الف «كادر» مثل احمد السويدى . اذن لفتحنا اوروبا كما حدث فى ايام موسى بن نصير! وهناك على الشرفا الطيب القلب الطيب النوايا، والشيخ عيسى الكوارى رجل الدولة البسيط الذكى، والدكتور محمد عبده يمانى المثقف والشيخ شمس الدين الفاسى الانسان، الذى لم يتنكر لأصدقاء الصياعة والضياع، والوزير اديب النحوى الذى لم يتنكر للعيش والملح الذى اكلناه معا فى قهاوى القاهرة ومطاعم الرصيف . والعم الكبير امين الحافظ الذى كان بمثابة القلعة التى احتمى فبها عندما يشتد الحصار على العبدلله، البطل الشجاع الذى اتخنته سيوف العرب، ولم تنل منه سيوف الاعداء .

واذا كان هؤلاء فى القمة، ففى القاعدة كسبت مئات والوفا من الناس الطيبين، هؤلاء هم الذين اكدوا ايمانى بالشعب العربى . . وحالوا بينى وبين اعلان كفرى بامة بنى شبان!! مئات والوف من الشعراء والادباء والصحفيين والكتاب والخبراء والمهندسين والحرفيين وارباب الصنائع والصباع . وكلهم - فى كل ارض عربية - لو وجدوا فرصة لصنعوا المعجزات . ولكن الزمن الردىء كتم انفاسهم وقطع السنتهم وازهق ارواحهم فأصبح اغلبهم جثثا تمشى على الاقدام .

وهؤلاء المسحوقون اكدوا عندى الاحساس باننا لن نهزم اسرائيل الا اذا هزمنا الهزيمة التى فى انفسنا . وان امتنا العربية فى حاجة إلى الف شاعر كالمتنبى ليبصق علينا، والف زجال كبيرم التونسى ليفضح عيوبنا امام العالمين!

والآن . . وقد انتهت الرحلة، وانتهى الدرس بالنسبة للغبى الذى هو العبدلله، ارجو من الله الا تتكرر هذه المحنة، والا يقع فيها انسان خصوصا اذا

كان من صنف الشرفاء، وادعو الجميع- والشباب خصوصا- الى التعامل مع الواقع وليس الى التعامل مع القصائد والاشعار. فنحن امة ممزقة، ودويلات صغيرة، وكل دويلة لها مصالح واهداف، مهما حاول البعض اخفاء هذه الحقيقة بالكذب او بالشعارات. وكل عربى هو مواطن درجة ثالثة فى مسقط رأسه، ولكنه يصبح مواطنا من الدرجة العاشرة اذا لجأ الى اقطار الاخرين! وكل جماعة سياسية فى الوطن العربى الكبير تتصور ان الحل لديها، والشفاء على يديها وخطها هو الخط الصحيح والمستقيم!

ولكن هذه مجرد تصورات واحلام واوهام لا يصدقها الا السذج، اما اصحابها إنفسهم فهم يختفون خلفها من اجل الهبر والعبث اللذيذ!! انها محنة ايها الخلان، ولكن لانها محنة شديدة، فهى تبشر بالانفراج، ولكن حتى يأذن الله بهذا الانفراج، لابد ان نتعامل مع ما هو كائن وليس مع ما ينبغى ان يكون. وعلينا ان نسقط هؤلاء الذين يرفعون شعار الوحدة ليمارسوا أبشع انواع التعذيب التى عرفها تاريخ البشر.

فالوحدة: لن تقوم الا باختيار الناس، والنهوض لن يجدى الا بارادتهم اما حكم الاجهزة ورجال المكاتب ورجال العصابات فلن ينتج الا كوارث ومصائب، ويصبح الاحتلال الاجنبى عندئذ اهون بكثير!

واعذرنى ايها القارىء إذا كنت قد تفلسفت أو حاولت أن أبدو على هيئة المثقفين.. فما انا الا واحد من عباد الله المسحوقين. اوقعنى سوء الحظ فى محنة ليس لها نظير. انا الذى جربت الصياعة والضياع ومحنة السجنين الحربى والمدنى والنفى فى اعماق الصحراء. كل ذلك يهون امام تجربة المنفى واللجوء عند اولاد العم والاخوة الاشقاء!

ولكن لأنه رب ضارة نافعة، فالحمد لله الذى لم يشأ أن يذهب بى إلى قبرى وأنا مغمض العينين أهبل العقل والفؤاد، الحمدلله الذى هدانى إلى اكتشاف الحقيقة قبل أن ينطوى العمر ونذهب جميعاً إلى لقاء الرحمن. وإذا كان هذا الكلام سيغضب كثيرين، فلاشك أنه سيسعد كثيرين.

ولعل الشاعر الكبير نزار قبانى يذكر لقاء بينى وبينه فى مدينة «أبوظبى» ولعله تذكر نصيحته للعبدلله، اذهب بعيداً عن الأرض العربية إذا كنت تريد أن تكون نفسك لا بوقا للآخرين! ربما لا أفهم معناها فى تلك الأيام، ربما دفعنى غرورى إلى عدم الفهم. ولكن آه، كم تذكرت عمنا نزار قبانى كلما انهالت الشباشب على أم رأسى، وكلما نزلت البصقات على عقلى! نعم، هذه نصيحتى لك وللآخرين، وهى نفسها نصيحة عم نزار قبانى الكبير. إذا حكمت عليك الظروف- أيها الفنان أو المثقف أو السياسى- أن تغادر بلدك، فاذهب بعيداً عن الأرض العربية قدر ما تستطيع، أما إذا كنت من هواة انشاء شركات الكهرباء، أو تأسيس مطابع ودور نشر، أو فتح فروع لميكانيكا العرب فى مصر وفى غيرها من البلدان، وإذا كنت من أنصار العمل فى الانتاج التليفزيونى، وانشاء استديوهات للتسجيل والتحليل، فاذهب إلى أى مكان تشاء، ولا بأس لأن تقول لمن يسألك.. من أين لك هذا؟.. أنه حصيلة مدخراتك فى البلد الذى كنت تقيم فيه.

أما عن تجربتى فلم يكن لدى مدخرات، ولم يكن مرتبى يسمح بأى مدخرات. كنت أتقاضى فى بغداد مائتى دينار عراقى، وكان مرتبى عند أحمد الجارالله الذى انقطع لظروف خارجة عن إرادتى وإرادة أحمد الجارالله منذ

١٩٧٦ وإلى ١٩٨٠ . أقول . . كان- مرتب السياسة الكويتية هو الذى يساعدنى على الحياة وفى الحياة . والنقود التى خرجت بها من بغداد هى نتيجة بيع أثاث بيتى وسيارة هالة ابنتى ، وكان صدام كريماً فسمح بتحويلها بالدولار ، رغم متاعب الحرب وظروف العراق . . ولولا ذلك لخرجت مديناً من العراق . . ولذلك اتساءل أحياناً كيف تمكنوا من إدخار كل هذه المبالغ التى أسسوا بها مطابع فى لندن واستوديوهات فى روما ومصالح هنا وهناك؟ ! !

عفواً إذا كنت قد صدعت رءوسكم بهذا اللغو الفارغ من الكلام . . ولكن يشفع لى أن كل حرف كتبته فى هذا الكتاب هو الصدق بعينه . لم أزوق شيئاً ولم أزيف أى شىء . . ربما أخفيت أشياء ، ولم يحن الوقت للكشف عنها بعد . . وتعمدت ألا أنشر كل الغسيل القذر ، حتى لا أضرب فكرة العروبة نفسها فى الصميم ، لعل أملاً يكون هناك فيما هو قادم من الأجيال والأعوام والقرون .

وأننى أشعر الآن بأننى طردت البخار الذى كان محبوساً فى صدرى ، وبأننى انتقمت بما فيه الكفاية لسنوات الذل ومحاولات التقزيم . ولكن لأنه لا يصح إلا الصحيح ، فالكاتب هو الذى ينتصر أخيراً ، حتى ولو قتلوه بالرصاص ، لأن الكلمة الصادقة هى التى تمكث فى الأرض أما شغل القرود وكلمات الرطانة من نوع المنجورى والحنجورى والمتدفق نحو الشفق الأعلى فى سبيل الشعور بحالة الخصوصية ، من أجل الشبحور والمشكور فى المنحور . . فهذه كلها مجرد أكاذيب . وأضاليل ، ولابد أن تذهب جفاء كغثاء السيل ! !

فهرس

****

هذا الكتاب

ولم يغير ذلك شيئا فى ثقة السعدنى أو سلامة نفسه ، كان يملك سلاح المصرى العتيد ، وتعويذته التى تحفظه فى كل العصور ، من كل الشرور ، وهى حاسة الفكاهة العريقة والتى يحول بها المصرى مآسيه الى مرح وضحكات مجلجلة ولابد لكل ثورة أن تبث عبقريتها وأصالتها بأن تنجب كاتبها الساخر يسجل ويفسر مفارقاتها وكان محمود السعدنى « ابنها البار ولسان حالها أيضا وأصبحت رباعية الولد الشقى ملحمتها الشعبية » الأولى .

مطابع أخبار اليوم التجارية – هليوبوليس